مكتبتنا العربية

مدير المجلة ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات بك
العنوان : إدارة الجامع الأزهر بالقاهرة
تليفون : ٨٤٥٩٥

مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

بدل الاشتراك
٥٠ في مصر والسودان
٦٠ في الأقطار الإسلامية
٥ ثمن الجزء

الجزء العاشر - القاهرة في غرة شوال سنة ١٣٧١ — ٢٣ يونية سنة ١٩٥٢ — المجلد الثالث والعشرون

فهرس

صفحة
٢ أين المسلمون اليوم من الاسلام ؟ لصاحب العزة الاستاذ أحمد حسن الزيات بك
٥ مثل الحق والباطل في كتاب الله لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ حسنين محمد مخلوف
٩ الوعظ الديني وكيف يكون لصاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك
١٢ لا ولاية بين الحق والباطل لصاحب الفضيلة الشيخ محمد محمد المدني
١٦ الاهلية في الشريعة الاسلامية والقانون المدني لصاحب الفضيلة الاستاذ عبدالوهاب خلاف بك
٢١ النغمة بين الفقه والقانون المدني لصاحب الفضيلة الدكتور محمد يوسف موسى
٢٧ التقوى في القرآن لصاحب الفضيلة الاستاذ محمود شلتوت
٣٣ دين العقل لصاحب العزة الاستاذ محمد احمد الغمراوي بك
٣٧ امة منطقية للاستاذ عباس محمود العقاد
٤١ منطق أرسطو والنحو العربي للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
٤٦ خصائص الثقافة الاسلامية لصاحب العزة الاستاذ محمد خلف الله بك
٤٩ حياة اللغة العربية في الجزيرة قبل الاسلام للدكتور عبد الحليم النجار
٥٤ علم الملوك لصاحب الفضيلة الشيخ عبد القادر المغربي
٦١ القمة الموحشة لصاحب العزة الاستاذ محمد فريد أبو حديد بك
٦٨ المساواة في الاسلام لصاحب العزة الدكتور علي عبدالواحد وافي بك
٧٣ الشيخ عبد الله الشرقاوي للاستاذ محمود الخفيف
٨٠ أزمة الضمير الديني لصاحب الفضيلة الدكتور محمد البهي
٨٤ المذهب المادي في العصر الحاضر للدكتور أحمد فؤاد الاهواني
٩٠ موازنة والتعليم بين رابليه وبعض فلاسفة الاسلام لصاحب الفضيلة الأستاذ محمود الخضيري
٩٤ الهندوكية دين في الناس عتيق لصاحب العزة الدكتور أحمد زكي بك
٩٩ انتعاش الاسلام في الجمهورية التركية لصاحب العزة الدكتور محمد عوض محمد بك
١٠٣ تحية ووصية لصاحب الفضيلة الشيخ علي الطنطاوي
١٠٣ العالم الاسلامي في شهر ... ...
١٠٧ ما يقال عن الاسلام ... ...
١١٤ كتب : آية البر من آيات القرآن ، النهضات الحديثة في جزيرة العرب ، الشفاء لابن سينا ، ايساغوجي ، الاتجاهات الحديثة في الاسلام ، موجز لطبيعة العرك ، إيران وأفغانستان .
١١٨ أنباء العالم الاسلامي ... ...
١٢١ الادب والعلوم في شهر ... ...
١٢٤ طرائف علمية وأدبية ... ...
١٢٧ النشاط الثقافي للازهر ... ...

مكتبتنا العربية

أين المسلمون اليوم من الإسلام ؟

أصبح من المعلوم فى بداهة العقل الحر أن الدين الإسلامى هو الصورة الكاملة لشرائع الله ، والقوة المهذبة لقوانين الطبيعة . وضع فيه شارعه الأعظم وهو فاطر الأرض ، وواهب الحياة ، ومنزل الوحى ، أسس القواعد التى تكفل للعالم نظامه وسلامه ، وللمجتمع وحدته وقوته ، وللفرد سعادته وكرامته ، مهما يتطاول الأمد وتتغير الحال . ومَن غير الله جلت قدرته يفجر نور الهدى للأرض من غار مظلم موحش ، ويبجس نبع الحياة للناس من جبل مجدب وعر ؟ وهل كان لولا وحى الله فى غار حراء من جبل النور ، فى مقدور أمى نشأ بين اليُتم والعُدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر ، أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته . وهى الحقوق التى أعلنت بعضها فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة ، وأعلنت بعضها أمريكا فى أواسط هذا القرن بعد الحرب ؟

وما كان لبشر سليم الفطرة أن يستريب فى أن الدين الذى أكمله الله لنبيه ، ورضيه لخلقه ، ونسبه إلى نفسه ، هو وحده مصدر الخير المحض ، ومظهر الكمال المطلق ، وسبيل الغاية التى يجد عندها ابن آدم المكدود المجهود نفَسا من كربه ، وراحة من تعبه ، وسكينة من اضطرابه ؛ تلك الغاية التى كان يراها ، منذ هبط العاصى من الجنة ، حداً لشقائه ونهاية لآلامه ، فكان يتشوف إليها من وراء الغيوب ، ومن خلال القرون ، فلا يراها ، لا فى الحروب التى شن ، ولا فى النظم التى سن ، ولا فى الشرائع التى اعتقد ، حتى أراد الله للأغب الضال أن يهتدى ويسترفه ، فكان محمد هو المنار ، وكان الإسلام هو المرفأ !

إن من المبادىء التى ميزت الإسلام التوحيد وهو سبيل القوة ، والإخاء وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء . وكل هذه المبادىء معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . وهى كما ترى تضمن أفضل ما فى الديمقراطية ، وأعدل ما فى الاشتراكية ، وأجمل ما فى المدنية ؛ فهى حرية أن تصلح ما فسد من أمور الناس ، وأن تقيم ما اعوج من نظام الدنيا . وقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين ، فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعانا فى فدافد الأرض ، لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى . ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه .

مكتبتنا العربية

أين المسلمون اليوم من إسلام عمر وخالد، والرشيد والمأمون، والناصر والحكم، والعزيز والحاكم؟ ألم يبلغ هؤلاء بفتوح الجيش وفتوح الدين وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمران ما لم تبلغه أمة من قبل، فنزل على حكمهم الدهر، ودخل فى ملكهم العالم؟

إن الدين الذى رفع هؤلاء السادة والقادة إلى الذروة، وضمن للخلافة فى عهودهم العزة والمنعة والقوة، لا يزال هو الدين، لا يغيره الزمن، ولا تجافيه الطبيعة، ولا يعاديه العلم، ولا تنسخه المذاهب؛ وإنما الأمر فيه كما قال الرسول صلوات الله عليه: «مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفة منها أخرى؛ إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ».

والمسلمون اليوم هم هذه القيعان، تحدرت إلى ما ركد فيها من سلسل الوحى عكارات المذاهب الطارئة، ورواسب العقائد الخاطئة، فكان منها ذلك الخلط العجيب الذى يعوق عن السعى ويمنع من النظر ويصد عن الفكر؛ ثم كان من أثره أن ترى اليوم مواطن العروبة والإسلام: مراكش والجزائر وتونس وليبيا ومصر وفلسطين وسورية والعراق وإيران وباكستان والصين وأندونيسيا وسائر جزر الهند الشرقية، قد أصبحت نهباً مقسما بين دول الاستعمار يتنازعون فيه، ويتقاتلون عليه، وليس من أهلها من يقول فيسمع قوله، أو من يفعل فيخشى فعله، وإنما هم أشياء كثرة الأرض، خسارة على المغلوب وربح للغالب.

لقد تغيرت عقائد الإسلام الحرة النقية فى نفوس الكثرة من المسلمين كما يتغير الشراب الخالص فى الإناء القذر! انحلت الأخلاق فلا تتماسك فى قول ولا فعل، وتقاطعت القلوب فلا تتواصل فى دين ولا وطن، واستأثرت النفوس فلا تتعفف فى صداقة ولا نسب، واستبهمت المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس؛ وأصبحت غاية الدين فى رأيهم مظاهر من العبادة لا تخدع، وظواهر من البدع لا تنفع، وأقاويل من الوعظ لا تدل.

من يصدق أن المسلمين اليوم يفقهون القرآن حق الفقه، وهو الكتاب المبين الذى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم، وكل انتفاعهم منه أن يحملوه للحفظ كما تحمل التمائم، وأن يقرءوه للبركة كما تقرأ الأوراد، وأن ينشدوه للطرب كما تنشد الأغانى؟

من يصدق أن المسلمين اليوم يقدرون الرسول حق القدر، وهو الذى قال فيه أصدق القائلين: «وإنك لعلى خلق عظيم»، «وعلمك مالم تكن تعلم، وكان فضل الله عليك عظيما»، وكل ما يمدحونه به أن يرفع المؤذن عقيرته فى الأذان بالصلاة على «مليح الوجه»، وأن يتغنى منشد سيرته المطهرة بحمرة خديه وسواد عينيه، كأن الصباحة والوسامة والرواء هى كل ما يمتاز به محمد نبى التوحيد والوحدة، ورسول السلام والمحبة، وداعى الحرية والكرامة! لقد أنف عبد الملك ابن مروان أن يمدحه ابن قيس الرقيات بقوله:

يأتلق التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب

مكتبتنا العربية

فقال له : وماذا من الفضل فى تألق التاج ونصاعة الجبين ؟ هلا مدحتنى بمثل ما مدحت به مصعب بن الزبير إذ تقول فيه :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ثم حرمه عطاءه العمر كله . والفرق بين فضل الرسول وفضل الخليفة كالفرق بين الجبل والذرة ، أو بين الشمس والشرارة !

من يصدق أن المسلمين اليوم يؤمنون بالإسلام وفيهم من يؤمن بالشيوعية وأهلها يزعمون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه . ثم يقولون بكل وسيلة من وسائل القول : كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ! والمسلمون يسمعون هذه الأضاليل تبث فى الإذاعة ، وتنشر فى الكتب ، وتردد فى المجالس ، فيرهفون لها سمع الغبى ، وتدفعهم شهوة الإباحية إلى أن يشتروا الضلال بالهدى ، ويستبدلوا الخبيث بالطيب ، ويؤثروا أن يكونوا كالذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم.

والعلة فى كل أولئك هى الجهل التام والعلم الناقص ، فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن ، وفقهوا دينهم فقه المقتنع ، واتبعوا رسولهم اتباع المصدق ، لما أصبحوا فى الحال التى تنبأ بها الرسول صلوات الله عليه إذ قال : «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن» . فقال قائل : أومن قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ قال : لا . إنكم حينئذ لكثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ! فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت .

* * *

« ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ؟ » .

بلى ، والحمد لله قد أنى للمؤمنين أن يكشفوا عن العيون غشاوة الباطل ، ويجلوا عن القلوب صدأ الغفلة ، فيبصروا الطريق ويستبينوا الغاية . وإن فى يقظة الوعى الإسلامى التى بدت فى تعاطف المسلمين على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث ، لأشعة من تباشير الصباح ، قبلها الليل المظلم ، وبعدها النهار المشرق . ولعل الأزهر وحده هو الذى يملك أن يقوى هذا الوعى ويوجه هذا الشعور . إذا عمر الصدور بالإيمان الخالص عن طريق التعليم فى المدارس ، والوعظ فى المساجد ، والنشر فى الصحف ، والحديث فى الإذاعة ، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب ، وفيما يدرس المتعلمون من مناهج ، وفيما يقمش الموهون من بدع ؛ فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره وتصلهم بروحه . والفتام يحجب الشمس ، والقذى يفسد الشراب . وإن الماء إذا راق ساغ ، وإذا ساغ روى . ومما قريب نبشر المسلمين والأزهريين بما رأى الشيخ الأكبر من إصلاح ، وبما عزم من عمل . جدد الله بسعيه حبل الإسلام ، وحقق فى عهده صلاح الأزهر ؟

أحمد حسن الزيات

مكتبتنا العربية

فى الدين والفقه

مثل الحق والباطل فى كتاب الله

لصاحب الفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية

قال الله تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل ؛ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الارض . كذلك يضرب الله الأمثال » .

بين الله تعالى فى الآيات السابقة ما كان من المشركين من التشبث بالباطل واتخاذهم أولياء من دون الله ، وما كان من المؤمنين من الإذعان للحق ، والإقرار بالوحدانية لله تعالى .

ومثل للفريقين بالأعمى والبصير ، ومثل للشرك والتوحيد بالظلمات والنور فى قوله « قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور » . ثم قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار .

قامت دعوة الإسلام على هذا التوحيد الخالص ، وأن كل ما سوى الله تحت سلطانه وقهره لا مثيل له من خلقه ولا شريك له فى ملكه وجاء القرآن يضرب أروع الأمثال ، ويقيم أقوى البراهين للهداية إليه ، والدلالة عليه ، فاستجابت له الفطر السليمة . وأذعنت له العقول المستنيرة ، فعرفت أنه الحق ، وجحدته خلائق عنادا واستكبارا أو جهلا وضلالا . فعمى عليهم السبيل « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

بعد أن بين الله هذا ضرب فى هذه الآية مثلين للحق فى استقراره وثباته ، وللباطل فى زهوقه واضمحلاله . ليبين أن الباطل وإن استعلى أمة من الدهر لابد أن يقهر ويزول ، وأن الحق وإن اختبأ ضوءه حيناً لابد أن يبدو .

وقد جرت عادة القرآن أن يضرب الأمثال للناس عظة واعتباراً ، وهداية واستبصاراً ، وتنويراً للعقول ، وتقريباً للمعقول ، حتى أصبحت أمثال القرآن فناً رائعاً من فنون البلاغة ، وعلماً مدوناً من علوم القرآن .

قال تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون »

وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) . ومنها هذه الآية الكريمة فقد نظمت فى سلك واحد مثلين لكل من الحق والباطل . أولهما مثل مائى ، والثانى مثل نارى ، نظما فائقا بديعاً ، وتأليفاً رائعاً بليغاً ، وتصويراً للحق والباطل بصورة محسوسة لتتمكن منها العقول فضل تمكن .

فشبه الله الحق بالماء الذى يستقر فى بطون الأودية بعد السيل فى صفاء ونقاء بعد أن يخلص من الزبد والغثاء فينتفع به الناس فى كل شىء .

وشبه بالمعادن التى ينتفع بها الناس حلية أو متاعا بعد أن تخلص من الخبث بالصهر بالنار .

أما الباطل فشبه بالزبد الرابى الذى يحمله

مكتبتنا العربية

السيل فى قوة اندفاعه ثم لا يلبث أن تدفعه الرياح ، وتقذفه الأمواج إلى جنبات الأودية فيضمحل ويذهب ، وبالخبث الذى يخالط المعادن فى الأرض ويعلوها إذا صهرت كزبد السيل ثم يقذف به ويرمى لتصفو من كدره فإذا هو لقى مطرح ، وإذا المعدن خالص نقى .

وذلك قوله تعالى : (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) بمقدارها الذى اقتضته الحكمة الإلهية فى نفع الناس بالماء (فاحتمل السيل زبداً رابياً) عاليا فوق وجه الماء ، والزبد هو الرغوة والغثاء الذى يحمله السيل إذا جاشت مياهه واضطربت أمواجه وهذا مثل للحق والباطل، ثم ضرب المثل الآخر بقوله تعالى (ومما يوقدون عليه فى النار) من المعادن النفيسة وغير النفيسة (ابتغاء حلية أو متاع) أى ابتغاء اتخاذها حلية للزينة والتجمل أو متاعا ينتفع به . (زبد مثله) مثل زبد السيل فى كونه رابيا فوقه (كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى يضرب مثل كل منهما هداية وتبصرة للناس . (فأما الزبد فيذهب جفاء) مرمياً به مقذوفا . يقال جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورماه . (وأما ماينفع الناس) من الماء الصافى النقى من الغثاء ، ومن الجوهر الخالص النقى من الخبث (فيمكث فى الأرض) .

فعقيدة التوحيد هى الثابتة المستقرة التى ينتفع بها فى الدار الأخرى ، وعقيدة الشرك والضلال هى المضمحلة الزائلة التى لا نفع لها فى العقبى (كذلك يضرب الله الأمثال) فى كل شأن جليل لكمال اللطف والعناية فى الإرشاد والهداية .

وبعد أن بين سبحانه مثل الحق والباطل فى الحال والمآل ، بين مآل المحقين والمبطلين يوم الجزاء بقوله (للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد) . فأما الذين استجابوا لربهم حين دعاهم إلى الحق واعتصموا به فلهم المثوبة الحسنى والجزاء الأوفى (وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون) .

وأما الذين لم يستجيبوا له وتشبثوا بالباطل والأهواء وتقليد الآباء فلو أنهم يملكون ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أنفسهم من عذاب الله . أولئك لهم سوء الحساب . وهو الحساب الذى لا يغفر لهم فيه ذنب . ومأواهم جهنم وبئس المهاد .

بالدعوة إلى الحق نطقت آيات القرآن فاستجاب لها ، وآمن بها من شرح الله صدره للإسلام وأودع فى قلبه النور والهدى ، فأبصر واهتدى ، وكذب بالآيات من ختم الله على قلبه وعلى سمعه ، وجعل على بصره غشاوة فضل السبيل وغوى . وذلك قوله تعالى (أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) .

وقد بين الله تعالى إثر ذلك أن الأمثال التى يضربها للناس للاعتبار ، والأعلام التى ينصبها للهداية ، إنما ينتفع بها أولو الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها ، ويفهمون فى كل قصة مغزاها ، ويأخذون من كل قشرة لبابها . وينفذون من ظواهر الأشياء إلى أسرارها وحكمها . فقال سبحانه : (إنما يتذكر أولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب . والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم

مكتبتنا العربية

وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار)

هؤلاءهم أولو العقول السليمة وهم الذين يعقلون ما ضرب الله من الأمثال ويعبرون منها إلى ما وراءها من الأحكام والحكم والأسرار وقد وصفهم الله تعالى بتسع صفات .

١ - وصفهم بأنهم يوفون بعهد الله . وعهد الله هو كل ماعوهد الله عليه وأمر بحفظه ومراعاته، فيشمل الميثاق الذى أخذه على عباده بمقتضى الفطرة أن يقروا بربوبيته ويشهدوا بوحدانيته ، والأحكام التى ألزم بها عباده فى كتابه وسنة رسوله ، وما ألزم به العباد أنفسهم من القرب ونوافل الطاعات ، والوفاء بالعهد فى العبادات ورأسها الإيمان ، وفى المعاملات والأمانات وغيرها من أخص صفات المتقين ، والإخلال به من أمارات النفاق والحث عليه مما لا يحصى كثرة لعظم شأنه وجليل أثره فى صلاح المجتمع .

قال تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » ، « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه »

وفى الأحاديث : (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له) (ومن عاهد الله فغدر كانت فيه خصلة من نفاق) (ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى عهداً ثم غدر ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى عمله وظلمه أجره ، ورجل باع حرا فاسترق وأكل ثمنه.

٢ — ثم وصفهم بأنهم لا ينقضون الميثاق الذى وثقوه على أنفسهم والتزموه فيما بينهم وبين الله تعالى من الإيمان به والتزام أحكامه والوفاء بما شاء من طاعاته . وفيما بينهم وبين العباد من العقود والمعاملات على اختلافها. واحترام المواثيق مثل الوفاء بالعهود لا يصدر إلا عن النفوس الأبية .

والحث عليه فى القرآن والسنة من صميم الإصلاح الاجتماعى الذى حرصت عليه الشريعة .

وليس من ذلك بالضرورة تلك المواثيق والعهود الباطلة أو الضارة التى تقع بين الناس ، أو بين الدول فإنها واجبة النقض والرفض ، ولا يجوز الوفاء بها بأى حال ، بل هى من المنكر الذى يجب أن يزال .

٣ — ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل فى كتابه وعلى لسان رسوله فيصلون بينهم وبين ربهم بالإيمان به والإذعان لأحكامه والاحتكام إليها فى كل دقيق وجليل (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ، ويصلون بينهم وبين الناس بالحسنى واحترام الحقوق والمواساة والبر والإحسان . ويصلون ذوى الأرحام توثيقاً للروابط بين الأسر ، وتأكيداً للتعاون على البر .

وفى الحديث ثلاث يأتين يوم القيامة لهن ذلق (أى حدة لسان) الرحم ، تقول أى ربى قطعت ، والأمانة تقول أى ربى تركت ، والنعمة تقول أى ربى كفرت .

بل يصلون الحيوان الأعجم برعاية حقه والرفق به والإحسان إليه حتى فى ذبحه وبالقيام بما يطلب فى شأنه وجوبا أو ندبا ، فهو مما أمر الدين أن يوصل.

وعن الفضيل بن عياض الخراسانى أن جماعة وفدوا عليه بمكة فقال من أين أنتم قالوا من أهل خراسان ، يذكرونه بما بينهم وبينه من صلة المنشأ - فقال : اتقوا الله تعالى وكونوا من حيث

مكتبتنا العربية

شئتم واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن محسنا .

هذا موقف دين الإسلام من الرفق بالإنسان بل والحيوان عامة ، فأين منه أولئك القساة الذين يفنون الأمم بالقنابل الذرية وغير الذرية ، ويسترقون الأحرار بكل ما أوتوا من قوة ، ويسومون الإنسان الخسف والهوان ، إن الإسلام قد أعلى مبادىء الحرية منذ ألف وثلثمائة ونيف وسبعين عاما ، وأقام الصلة بين الإنسان وأخيه الإنسان على أساس الإخاء والتراحم وقرر مبدأ الرفق بالحيوان والإحسان إليه ، فأية مدنية تدانيه ! وأية حضارة تفاخره .

٤ — ثم وصفهم الله بأنهم يخشون ربهم فإذا ذكر الله وجلت قلوبهم وهابوه مهابة الجلالة مهما جهدوا فى طاعته ودنوا من مرضاته فإن أقرب العباد إلى الله أشدهم له خشية .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس خشية من الله وهو الذى غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

إن الخشية من الله تعالى ثمرة العلم بعظمته وجلاله وقدسيته وكماله قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ومن لم يعرف الله ولم يشهد جلاله لا تطرق قلبه خشية الله ، ولذلك كان أجرأ الناس على الله أجهلهم به وأبعدهم عنه .

٥ — ثم وصفهم الله بأنهم يخافون سوء الحساب فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ويرجون من الله العفو عن السيئات ومن نوقش الحساب عذب . ومن لم يظفر بالعفو هلك .

٦ — ثم وصفهم الله بأنهم يصبرون ابتغاء وجه ربهم على أداء الأوامر واجتناب المنهيات ، وعلى قمع الشهوات طمعا فى رضا الله ، ورضاء بما قدره وقضاه ، وثقة بأن الخير فيما كان لا فيما يؤمل أن يكون . والصبر عدة الجهاد ، وعنوان اليقين وهو لأجل الله أعظم وأكمل .

٧ — ثم وصفهم الله بأنهم يقيمون الصلاة فيأتون بها قيمة كاملة الهيئة والأركان . وهى سنام الإسلام وعموده ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى الفارق بين المؤمن وغير المؤمن .

٨ — ثم وصفهم بأنهم ينفقون مما رزقهم الله سراً وعلانية على الفقراء والمساكين لا يقتصرون فى ذلك على القدر المفروض من الزكاة بل يؤدون لإخوانهم المؤمنين ما يعلمون أنهم فى مسيس الحاجة إليه مهما كان قدره ، وفى هذا إصلاح للمجتمع ، وبعث روح التعاون والتعاطف بين الناس . وهو باب إذا ولجه المسلمون بصدق وإيمان قوى ، انجابت عنهم شرور ومحن .

٩ — ثم وصفهم أخيراً بأنهم يدرءون بالحسنة السيئة فيدفعون الذنوب بالتوبة والاستغفار ويدفعون الشر بالخير ، والجهل بالحلم ، والإساءة بالإحسان وفى هذا التسامح الأمن والسلام والمحبة والوئام .

وكم كان لمقابلة الشر بالشر والسيئة بالسيئة أثر سيء وأخطار فادحة !

ومن أدب القرآن فى ذلك قوله تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما) وقوله تعالى (وأعرض عن الجاهلين) .

أولئك المتصفون بهذه الصفات المتخلقون بهذه الأخلاق (لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)

حسنين محمد مخلوف

مكتبتنا العربية

الوعظ الدينى وكيف يكون

للدكتور احمد امين بك

من أهم أركان الإسلام الوعظ الدينى . ولهذا عد من أهم تعاليمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وليس هذا إلا الوعظ . وأساس الفكرة أن الإنسان ليس مسئولا عن نفسه فقط ، بل هو مسئول أيضاً عن مجتمعه الذى يعيش فيه ؛ لأن أى شر يصيب المجتمع يصيب الفرد ، وأى خير يصيب المجتمع يصيب الفرد . يقول الله تعالى: « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » وفى الحديث ما معناه: أن جماعة ركبوا سفينة فاقتسموا فصار لكل منهم موضع، فأخذ أحدهم نصيبه يكسر فيه ، فقالوا له ما تصنع؟ قال: هو مكانى أفعل به ما أشاء . قال: فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإلا هلك وهلكوا . وهى نظرة تؤيدها النظريات الحديثة فى علم الاجتماع، فكل فرد فى مجتمع مسئول عن كل ما يجرى فيه من خير أو شر ، ومكلف أن يطالب بالخير ، ويتجنب الشر وليست البرلمانات الحديثة إلا أسلوباً راقياً للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وهذا العمل من أهم الأعمال التى ينبغى أن يقوم بها الأزهر على خير وجه . وهو شاعر بهذه التبعة ، فهو يقوم بالوعظ ، ويؤسس له قسما يسمى قسم الوعظ والإرشاد ، ويبعث البعوث فى البلاد الإسلامية لتحقيق هذا الغرض . بل إن الأزهر أيضاً أسس للوعظ والإرشاد ، لتحقيق الأغراض الشيعية . فجُعل فيه أول ما جعل مجلس لداعى الدعاة ، لا يزال مضمون أحاديثه بين أيدينا ، وأنيب عنه الدعاة فى جميع البلدان .

والآن وقد زالت عنه الصبغة الشيعية لا يزال يعظ ويدعو ، ولكن : هل يحقق الغرض من الوعظ؟ إن النجاح فى الوعظ يحتاج إلى شيئين (١) إجادة لأساليب الوعظ من الواعظ ، (٢) استجابة من الموعوظ . فإذا لم تكن هذه الاستجابة ، فمهما بلغ الواعظ فى وعظه ، لا يؤثر فى السامع . أما الموعوظون فهم فى الغالب يحسنون الاستجابة إذا وفق الواعظ ، لأن الإيمان لم يمت فى قلوب أكثر الناس ، وإنما هو نائم فى أعماق نفوسهم ، يحتاج إلى إيقاظ ، وهذا الموقظ هو الواعظ . وإجادته تحتاج إلى أمرين أيضاً :

(١) علم بنفسية الموعوظين ، فيعرف ما يناسبهم وما لا يناسبهم ، وما يحركهم وما لا يحركهم .

(٢) وعلم بأساليب الكلام الذى يتفق معهم . وقد قال علماء البلاغة فى كتبهم « إن البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . فمتى جهل الواعظ بنفسية الذين يعظهم ، أو جهل أساليب الكلام التى تتفق معهم ، انقلب الوعظ سخرية . وقد حدث أنى رأيت من أمثال هذا الفشل فى الوعظ مثلين ، حزنت لهما حزنا شديداً :

مكتبتنا العربية

الأول : أنى رأيت واعظاً يعظ النساء فى مسجد الحسين رضى الله عنه ، فيروى لهن حديثاً ، ثم يريد أن يشرحه ، فيدخل فى تفاصيل لا معنى لها : من ذلك أنه يسائلهن ، لم حذف المسند إليه ، ، وهن لم يسمعن قط بمسند ولا مسند إليه والثانى شهدته وأنا قاض فى الواحات الخارجة ، فرأيت خطيب المسجد يحذر الناس من قضاء الصيف فى باريس ، مع أن السامعين فى غاية التأخر والانحطاط ، لم يسمعوا بباريس ولا بأوربا . وكل أملهم إذا رحلوا أن يرحلوا إلى الصعيد أو إلى القاهرة . وإنما دعاه إلى هذا الغلط أنه كان يقرأ من ديوان مطبوع ألف فى وعظ أهل القاهرة .

كل هذا يدل على أن الواعظ ينبغى أن يكون عالما بأسرار النفوس ومقتضيات الأحوال . وقد أنصف العلماء الأولون إذ سموا تقويم الأخلاق ، الطب الروحانى ، مقابلة بالطب الجسمانى . فكما أن الطبيب الجسمانى يجب أن يتحسس المرض ليتعرفه ، ثم يضع له ما يناسبه من العلاج ، فكذلك الطبيب الروحانى يجب أن يتعرف أمراض النفوس وطرق علاجها . وهذا علم خاص قد يوفق فيه من لا يحسن النحو والصرف والتفسير والفقه ، ولا يوفق فيه من يحسنها . بل نرى الرجل قد يكون جاهلا من الجهال ، أو صانعاً من الصناع ، فيقف بين أمثاله من العمال فيأتى لهم بكلام دقيق مفيد قد لا يحسنه العالم المطمطم .

ثم إن من عيوب الوعاظ عندنا أنهم كثيراً لا يدرون من شؤون الدنيا شيئاً ، والدنيا قد أصبحت غير الدنيا ، وكل علمهم أنهم ينقلون من كتاب قديم ، أو نظرة قديمة . خذ لذلك مثلا كلامهم فى أكثر وعظهم فى المساجد ، وفى خطب الجمعة على المنابر فإنه يدور حول طلب التزهد والرضا بما كان . ولكن هل الزمان صالح لهذا ؟ إن الزمان قد تغير ، وأصبحت النصيحة الصحيحة ، الحث على الكفاح فى سبيل كسب العيش ، والعمل الدائب على رفع مستوى المعيشة ، ومطالبة الحكومة بأن تعمل لصالح الشعب ، وأن تعمل للفقير أكثر مما تعمل للغنى ، وتفهيم الفلاح أن له حقا على الحكومة أن يسكن بيتاً نظيفاً ، ويشرب ماء نظيفاً إلى آخر ذلك . أما المطالبة بالتزهد فأصبحت نمطاً قديماً وأسلوبا بالياً ، لعلها اخترعت لتخدير أعصاب الناس ، وعدم مطالبتهم بحقوقهم ، وصبرهم على فقرهم ليتمتع الأغنياء كل التمتع بغناهم ، ورمى الحمل على القدر الذى جعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، كأن الجهد والعمل والنشاط والكد لا أثر لها فى الموضوع . وكل عصر يتطلب نوعا من الكلام يناسبه . قد كان الكلام مثلا فى العصر الماضى حول النساء جميلا ومفيداً فى احتجابهن وعدم تعليمهن القراءة والكتابة ومثل ذلك . ولكن هذا الكلام إذا ألقى اليوم كان مثاراً للضحك ، لأن الزمان قد تغير ، والعقلية قد تغيرت .

وكما اختلفت الموضوعات من عصر إلى عصر اختلفت أساليب الكلام . فالكلام الذى فى

مكتبتنا العربية

الكتب الدينية القديمة ، وكتب الفقه لا يصلح أن يكون لغة للعصر الحاضر بل لا بد أن يترجم إلى لغتنا لنفهمه . ولكل عصر أسلوبه .

وقد شاهدت وعاظاً أوربيين يخطبون فى كنائسهم ، فلأنى العجب والإعجاب من بعضهم . يختارون موضع الحديث مما حدث فى الأسبوع ، ثم يتحدثون عنه حديثاً علمياً ودينياً رائعا . يدل على معرفة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع ، وعلى علم تام بالأساليب .

وقرأت مجلة تنشر للأطفال وفى كل عدد منها فصل دينى يتناول مشكلة دينية فيحللها تحليل العصر الحاضر ، ويعبر عنها تعبير العصر الحاضر ، مما ليس له عندنا مع الأسف مثيل .

إن الواعظ أول كل شىء ، يجب أن يملأ عين السامع ؛ لأن هيبة السامع من الواعظ وتوقيره يتوقف عليهما نصف العمل بالعظات .

إن مهمة الوعظ فى زمننا متشعبة متنوعة ، فوعظ العلماء فى المعاهد ، وخطبة الخطباء على المنابر أيام الجمع ، والدروس الدينية فى المدارس . والإذاعات الدينية فى المذياع وغير ذلك ، كلها قادرة إذا صلحت أن تغير من نفسية الشعوب ، وتدفعهم دفعاً قويا إلى الأمام ، لأن أعمال الإنسان وليدة عقيدته ، فإذا أصلحت العقيدة وامتلأ القلب إيمانا ، صلح العمل ، وقلت الجرائم ، فاتجهوا اتجاها نافعاً فى الحياة العامة من اقتصادية واجتماعية وأخلاقية بل وسياسية . فإنى أعتقد أن الخطأ حتى فى التصور السياسى نتيجة لضعف الإرشاد .

لقد شاهدت فى حياتى واعظين مجيدين ، أحدهما الشيخ زكى الدين سند فى المسجد الحنفى ، فقد كان من أحاديثه وأساليبه ونبرات صوته مايسيل الدموع ، ويحرك القلوب ، ويحمل على التوبة من المعاصى والإقبال على الطاعات ، فكان بذلك مثلا رائعاً ، لولا أنى لاحظت فيه عيباً وهو : اشتمال خطبته على موضوعات كثيرة . أو دعوة إلى تقوى الله بشكل عام . وأعتقد دائما أن النجاح فى هذه المواعظ ، إنما يكون بالكلام فى جزئية وتوسيعها وتعميقها ، واستخراج العظة البالغة منها . والثانى كان الشيخ على الجربى رحمه الله . فقد كان من أكبر مزاياه أنه كان يفقه نفسية السامعين ، وينزل إليهم ليأخذ بيدهم ويصعد بهم . وكان من أهم مزاياه أيضاً أنه يشرك السامعين معه فى الأقوال فيكون كما يفعل الفرنج الآن ، يطلبون من الحاضرين أن يغنوا معهم ، فيطلب من الحاضرين بعد موعظة من المواعظ أن يقولوا تبنا إلى الله ورجعنا إليه ، وعزمنا على أن لا نعود . ويكرروها فتمتلىء نفوسهم بالهيبة والجلال ، والعزم على مواجهة الله بالأعمال الصالحة . وحبذا لو كثر عندنا أمثال هؤلاء يلهبون العواطف ، ويثيرون المشاعر ، ويبكون على الشر ، ويبعثون على الخير . قد انضاف إلى مواهبهم معرفة بالدنيا الحاضرة وشؤونها . وما يحسن أن يقال فيها ، وكيف يقال فيها . إذن لانتقلنا نقلة واسعة ، وخطونا خطوات جريئة . والله الموفق .

أحمد أمين

مكتبتنا العربية

الأهلية في الشريعة الإسلامية والقانون المدني

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد الوهاب خلاف بك
أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول

البحث فى أهلية الإنسان لإلزامه والتزامه بالحقوق والواجبات ، ولاعتبار ما يصدر عنه من العقود والتصرفات ، ومطالبته بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، من أول البحوث التشريعية الأساسية فى الشريعة الإسلامية ، والشرائع الوضعية ؛ لأن مدار التكليف بالأحكام شرعية كانت أو وضعية أهلية الإنسان لما يكلف به ولاعتبار ما يصدر عنه ، ولهذا أفاض علماء أصول الفقه الإسلامى فى بحوث هذه الأهلية وبيان المراد منها ، وأساس ثبوتها للإنسان ، وأنواعها ، ومتى تثبت للإنسان ، ومتى تنتهى ، وتأثير العوارض التى تعرض للإنسان فى أهليته وغير هذا من البحوث التى أوفوها حقها أتم إيفاء ومنارهم فى كل بحوثهم أن الإنسان مدنى بفطرته لابد له من تبادل الحقوق والواجبات مع بنى نوعه . وأن مناط اعتبار أقوال الإنسان وأفعاله تمييزه بعقله . وأنه لا تكلف نفس إلا وسعها . وقبل أن نبدأ فيما قصدنا إليه وهو الموازنة بين الشريعة الإسلامية والقانون المدنى المصرى فى بعض بحوث الأهلية نمهد ببيان معنى الأهلية فى اللغة العربية وفى اصطلاح الشرعيين .

الأهلية : لفظ من المصادر الصناعية كالإنسانية والجنسية والوطنية ، ومعناه فى اللغة العربية الصلاحية يقال: هو رجل أهل لأن يكرم أى صالح للتكريم . واستأهل للخير أى صار أهلا له . والمؤهلات : المميزات التى تجعله أهلا . فأهلية الإنسان للشىء معناها فى اللغة العربية صلاحيته له .

وأما الأهلية فى اصطلاح الشرعيين فالمراد منها صلاحية الإنسان لأن تجب له حقوق على غيره ولأن تجب لغيره حقوق عليه . وصلاحيته لأن تعتبر شرعا أقواله وأفعاله : فتترتب الآثار والأحكام على ما يصدر منه من قول أو فعل .

ومن هذا يتبين أن الأهلية فى اصطلاح الشرعيين نوعان أحدهما أهلية لتبادل الإلزام والالتزام بالحقوق والواجبات أى أهلية الإنسان لأن تفرض له حقوق وتفرض عليه واجبات . وهذه تسمى أهلية الوجوب أو أهلية التمتع . وثانيهما أهلية لمباشرة العقود والتصرفات والقيام بالتكليفات وأداء الواجبات بحيث يكون ما يباشره الإنسان معتبراً شرعاً وتترتب عليه آثاره فإن كان عقداً أو تصرفاً ألزم بما يقتضيه . وإن كان واجبا أسقط عنه . وإن كان جناية أوخذ بها . وهذه تسمى أهلية الأداء أو أهلية المباشرة . ووجه التسمية ظاهر لأن النوع الأول هو مجرد صلاحية الإنسان لأن يجب له ولأن يجب عليه من غير نظر إلى أداء الواجبات أو اقتضائها . وأما النوع الثانى فهو صلاحيته للتنفيذ ومباشرة الأعمال بأداء

مكتبتنا العربية

ماعليه ، واقتضاء ماله ، وعقدالعقود ، والتصرف بالتصرفات واعتبار كل هذا منه . ونحن نوازن بين الشريعة والقانون المدنى فى كل من النوعين :

١ – أهلية الوجوب

أهم البحوث فى أهلية الوجوب هى ما المراد منهـا ، وما أساسها فى الإنسان ، ومتى يبتدىء ثبوتها للإنسان وبم تنتهى ؟ وما أطوار الإنسان بالنسبة اليها ؟

١ – ما المراد منها – تبين من التمهيد الذى قدمناه أن المرادبأهلية الوجوب صلاحية الإنسان لأن تجب له حقوق على غيره ولأن تجب لغيره حقوق عليـه . أو صلاحيته لتبادل الالتزام والإلزام مع بنى نوعه .

وهذا المعنى لم يختلف فيه الشرعيون والقانونيون ؛ ولـكن القانون المدنى استعمل كلمة شخصية الإنسان بدلا من كلمة « أهليته للوجوب » فقد جاء فى المادة ٢٩ ما نصه « تبدأ شخصية الإنسان بتمام ولادته حيا وتنتهى بموته » وليس بين الكلمتين تباين فى الجوهر لأن أهلية الوجوب للإنسان تترتب على شخصيته فبمجرد مايصير الإنسان فى الوجود شخصاً له استقلاله بشخصيته صار محتاجا إلى تبادل الحقوق والواجبات فثبتت له أهلية الوجوب . ورأيي أن التعبير الشرعى أنسب بالتقنين ولو قيل تبدأ أهلية الوجوب للإنسان بتمام ولادته لكان أولى .

٢ – ما أساسها فى الإنسان ؟ الإنسان مدنى بفطرته ولابد له فى حياته من التعاون مع بنى نوعه . وهـذا التعاون الضرورى لنظام المجتمع الإنسانى يستلزم أن يكون كل فرد من أفراده أهلا لأن يلتزم بحقوق لغيره ، ولأن يلتزم غيره بحقوق له حتى يتوافر تبادل المصالح والحاجات ، فكل إنسان حى ، سواء أكان طفلا أم مميزاً أم بالغاً ؛ وسواء أكان عاقلا أم مجنوناً أم معتوهاً ؛ وسواء أكان رشيداً أم سفيهاً له أهلية للوجوب له وعليه .

وقد قرر علماء الشريعة الإسلامية أن أساس ثبوت هـذه الأهلية للإنسان ذمته . وعرفوا الذمة بأنهـا وصف شرعى اعتبارى مفروض وجوده فى الإنسان ، وبه يصير الإنسان أهلا للوجوب له وعليه . ومنشأ اعتبار هذا الوصف الشرعى فى الإنسان هو الفطرة التى فطره الله عليها ، إذ كوّنه من مجموعة من حواس ظاهره ، وقوى عاقلة ، ونفس باطنة ، أى أن المجموعة الإنسانية المكونة من قوى ظاهرة وباطنة جعلت للإنسان استعداداً خاصاً به ليس لغيره من الحيوانات . وبهذا الاستعداد استأهل للوجوب له وعليه . فالذمة هى الاستعداد الفطرى للإنسان ، أو هى الخاصة التى ميز الله بها الإنسان عن سائر الحيوان ، أو هى إنسانية الإنسان . فليست الذمة الإنسانية وصفا حسيا يدرك بإحدى الحواس . وليست الذمة الإنسانية هى العقل ، لأن المجنون الفاقد العقل له ذمة ، وإنما هى خاصة الإنسان التى ثبتت له من تكوينه الخلقى ، وامتاز بها عن غيره من المخلوقات وبها استأهل للوجوب له وعليه . فذمة الإنسان ، والاستعداد الفطرى

مكتبتنا العربية

للإنسان ، والخاصة الإنسانية فى الإنسان ألفاظ مترادفة . وفى تفسير قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ، ذهب بعض المفسرين إلى أن الأمانة هى الذمة أو الفطرة التى استأهل بها الإنسان للوجوب له وعليه .

فالله سبحانه صور لعباده الفرق بين الفطرة التى فطر عليها الإنسان والفطرة التى فطرت عليها السموات والأرض والجبال . فالفطرة التى فطرعليها الإنسان أعدته للالتزامات وتبادل الواجبات فحمل الواجبات والتكليفات . والفطرة التى فطرت عليها السموات والأرض والجبال لم تعدها هذا الاستعداد فلم تحمل الواجبات ولا التكليفات . وبعض علماء القانون ذهبوا إلى أن أساس أهلية الوجوب فى الإنسان هو القانون وذلك لأن القانون أثبت لكل إنسان حى الحق فى أن يطالب هو أو من يلى أمره بحقوق له وفى أن يطالب هو أو من يلى أمره بحقوق عليه ؛ فتمليك الشرع أو القانون للإنسان أن يطالب أو يطالب هو أساس أهليته للوجوب ، لأنه لا يطالب إلا بما وجب له ولا يطالب إلا بما وجب عليه فالقانون الذى أثبت للإنسان أن يطالب ويطالب هو الذى أثبت له أهليته للوجوب له وعليه . وهذا خلاف غير جوهرى . ولفظ الذمة شائع استعماله فى الشرع وفى القانون كما فى قولهم : الأصل براءة الذمة - وفى قولهم براءة ذمة الواقف ليست شرطاً لصحة وقفه .

وفى قولهم : الكفالة ضم ذمة إلى ذمة فى المطالبة . فلا بد أن يكون لهذا اللفظ معنى مراد منه وهو ما بيناه وهو معنى مقدر فى الإنسان أو معتبر وجوده فيه .

٣ — متى يبتدىء ثبوتها للإنسان وبم تنتهى ؟

تثبت أهلية الوجوب للانسان من حين أن يكون حملا مستكناً فى بطن أمه . وتستمر له من حين ولادته إلى أن يموت ويوفى ما عليه ويستوفى ما له وتنفذ وصاياه وتورث تركته .

فالحمل المستكن تثبت له أهلية وجوب عند فقهاء الشريعة الإسلامية . وذلك لأنهم نظروا فى الحمل المستكن فوجدوا أن الشارع أثبت له أحكاماً تدل على أنه اعتبر له شخصية واعتبره أهلا للوجوب . وأثبت له أحكاما تدل على أنه لم يعتبر له شخصية واعتبره جزءاً من أمه .

فالشارع حكم بأن الحمل يرث مورثه ولهذا يحفظ له نصيبه حتى يولد حياً فيستحقه . وحكم بأن الحمل يستحق ماأوصى له به . وحكم بأن الحمل يستحق فى ريع الوقف . وبأن الحمل يقام عليه وصى .

فهذه الأحكام تدل على أن الشارع اعتبر للحمل شخصية وأثبت له أهلية للوجوب له .

ومن وجهة ثانية الشارع حكم بأنه إذا بيعت الجارية الحامل دخل حملها فى البيع تبعاً لها . وإذا أعتقت الجارية الحامل عتق حملها تبعاً لها . فهذه الأحكام تدل على أن الشارع لم يعتبر للحمل شخصية واعتبره جزءاً من أمه فتوفيقاً بين هذه الأحكام قرر فقهاء الشريعة الإسلامية أن للحمل

مكتبتنا العربية

أهلية وجوب . ولكنها أهلية وجوب ناقصة أى أنه أهل لأن تجب له حقوق وليس أهلا لأن تجب عليه حقوق لأن الأحكام التى أثبتها الشارع له تدل على أهليته لأن يجب له ولم يثبت له الشارع حكما يدل على أهليته للوجوب عليه . ولهذا قالوا إن الحمل المستكن فى بطن أمه له أهلية وجوب ناقصة أى أهلية لأن يجب له لا لأن يجب عليه .

فإذا ولد الحمل حيا تثبتت له من حين ولادته أهلية وجوب كاملة ، أى أهلية لأن يجب له وعليه وأى حال كان فى صغره وكبره وجنونه وعقله وسفهه ورشده لأنه فى كل حال إنسان . وإنسانية الإنسان هى أساس أهليته للوجوب . فإذا مات وله تركة وعليه حقوق لغيره وله حقوق على غيره تعتبر أهليته للوجوب ثابتة حتى تسوى أموره وتصفى تركته . فإذا تم هذا انتهت ذمته وانتهت أهليته للوجوب .

أما القانون المدنى فقد خالف فى مبدأ ثبوت أهلية الوجوب للإنسان ، وفيما تنتهى به . فقد جاء فى المادة ٢٩ ما نصه :

١ ـ تبدأ شخصية الإنسان بتمام ولادته حيا ، وتنتهى بموته .

٢ ـ ومع ذلك فحقوق الحمل المستكن يعينها القانون .

ويؤخذ من هذه المادة أن مبدأ ثبوت شخصية الإنسان بتمام ولادته حيا . وأما وهو حمل مستكن فليست له شخصية الإنسان والمراد أنه ليست له شخصية الإنسان المستقلة من كل وجوهها ؛ فشخصية الإنسان المستقلة من كل وجوهها هى أهليته الكاملة للوجوب له وعليه . ومع أن القانون لم يثبت للحمل المستكن شخصية فإنه راعى أن لا يهدر الحقوق التى أثبتها الشارع له ولهذا قال فى الفقرة الثانية من المادة : ومع ذلك فحقوق الحمل المستكن يعينها القانون . أى ومع أنه قبل ولادة الإنسان حيا لا تثبت له شخصية فإن هذا لا يستلزم تضييع حقوق الحمل المستكن بل يعين القانون هذه الحقوق . وإذاً فالشريعة والقانون متفقان فى أن الحمل المستكن له حقوق وإنما الاختلاف فى أساس ثبوت هذه الحقوق له . فأساسها فى الشريعة أن له ذمة وأهلية وجوب ناقصة أو شخصية غير مستقلة . وأساسها فى القانون هو تعيين القانون هذه الحقوق له .

ويؤخذ من هذه المادة أيضاً أن شخصية الإنسان تنتهى بموته أى أنه بعد موته ليس أهلا لأن تجب له حقوق ولا لأن تجب عليه حقوق ؛ لأن ذمته بطلت وانتهت بموته . وهذا رأى الحنابلة وبعض فقهاء المسلمين . وأما فقهاء الحنفية فقد ذهبوا إلى أن ذمة الإنسان لا تبطل بموته إلا بعد أن تسوى أموره وتصفى تركته فيسدد ما عليه ويستوفى ما له وتخلص تركته لورثته .

وأما ما دامت له بعد موته حقوق على غيره ولغيره حقوق عليه ووصايا ولم تنفذ فتعتبر ذمته باقية ويعتبر أهلا للوجوب له وعليه ، وهذا بمجرد اعتبار وفرض دعا الحنفية إليه أن الإنسان بعد موته قد يطالب بما لم يكن مطالباً به حال حياته ، وبعد موته قد يدخل فى ملكه ما لم يكن فى ملكه حال حياته ، ومثلوا للأولى بما إذا

مكتبتنا العربية

حفر الإنسان فى حياته حفرة فى الطريق العام وبعد وفاته تردى فيها حيوان فمات فإن الضمان يلزم المتوفى ويؤخذ من تركته . ومثلوا للثانية بما إذا نشر الإنسان فى حياته شبكة للصيد ، فاصطادت بعد وفاته فإن الصيد يملكه المتوفى ويكون من تركته .

والظاهر ما ذهب إليه الحنابلة وبعض الفقهاء وسار عليه القانون من أن شخصية الإنسان تنتهى بموته وأنه بعد موته ليست له أهلية وجوب لا كاملة ولا ناقصة ولا هو أهل لأن يجب عليه ضمان أو أى حق ولا هو أهل لأن يتملك . وما له من الحقوق فهى من تركته ويستحقها ورثته وهم يطالبون بها لأنها آلت إليهم ، وما عليه من الحقوق فقد تعلقت بتركته بعد أن كانت متعلقة بذمته . والورثة يطالبون بها لأنها حقوق على ما فى أيديهم من تركته . وفى مسألة الحفرة التى حفرها ضمانه مستندا إلى السبب وهو مباشرته الحفر فى حياته . وفى مسألة الشبكة الصيد للورثة لأن الشبكة صارت ملكا لهم ونماء الملك لمالكه .

٤ - ما أطوار الإنسان بالنسبة إليها ؟ فى رأى علماء الشريعة للإنسان بالنسبة إلى أهلية الوجوب طوران اثنان :

الأول وهو حمل مستكن ، وفى هذا الطور تثبت له أهلية وجوب ناقصه أى أهليته لأن يجب له حقوق لا لأن تجب عليه حقوق .

الثانى من حين ولادته حياً إلى أن يموت وفى هذا الطور تثبت له شخصية تامة أو أهلية وجوب كاملة فيكون فى هذا الطور أهلا لأن تجب له حقوق وتجب عليه حقوق . وما دام حياً فله هذه الأهلية الكاملة لا فرق بين طفل وحمل ولا بين بالغ ومجنون ومعتوه وعاقل ولا بين ذكر وانثى ولا بين سفيه ورشيد ؛ لأن مناط هذه الأهلية وأساسها إنسانية الإنسان وهى لا تفارقه إلا بالموت فلا يعرض لأهليته للوجوب عارض يزيلها أو ينقصها أو يؤثر فيها .

أما فى القانون المدنى فالإنسان له بالنسبة إلى أهلية الوجوب طور واحد ، وهو ثبوتها له كاملة من حين ولادته حياً إلى أن يموت .

عبد الوهاب خلاف

بين مصدق وسائل

مر أديب كبير بشيخ يتكفف الناس على قارعة الطريق . فوقف يعطيه شيئاً . ثم أخذ يبحث فى جيوبه عن حافظة نقوده فلم يجدها ، لقد نسيها فى البدلة التى غيرها ! وكان السائل المسكين لا يزال باسطاً يده إليه ليتلقى ما يجود به . فما كان من الأديب إلا أن وضع يده فى يد السائل وصافحه بشدة .

فتهلل وجه السائل وقال له :

أشكرك ! هذه أيضاً صدقة .

مكتبتنا العربية

فى الفقه المقارن

الشُّفْعة بين الفقه والقانون المدنى

للدكتور محمد يوسف موسى

استاذ الشريعة الاسلامية بكلية الحقوق بجامعة فؤاد

عرفنا من القسم الأول من هذا البحث ماذا يكون المشفوع فيه ، وانتهينا منه إلى أن الشفعة تكون فى كل مبيع وإن كان منقولا بين شريكين ، وهذا هو رأى فقهاء أهل مكة والظاهرية جميعاً ، خلافاً لجمهور الفقهاء ورجال القانون الذين لا يرون الشفعة إلا فى العقار . واليوم نكمل البحث فى هذا الموضوع :

٦ — والآن ، من هو الشفيع ؟ أهو الشريك فى المبيع وحده ، أم الجار أيضاً ؟ هذه المسألة أثارت خلافاً كبيراً بين الفقهاء من ناحية ، وبينهم وبين واضع القانون المدنى من ناحية أخرى:

(ا) فعند الأحناف يثبت هذا الحق للشريك ثم للجار إن لم يكن للبائع شريك فى المبيع ، وفى هذا يقول الطحاوى : « وأولى الشفعاء بالمبيع الشريك الذى لم يقاسم ، ثم يتلوه الشريك الذى قاسم وبقيت له شركة فى الطريق ، ثم يتلوه الجار الملاصق [1]. وهذا المذهب نجده فى كل مؤلفات الأحناف المتقدمين والمتأخرين ، لأن علة إثبات حق الشفعة للشريك توجب ثبوته للجار أيضاً [2].

(ب) أما الجمهور الأعظم من الفقهاء ، أى الشافعية والمالكية والحنابلة ، فلا يرون الشفعة إلا للشريك فى نفس العقار المبيع ، فلا شفعة عندهم للجار أو للشريك فى حق من حقوق الارتفاق الخاصة بالمبيع لا فى المبيع نفسه . ذلك بأن الشفعة ثبتت على خلاف الأصل كما يقولون ، فلا يصح التوسع فيها ، بل يجب الوقوف على ما ورد به النص ، وفى هذا يروون أحاديث كثيرة منها : قضى رسول الله بالشفعة فيما لم يقسم . فإذا وقعت الحدود وصرفت الطرق فلا شفعة ،

ونذكر لإثبات هذا الرأى من علماء الشافعية الغزالى إذ يقول فى كتابه الوجيز (ج ١ : ٢١٥) « فلا شفعة للجار عندنا » . والرملى يصرح بذلك فى كتابه نهاية المحتاج (ج ٤ : ١٤٥) ، ويوجب تأويل الأحاديث التى جاءت فى إثباتها للجار بحملها على الشريك لأن ملك كل شريك مجاور لملك صاحبه [1] .

(ج) وبعد أن ذكرنا لإمام ابن القيم رأى الذين أثبتوا الشفعة للشريك وحده ، ثم رأى الذين أثبتوها للجار أيضاً ، انتهى إلى رأى وسط وهو إثباتها للجار إن كان مع جواره شريكا أيضاً

---

(١) مختصر الطحاوى ، الطبعة السابقة ، ص ١٢٠

(٢) انظر مثلا بدائع الصنائع ج ٥ : ٤ - ٥ : الهداية للمرغينانى ، ج ٤ : ١٨ - ١٩

(١) وراجع عند المالكية الشرح الصغير للدردير ج ٢ : ٢٤٩ - ٢٥٠ : الخرشى على خليل ، ج ٦ : ١٦١ - ١٦٣ . وانظر عند الحنابلة ، المغنى لابن قدامة ، ج ٥ : ٢٨٥ : إعلام الموقعين لابن القيم ، ج ٢ : ٢٥٣ وما بعدها .

مكتبتنا العربية

فى حق من حقوق الارتفاق الخاصة كالطريق أو الشرب ، وإلا فلا شفعة للجار إن لم يكن بين ملكه وبين العقار المبيع حق مشترك ألبتة وهذا الرأى هو كما يذكر ابن القيم ، رأى البصريين وغيرهم من فقهاء الحديث ، وقول عمر بن عبد العزيز والقاضيين : سوار بن عبيدالله وعبيد الله بن الحسن العنبرى ، وهو أعدل الأقوال ومختار ابن تيمية (١) .

٧ — هذا من ناحيـــة الفقه الإسلامى ، أما التشريع المدنى الجديد ، فإن المادة ٩٣٦ منه جعلت للجار أن يأخذ بالشفعة فى حالات خاصة . ومن هذه الحالات أن تكون أرضه ملاصقة للأرض المبيعة من جهتين ، وتساوى من القيمة نصف الأرض المبيعة على الأقل . ومنها أن يكون هناك حق ارتفاق مشترك بين الأرض المبيعة وبين أرض الجار .

ومن هذا يتبين أن واضع القانون لم يذهب مع الفقهاء الذين أباحوا للجار مطلقاً الأخذ بالشفعة بعد الشريك ، ولا مع الآخرين الذين منعوه مطلقاً من أن يكون شفيعاً ، بل جاء بحكم وسط يشبه ما اختاره ابن تيمية وابن القيم ، وذلك على الرغم من رغبة المشرع المدنى فى التضييق من حق الشفعة باعتبارها سبباً من أسباب كسب الملكية . وهذه الرغبة واضحة مما سبق نقله من مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون بخصوص المادة ٩٣٥ ومن مناقشات لجنة واضعى مشروع هذا القانون واللجان الأخرى بمجلسى النواب والشيوخ ، ومحاضر جلسات هذين المجلسين (١) .

ونعتقد أن الخير فى اتفاق القانون وبعض مذاهب الفقه الإسلامى فى منح الجار هذا الحق ، إذا لم يوجد شريك فى نفس المبيع يطلب الشفعة . أن ذلك يمنع كثيراً من الشر فى القرى ، حيث يحرص كل جار من المزارعين على توسيع رقعة ما يملك ، ويرى فى شراء أجنبى عنه ما كان يستطيع شراءه عدواناً عليه يقابله بعدوان آخر !

٨ — ولا خلاف بين القانون وبين مذهب الأحناف الذى أباح الشفعة للجار ، فى أنه إذا تعدد الشفعاء ولم يكونوا من مرتبة واحدة ، يقدم أولا الشريك فى نفس المبيع ، ثم يجىء بعده الشريك فى حق من حقوق الارتفاق الخاصة ، وأخيراً — إن لم يوجد أحد من الضرب الأول أو الثانى — يكون حق الشفعة للجار (٢) .

أما إذا تزاحم الشفعاء من مرتبة واحدة ، كأن كانوا جميعاً شركاء أو جيرانا ، فإن العقار المطلوب أخذه بالشفعة يقسم — متى حُكم بها — على الطالبين لها بنسبة ما يملكه كل منهم عند الشافعية والمالكية ، وبالتساوى على عدد الرءوس عند الأحناف لاستوائهم جميعا فى سبب استحقاقها وهو الشركة أو الجوار ، على أن فى مذهب

(١) إعلام الموقعين ، جـ ٢ : ٢٦٠ - ٢٦١

(١) مجموعة الأعمال التحضيرية ، جـ ٦ : ٣٥٨ وما بعدها .

(٢) تراجع المادة ٩٣٦ من القانون الجديد ، وبدائع الصنائع جـ ٥ : ٨

مكتبتنا العربية

الشافعية قولا بالتقسيم بالتساوى على عدد الرءوس كما هو الأمر عند الأحناف [١] .

٩ – ومن شروط الشفعة التى يجب التعرض لها هنا ، مهما كنا مضطرين للإيجاز ، أن يخرج المبيع المشفوع فيه عن ملك البائع خروجاً باتاً نظير عوض مالى ؛ وأن يكون الشفيع مالكا لما يشفع به وقت العقد ، ثم يستمر هذا الملك حتى يحكم له بالشفعة . وهذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ؛ كما أن فى بعضه خلافا بين رجال الفقه الإسلامى من ناحية ، وبينهم وبين القانون المدنى من ناحية أخرى :

(ا) يجب لثبوت الشفعة أن يخرج المشفوع فيه عن ملك صاحبه على وجه بات وفى مقابل عوض مالى . ومن ثم ، لا تثبت الشفعة فى المبيع بشرط خيار البائع لأنه يمنع زوال ملكه للمبيع ، وتثبت إذا كان الخيار للمشترى لأن خيار المشترى لا يمنع من خروج المبيع عن ملك البائع ، وكذلك لا شفعة فى المبيع بيعا فاسدا حتى ولو قبض المشترى المبيع ، لأن للبائع نقض البيع – بل ذلك واجب متى كان ممكنا – رفعا للفساد ، وفى ثبوت الشفعة للشريك أو الجار حينئذ تقرير للفساد الواجب رفعه [٢] .

ولو زال ملك المالك عن العقار المشفوع فيه ، لا فى نظير عوض مالى ، لا تثبت الشفعة فيه للشريك أو الجار ؛ فإن الشفعة هى تملك الشفيع العقار جبرا عن المشترى بما قام عليه ، وهنا قد تملكه الطرف الآخر مجانا . فلا شفعة إذا فى عقار خرج عن ملك صاحبه بهبة أو وصية أو ميراث ، أى بعقد غير معاوضة وهو البيع وما فى معناه ؛ ولهذا تثبت الشفعة فى العقار الموهوب بشرط العوض إذا حصل التقابض من الطرفين ، لوجود معنى المعاوضة ، ولأن الهبة بشرط العوض تعتبر تبرعا ابتداء ومعاوضة انتهاء [١] .

وإذا خرجت العين عن ملك صاحبها بعوض ولكنه غير مال ، لا تثبت الشفعة عند الأحناف ، ولكن تثبت عند الشافعية . ومن مُثُل هذه الحالة أن يتزوج رجل امرأة على دار له يجعلها مهراً لها ، أو يستأجر مزرعة ويجعل الأجرة دارا أو أرضاً أخرى له . ففى هذه الحالات وأمثالها تثبت الشفعة عند الشافعية ، وعلى الشفيع حينئذ أن يدفع للزوجة مهر مثلها ولصاحب المزرعة أجرة مثلها أيضاً [٢] . وهنا نرى ابن حزم يروى مذهب الأحناف ومذهب الشافعية ، ثم يميل مع الأحناف فيقول : « ولا شفعة إلا فى البيع وحده ، ولا شفعة فى صداق ولا فى إجارة ولا فى هبة ولا غير ذلك ، وهو قول جماعة من السلف » [٣] .

---

(١) نهاية المحتاج حـ ٤ : ١٥٥ ؛ الوجيز للغزالى ، حـ ٢ : ٢٢٩ ، الشرح الصغير للدردير ، حـ ٣ : ٢٠٦ ، بدائع الصنائع ، حـ ٥ : ٥ - ٦ . ويتفق التشريع المدنى (الفقرة ٢ من المادة ٩٢٧) مع مذهب الشافعية والمالكية فى أن قسمة المشفوع فيه تكون بنسبة ملك كل من الطالبين . وانظر فى هذا أيضاً ، شرح القانون المدنى فى الأموال ، للدكتور شفيق شحاته ، القسم الأول ص ٢٦٦ .

(٢) بدائع الصنائع ، حـ ٥ : ١٣

(١) مختصر الطحاوى ص ٢٢٢ ؛ نهاية المحتاج حـ ٤ : ٢٥ - ٢٥٢ ؛ الوجيز ، حـ ٢ : ٢٢٢ - ٢٢٢

(٢) نفسه ، حـ ٢ : ١٠ - ١٢

(٣) المحلى ، حـ ٩ : ٨٨

مكتبتنا العربية

١٠ — وحين تذكر المادة ٩٣٥ من القانون المدنى الجديد أن : « الشفعة رخصة تجيز فى بيع العقار الحلول محل المشترى » الخ يتضح لنا أن واضع هذا القانون يشترط فى المشفوع منه أن يكون قد تملك العين محل الشفعة بمقتضى عقد بيع . وإذا ، فلا شفعة إذا كان قد تملكها بالهبة أوالوصية أو نحو هذا وذاك من الطرق الأخرى التى ليست فى معنى المعاوضة .

على أن من تولوا شرح هذا القانون يرون بحق أن الهبة بشرط العوض ليست فى الحقيقة إلا معاوضة ، وعلى هذا تكون فيها الشفعة ، كما يرى فقهاء الإسلام . وحينئذ يكون على الشفيع متى حكم له بالشفعة أن يدفع للموهوب له القيمة الحقيقية للشىء الموهوب ، لا قيمة العوض الذى دفعه للواهب ، ليكون قد تملك المشفوع فيه بقيمته الصحيحة[1] . وهنا ، يجب علينا أن نلاحظ بحق أن هذه النظرة أدق من نظرة الشافعى حين رأى أن يدفع الشفيع ، فى حالة جعل الدار مهراً فى الزواج ، مهر المثل لا قيمة الدار نفسها .

(ب) ومن الطبيعى أن يشترط لثبوت الشفعة الشرط الثانى الذى أشرنا إليه فيما سبق ، أى أن يستمر ملك الشفيع مما يشفع به إلى أن يحكم له بالشفعة . وعلى هذا ، لو بيع عقار فطلبه جاره أو الشريك فيه بالشفعة ، ثم قبل الحكم بها للشفيع باع العقار الذى يشفع به ، فلا شفعة له حينئذ ؛ لأنها شرعت لدفع ضرر الشريك أو الجار الجديد ، وبعد بيع الشفيع ما يشفع به لم يبق شريكا ولا جاراً ، فلم يخش أو يخاف من المشترى !

وقد فرع الفقهاء على هذا الشرط أيضاً أن ذلك الذى اشترى من الشفيع ما كان يشفع به ، وكان هذا الشراء بعد بيع البائع للعقار محل الشفعة ، ليس له حق الشفعة لأنه لم يكن مالكا لما يشفع به وقت العقد الأول الذى خرج به المشفوع فيه عن ملك صاحبه . وفى هذا يقول علاء الدين الكاسانى المتوفى عام ٥٨٧هـ : « ومنها [أى شروط وجوب الشفعة] ، ملك الشفيع وقت الشراء فى الدار التى يأخذها بالشفعة ؛ لأن سبب الاستحقاق جوار الملك ، والسبب إنما ينعقد سببا عند وجود الشرط ، والانعقاد أمر زائد على الوجود ، فإذا لم يوجد عند البيع كيف ينعقد سبباً ! فلا شفعة له بدار يسكنها بالإجارة أو الإعارة ، ولا بدار باعها قبل الشراء[1] ، ولا بدار جعلها مسجدا ... الخ[2] » .

١١ — وهذا الشرط ، أى استمرار ملك الشفيع لما يشفع به من وقت العقد إلى حين الحكم له بالشفعة ، ليس بشىء عند الظاهرية . هذا ابن حزم يقول[3] : « ولو أن الشريك ، بعد بيع شريكه قبل أن يؤذنه ، باع أيضاً حصته من ذلك الشريك البائع أو من المشترى منه أو من أجنبى ، علم بأن له الشفعة أو لم يعلم ، علم بالبيع أو لم يعلم ، فالشفعة له كما كانت ، لأنه حق قد أوجبه الله تعالى له فلا يسقطه عنه بيع ما له ولا غير ذلك أصلاً » .

ونحن لا نرى معنى لبقاء حق الشفعة لمن باع

(١) الدكتور شفيق شحاته ، المؤلف السابق ذكره ، ص ٢٧٢

(١) وتقول : أو بدار اشتراها بعد شراء المشترى للعقار محل الشفعة (٢) بدائع الصنائع ، جـ ٥ : ١٤

(٣) المحلى لابن حزم ، جـ ٩ : ٩٥

مكتبتنا العربية

ما يشفع به كما يقول ابن حزم ، لأنه لن يتأتى أن يضار بالمشترى بعد أن باع نصيبه فى الشيء المشفوع فيه . ولكن ، قد يكون من الحق أن تثبت الشفعة لمن اشترى عقاراً مجاوراً لعقار آخر بيع ، وكان شراؤه من الشريك أو الجار الذى كان له حق الشفعة ولكنه لم يطالبها ، ثم لم تكن قد مضت فترة تسقط حق طلب الشفعة لصاحبها . إن فى القول بهذا فائدة لهذا المشترى الثانى للعقار المشفوع به ، وهى دفع ما قد يصيبه من أذى من ناحية مشترى العقار المشفوع فيه ، على أن الفقهاء الإسلاميين لم يذهبوا إلى هذا القول ، لأن الشفعة ثبتت على خلاف الأصل فى رأى الأكثرين منهم ، ولهذا لا يصح التوسع فيها . ولكل رأى حظه من النظر ، ولكل وجهة هو موليها ، والله أعلم بالصواب [1] .

١٢ — وبعد الحكم بالشفعة للشفيع الذى طالب بها ، عليه أن يدفع للمشترى ما دفعه من ثمن وما أنفقه من مصروفات أخرى ، كأجر الوسيط فى الشراء ورسوم التسجيل .

وهنا قد تنشأ مشكلة يجب حلها وبيان حكم الله فيها كما نعرفه عن الفقهاء المسلمين . ذلك ، بان البيع قد يكون تم على تأجيل الثمن إلى أجل معين يدفعه فيه المشترى للبائع ؛ فهل ينتفع الشفيع إذا حكم له بالشفعة بهذا الأجل ، أو يجب عليه دفعه فوراً للمشترى ؟

يرى الأحناف أن القضاء بالشفعة ليس تحويل الصفقة من المشترى للشفيع ، بل نقض البيع الذى كان بين المالك والمشترى ثم انعقاد بيع آخر للشفيع . [1] وعلى هذا يكون للشفيع أحد أمرين : إما أن يأخذ المبيع المشفوع فيه ويدفع الثمن حالا . وإما أن ينتظر حتى يحل الأجل فيدفع الثمن ويأخذ المبيع حينئذ ، أى ليس له الانتفاع بالأجل الذى كان قد منحه البائع للمشترى . وإن اختار الانتظار فى دفع الثمن وتسلم المبيع حتى يحل الأجل ، لم يكن ذلك ليعفيه من طلب الشفعة ، طلب المواثبة وطلب التقرير المعروفين وإلا سقط حقه فيها إن أخر ذلك وهو متمكن منه ؛ لأن شرط ثبوت حق الشفعة هو وجود العقد الذى به خرج المشفوع فيه عن ملك صاحبه البائع ، وقد وجد فعلا . وفى هذا يقول علاء الدين الكاسانى : « ولو اشترى داراً بثمن مؤجل ، فالشفيع بالخيار : إن شاء أخذها بثمن حال ، وإن شاء انتظر مضىّ الأجل فأخذ عند ذلك . وليس له أن يأخذها للحال بثمن مؤجل ؛ لأن الشفيع إنما يأخذ بما وجب بالبيع ، والأجل لم يجب بالبيع ، وإنما وجب بالشرط ؛ والشرط لم يوجد فى حق الشفيع . ولهذا لم يثبت خيار المشترى للشفيع بأن اشترى على أنه بالخيار لأن ثبوته بالشرط ولم يوجد من الشفيع . وكذا البراءة من العيب لا تثبت فى حق الشفيع ، لأن ثبوتها بالشرط ولم يوجد من الشفيع » [2]

(١) تذكر هنا أن القانون المدنى مع الفقهاء المسلمين ، ماعدا الظاهرية ، فى اشتراط استمرار ملك الشفيع لما يشفع به حتى يحكم له بالشفعة ، راجع الدكتور شفيق شحاته ، المؤلف السابق ذكره ، ص ٢٦٨

(١) ذلك هو المشهور من قولهم ، وفى رأى البعض أن القضاء بها تحويل الصفقة من المشترى للشفيع .

(٢) البدائع ، حـ ٢ : ٢٧ . وإذا نص الشفيع بتعجيل الثمن ، كان للمشترى أخذه وعدم دفعه البائع إلا فى أجله . يراجع البدائع ، حـ ٢ : ٢٧ ، المبسوط ، حـ ٢٤ : ٢٢ .

مكتبتنا العربية

وعدم انتفاع الشفيع بالأجل الممنوح للمشترى على ما رأينا عند الأحناف ، هو كذلك عند الشافعية . ولكن عند المالكية ، للشفيع الانتفاع بالأجل الممنوح للمشترى ، فله أن يأخذ المبيع المشفوع فيه ثم يدفع الثمن عند حلول أجله . وهذا إذا كان موسراً لا يخشى ضياع الثمن عنده ، أو كان معسراً ولكن ضمنه مليء ، أى موسر ؛ فإن لم يكن هذا ولا ذاك ، كان عليه أن يدفع الثمن فوراً ، وإلا فلا شفعة له ، إلا إن كان المشترى مثله فى الفقر والحاجة فله أخذ المشفوع فيه بأجله دون تقديم ضامن له بالثمن (١) .

١٣ — ونعتقد أن رأى المالكية هذا فيه خير للشفيع وللمشترى معاً ، وهو رأى ابن حنبل أيضاً . وهو أحوط للمشترى من رأى الإمام زفر المتوفى عام ١٥٨ الذى يقول بأن الشفيع يأخذ المشفوع فيه بما تم العقد عليه بين البائع والمشترى ، حتى إذا كان الثمن مؤجلا لم يلزمه إلا ذلك مع استيلائه على المبيع طبعاً .

وهنا ، نشير إلى أن الفقرة الأولى من المادة ٩٤٥ مدنى جديد تقول بأن الشفيع يحل محل المشترى فى جميع حقوقه والتزاماته قبل البائع . إلا أن الفقرة الثانية منها ، قد عنيت بالنص على أنه لا يحق للشفيع الانتفاع بالأجل الممنوح للمشترى فى دفع الثمن إلا برضاء البائع . ومعنى هذا أن للشفيع إذا رضى البائع تسلم المبيع فوراً مع دفع الثمن متى حان أجل دفعه .

ونؤكد مرة أخرى بعد مقارنة هذه الآراء كلها بعضها ببعض ، أن رأى المالكية هنا هو خير الآراء ، ففيه تيسير على الشفيع بالانتفاع بتأجيل الثمن إذا كان موسراً أو كفله مليء ، وبذلك لا يضيع حق البائع أو المشترى ، وإلا كان عليه تعجيل الثمن واستلام المشفوع فيه .

١٤ — وأخيراً ، نختم هذا البحث ببيان أن حق الشفعة يسقط بأسباب كثيرة ، ومنها أن يرضى الشفيع بالبيع الذى صدر من المالك للمشترى ، بشرط ألا يكون فى الأمر تدليس . فلو رضى بهذا البيع على أن الثمن هو ألف جنيه مثلا ، أو على أن المشترى هو فلان الرجل الفاضل ، ثم ظهر أن الثمن أقل من ذلك أو أن المشترى فلان السيء الجيرة ، كان له حق الشفعة أيضاً ؛ لأن ما رضى به ليس هو الذى كان فعلا ، وما رضى إلا لما زعموه من الثمن أو المشترى . ونحن جميعاً نعلم أنه قد يزهد فى الشراء إذا وجد الثمن مرتفعاً عما يجب ، أو رأى أن المشترى هو رجل لا يتضرر بجواره متى صار جاراً .

كما نذكر أن حق الشفعة لا يورث عند الأحناف (١) ، ويورث عند الآخرين إذا كان المورث قد طالب بها قبل موته لأن الوارث يخلفه فى كل ما كان له من حقوق . والقضاء وشراح قانون الشفعة يأخذ بعضهم برأى الأحناف ، لأن الشفعة حق شخصى فلا يورث ، وبعضهم يأخذ بالرأى الآخر لما قلناه من أن الوارث خليفة المورث فيقوم مقامه فيما له وما عليه (٢) .

محمد يوسف موسى

---

(١) نهاية المحتاج ، حـ ٤ : ١٥٠ ، الشرح الصغير للدردير ، حـ ٢ : ٢٥٢

(٢) انظر الطحاوى حيث يقول فى مختصره : « والشفعة لا تورث » ، ص ٢٢٣

(٣) انظر مجموعة الأعمال التحضيرية للقانون المدنى الجديد ، حـ ٦ : ٣٥٦ ، الدكتور شفيق شحاته ، المؤلف السابق ، ص ٨٨

مكتبتنا العربية

التقوى فى القرآن

لصاحب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت

ذكر القرآن التقوى فى معرض اتباع الهداية الإلهية ، وأنها تجعل الإنسان فى أمن من الخوف والحزن ، وبذلك يطمئن إلى الحياة ، ويسكن قلبه ، فيفكر ويعمل ويؤمل « يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وفى معرض الانتفاع بالقرآن الكريم ، والحصول به على الهدى والفلاح « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » . وفى معرض البر العام ، والصدق فى الإيمان « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » . وفى معرض النصر والتأييد « بلى أن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » « وأن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » وفى معرض ولاية الله وأنها للمتقين من عباده خاصة ، وليس شىء منها لمن فسدت فطرهم وانحرفوا عن طريق الحق والصواب ، فأشركوا بالله ، وتجبروا على عباد الله ، وأسرفوا بنعم الله « وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون » « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون » . وذكرها فى معرض تحصين النفس من نزغات الشيطان والهوى « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون » . وفى معرض تفريج الأزمات وحل المشكلات « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب » « ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا » . وفى معرض الرحمة الخاصة « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويأتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » . ويذكرها فى معرض السلامة من الفتن التى يعم الأمة ضررها ، ويؤخذ فيها المجرم وغير المجرم ، يؤخذ فيها المجرم بإجرامه وغير المجرم بسكوته ، وهى فتن التفرق فى الحكم والسلطان ، والتفرق بالمذاهب والآراء ، والتفرق بإهمال واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ورد الأمة إلى وحدتها ، والاعتصام بما يجمعها من رباط مقدس « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . ويذكرها فى معرض التيسير للخير « إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » ، وفى معرض التمتع ببركات السماء والأرض عن طريق الإلهام بوسائل استخراج الكنوز والإحاطة بالأسرار والانتفاع بها فى الحياة « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

مكتبتنا العربية

والأرض ، وفى معرض الثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ، ، وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ؛ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا ، ، تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيًا ، . ويذكرها بعد ذلك كله فى معرض المعيَّة الإلهية بالنصر والتأييد ، والعطف والرحمة ، واعلموا أن الله مع المتقين ، ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ،

وهكذا ذكر القرآن التقوى فى معرض الطهر من كل نقص ، والصلاح من كل خلل ، والسلامة من كل شر . ذكرها فى معرض الأمن والسكينة ، والاطمئنان والاستقرار ، فى معرض الحصول على خيرى الدنيا والآخرة .

ومن هنا اشتدت عناية القرآن بالتقوى وأكثر من الأمر بها ، وتوجيه النفوس إليها ، وكانت له فى ذلك أساليب مختلفة ، ووجوه متعددة : أمر بتقوى الله هكذا بصفة الألوهية التى تقضى بالتوجه إليه وحده فى العبادة والتقديس ، وبصفة الربوبية التى توحى بنعمة الخلق والإيجاد ، والهيمنة والتنمية ، ونعمة التربية المادية والروحية ، وبصفة أنه مصدر الإمداد بما يتمتعون به من مال وبنين وخيل وحرث . وأمر بتقوى عذابه ، وبتقوى يوم الحساب والجزاء ، واتقوا الله ، ، اتقوا ربكم ، ، واتقو الله الذى أمدكم بما تعلمون ، ، وإياى فاتقون ، ، لا إله إلا أنا فاتقون ، ، واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، .

وتقوى الله تنتظم تقوى ما يأباه جلاله وجماله من الشرك والبنوة ، والاتحاد والحلول ، وتقوى ما تأباه حكمته من مجاوزة حدوده ، والخروج عن شرائعه وأحكامه . وتقوى إهمال سننه الكونية التى أحكم بها نظام العالم ، وربط المسببات فيه بالأسباب . وفى تقوى ذلك كله ، تقوى عذاب الله وعقابه ، والعقاب ، منه أخروى ، ينزل بالأفراد نتيجة تقصيرهم وعدم تقوامهم فى التكاليف الإلهية الخاصة ، ومنه دنيوى ، ينزل بالأمم كما ينزل بالأفراد نتيجة الإعراض عن الأخذ بالأسباب الكونية ، والإعراض عمَّا توجبه روابط الرحم الإنسانى ، والإيمان بمبدع الكون ومنظمه .

وقد كان للسلف فى التعبير عن التقوى عبارات ؛ فمن قائل : التقوى ترك الإصرار على المعصية ، وترك الاغترار بالطاعة . ومن قائل : التقوى ألا تختار على الله سوى الله ، وأن تعلم أن الأمور كلها بيد الله . ومن قائل : ألا يجد الخلق فى لسانك عيباً ، ولا الملائكة فى أفعالك عيباً ، ولا الملك العرش فى سرك عيباً . ومن قائل : التقوى أن تزين سرك للحق كما تزين ظاهرك للخلق . ومن قائل : التقوى ألا يراك مولاك حيث نهاك ، ولا يفقدك حيث أمرك . ومن قائل : المتقى من سلك سبيل المصطفى ، ونبذ الدنيا وراء القفا ، وكلف نفسه الإخلاص والوفا ، واجتنب الحرام والجفا .

مكتبتنا العربية

كان لهم فى التعبير عن التقوى هذه العبارات وأمثالها ، وللتقوى منازل ، وللقلوب أحوال ، ولخلق الله نزعات ، وقد كان من سنة القوم فى الإرشاد إلى معانى الخير وأسس الفضيلة والتنبيه إلى الجوانب التى يتسرب منها النقص الخلقى أو الروحى إلى الإنسان ، كان من سنتهم فى ذلك أن يقصدوا إلى إبراز الجزئيات ، والنواحى التى تأثرت بها ، وغلبت على أحوالهم ، وشعروا منها بالكمال الذى تطمئن إليه نفوسهم ، والروح الذى تسكن به قلوبهم ، أو الجزئيات التى يرونها توقظ وعيا فى سائل ، أو تحيي عاطفة فى مريد ؛ فيقدمون له العلاج الخاص بذلك الوعى فيتيقظ ، أو بتلك العاطفة فتحيا . ويرون أن التخصيص هكذا فى مقام العلاج أنجع فائدة ، وأعظم أثرا ، وأقرب فى الحصول على الهدف المقصود ، وسد ناحية التقصير أو القصور ، مما إذا قدم العلاج بالعنوان العام ، والمعنى الشامل ، الذى لا تظهر فيه العناية بجانب دون جانب ، وبذلك يقف المريد أو السائل حائرا أمام الجوانب المتعددة التى يمليها عليه العموم ، ولا يجد فيه ما يدفعه على وجه خاص إلى أن ينشط فى أخذ أهبة التكميل النفسى أو العملى فى الناحية التى هو فى حاجة إلى تكميلها والارتقاء فى سبيلها . وهذا شأن لا بد من مراعاته فى أساليب التربية والتقويم حتى يكون للتربية أثرها وللتقويم فائدته .

إلى هذا المبدأ تعددت عبارات القوم واختلفت إجاباتهم عن التقوى وما إليها من المنجيات كالشكر ، والصبر . وكانت دائرة بين الإعراب عن أحوالهم القلبية واتجاهاتهم الخاصة ، والإعراب عما يرون الناس فى غفلة عنه وفى حاجة إليه ، غير أنه مهما اختلفت أجوبتهم وتعددت مشاربهم ، وتراءى للناظر بين العبارات والمعانى نوع من الاختلاف ، دعا إليه أحد الموقفين المذكورين ، فإنه لو عرضت فى الوقت نفسه جميع العبارات المأثورة عنهم ، عليهم جميعا ، لكانت محل اتفاق بينهم ، ولما أنكر أحدهم ما نزع إليه صاحبه ، من بيان وتصوير ، أو توجيه وإرشاد ، ولتلاقت جميع العبارات ، وجميع الجزئيات عند حدها المشترك وهو حصانة النفس عما يضر ويؤذى . وعما يحول بينها وبين الكمال .

ولعل الذى حمل القوم على سلوك هذا السبيل فى التعبير عن التقوى أنهم كانوا عمليين قبل كل شىء ، يتجهون على المعدوم ليوجد ، وعلى الضعيف ليقوى ، وعلى المنحرف ليستقيم . وإن من يتتبع صحف الإرشاد النبوى ليجد كثيرا من هذا المنهج ؛ فمرة كان يوصى عليه السلام بالحلم وترك الغضب ، وأخرى بالحياء ، وثالثة ببر الوالدين ، ويجعل ما يوصى به كل الإيمان أو كل الخير والبر .

وقد رأينا من المفسرين من يبين معنى التقوى الواردة فى القرآن الكريم بحسب المقام الذى سيقت فيه ، فيفسرها فى قوله تعالى مثلا « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » الواردة فى أول سورة النساء . وقوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم »

مكتبتنا العربية

بخشية الله والخوف منه . وفى قوله تعالى « وألزمهم كلمة التقوى » وقوله « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » يفسرها بالتوحيد . وفى قوله « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا » يفسرها بالتوبة عن المعاصى . وفى قوله « أن أنذروا أنه لا إله الا أنا فاتقون » يفسرها بالطاعة وفى قوله « وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله » يفسرها بترك المعصية . وهكذا حتى ظن أن للتقوى معانى متعددة يختلف بعضها عن بعض ، وأنها من قبيل المشترك اللفظى الذى يتحد لفظه ويتعدد وضعه ومعناه . والواقع أن مسلك السلف فى الإرشاد ، ومسلك المفسرين فى التفسير ، لا يعدو أن يكون أساسه : إما مجاراة الأحـــوال ، أو مجاراة السياق ، وليس من مقصودهم جميعا أن يحددوا بهذه العبارات الخاصة المعنى الكلى بكلمة « تقوى » الذى تدل عليه بوضعها وأصل اشتقاقها لأنهم إنما يرمون عن قوس الإرشاد إلى التحلية العملية ، والتناسب فى السياق ، وليس من هدفهم التعليم العلمى بعرض الجزئيات فى ثوبها الكلى العام ، ومع ذلك فإنا لو وضعنا هذه المعانى الجزئية التى تمليها الأحوال ، إلى رجال التصفية والتهذيب ، أو يمليها السياق إلى رجال التفسير ، لو وضعناها فى صعيد واحد ونسبنا بعضها إلى بعض ، لوجدناها متعانقة متلازمة . لا يستقل واحد منها عن صاحبه ، ولا يغنى أحدها عن الآخر ؛ فالتوحيد أصل وخشية الله أثره ، وآية الصدق فيه . والتوبة عن المعاصى من لوازم الخشية وتوابعها ، والمعصية يأباها الإيمان . وهذا هو سبيل تلاقى الجزئيات التى فسرت بها التقوى فى عبارات القوم وعبارات المفسرين ، ذلك أن التقوى فى أصل معناها جعل النفس فى وقاية ، ولا تجعل النفس فى وقاية إلا بالنسبة لما يخاف ، فالخوف أصلها ، وهى ثمرته ، والخوف يستدعى العلم بالمخوف ، والمخوف إما العذاب ، وإما المعذِّب ، ومن هنا كان الذى يعلم الله ، هو الذى يخشاه ، وكان الذى يخشاه هو الذى يتقيه ، فلا تقوى حيث لا خشية ، ولا خشية حيث لا علم ، ومن عرف الله وآمن بقدرته القاهرة وعلمه المحيط ، وسلطانه النافذ ، وشرعه الحكيم ، تمثل عظمته فى كل شىء وخاف سطوته فى كل شىء ، واتقاه فى كل شىء ، وإذن فالتقوى هى صيانة النفس عن كل ما يضر ويؤذى سواء أكان متصلا بالنفس أم بالنوع ، أو بالخلق كله ، وعن كل ما يحول بين الإنسان والغايات النبيلة التى بها كماله فى جسمه وروحه ، وفرده وجماعته ، وفى دنياه وأخراه ، وبعبارة أخرى هى تحصين النفس من كل ما يعرضها للنقص الإنسانى ، أو الدينى ، أو الاجتماعى .

ولعل أول مظهر من مظاهر التقوى ، أرشد الله إليه فيما افتتح به سورة البقرة ، وهو أن التقوى كانت سبباً لاختصاص المتقين بهداية القرآن والانتفاع به ، ذلك أنهم حصنوا أنفسهم من الأسباب التى تفسد على الإنسان فطرته ، وتجعله لا يؤمن إلا بالحس المشاهد ، وتجعله

مكتبتنا العربية

مقطوع الصلة عن مصدر الخير الدائم الباقى ، كما تجعله فظا غليظ القلب ، متحجر الوجدان ، لا تهزه رحمة ، ولا تدفعه إلى المعونة عاطفة ، وتجعله ذا عصبية تحول بينه وبين الاعتراف بالحق والتمتع بالخير إذا لم يجر على لسانه وجرى على لسان غيره ، أو لم ينزل من سمائه ونزل من سماء غيره ، واقرأ فى ذلك متدبراً قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » . اقرأ هذا لتعلم أن من عصم فطرته من تسلط المادة المظلمة عليها ، ومن قسوة القلب على أخيه المحتاج ، ومن العصبية الفاسدة لما ورث ، هو المتقى عند الله ، وأن تقواه هذه هى التى ترفعه إلى مكانة الانتفاع بالكتاب ، والتغذية من أحكامه وإيحائه حتى يصل به إلى أقصى درجات الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » وكما خلع الله على هؤلاء الذين حصنوا أنفسهم من تلك العلل ، عنوان المتقين ، نراه فى آيات أخرى قد خلع عليهم عنوانى العلم المطلق ، والإيمان الكامل وجعل القرآن لهم تذكرة كما جعله لهم هدى وشفاء « ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق » « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » « ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا » « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » « وإنه لتذكرة للمتقين » .

وبينما نراه يخلع ذلك على المتقين الذين لم يدنسوا فطرهم بتلك العلل التى تبعد الناس عن الخير وإدراك الحق ، نراه يخلع غير ذلك على آخرين ، فسدت فطرهم بيئات الشر وموروثات الفساد وأوهام الضلال ، وعصبيات الجهل ، فلم يعرفوا الحق ولم يؤمنوا به ؛ بل عاندوا ولجوا فى العناد وأخذوا يحاربون الله فى السر والعلن ، نراه يخلع عليهم أن القرآن عليهم عمى وأنه لا يزيدهم إلا تبارا ، وأنهم « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . ويضع فى مستوى هؤلاء طائفة أخرى فسد باطنها كما فسد باطنهم ، ولبسوا فى ظاهرهم للمؤمنين ثوب الخداع والزور ، فقالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، واهتم القرآن بالحديث عنهم فعرّف عن خلالهم ، وصور كثيراً من نياتهم ، وضرب الأمثال فى شرح حالهم وعاقبة أمرهم .

هؤلاء هم الكافرون وهؤلاء هم المنافقون ، قد اشترى الفريقان الضلالة بالهدى ، ودنسوا نفوسهم فعمى الحق عليهم ولم يهتدوا بما أنزل الله لهم وبعث به الرسل إليهم وصاروا إلى مآل سيىء .

أما المتقون الذين حافظوا على ما منحوا من فطر سليمة ، ونعم ظاهرة وباطنة حتى انتفعوا بهداية الله ووضعوا كل نعمة فى موضعها ، وسلكوا بأنفسهم وبنى جنسهم سبيل الله الذى رسمه بسننه الكونية وأحكامه الشرعية ؛ أما هؤلاء

مكتبتنا العربية

فقد ظفروا بمكانة السمو الإنسانى ، ودرجة الفلاح عندالله ، وأناروا بما يسر لهم من وسائل الخير العام سبيل الحق والهدى لخلق الله فعصموا الناس كما عصموا أنفسهم من علل العقيدة ، ومن علل الأخلاق ، ومن علل الأعمال ووجهوهم فى كل ذلك إلى لب الحياة وسر الوجود وكانت التقوى لهم نورا به يهتدون وبه يهدون ، وقوة بها ينصرون ، ومعارج عليها يصعدون ، وذلك هو ما وعد الله به فى قوله « يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » فنور التقوى هو ذلكم الفرقان الذى جعله الله ثمرتها ، وجعل فيه جزاء المتقين ، والفرقان ما يفرق به بين الشيئين أو الأشياء وفسره بعض السلف بنور البصيرة الذى يفرق بين الحق والباطل ، والحجة والشبهة . وفسره آخرون بالنجاة من الشدائد ، أو النصر الذى يفرق بين ما يعز وما يذل ، وكلا التفسيرين قصد إلى البيان بالجزئيات ، كما هى سنتهم فى البيان والإرشاد ، والواقع أن الفرقان ، منه علمى ، وهو نور ، أو ملكة ، يفرق بها بين الحق والباطل ، والنور والظلمة ، والحجة والشبهة . ومنه عملى ، وهو ثمرة العلمى وهو يرجع إلى الفصل بين ما ينبغى فعله وما يجب تركه فى سبيل العزة والنجاة من الشدائد ، والحصول على الرغائب . وانظر كم يتطلب الفرقان بنوعيه من دراسات وتفقه ، وتدريب على الفضائل ، وبحث عن السنن والأسرار .

وإذا حصلت على هذه الدراسات ، وشعرت من نفسك بهذا الفرقان ، فاعلم أنك قد منحت درجة المتقين : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » .

* * *

هذه هى التقوى فى القرآن الكريم ، وهذه ثمرتها فى الأفراد والجماعات ، ولو أن الناس عرفوها حق المعرفة ، وقاموا بواجبها وحقها لسكت الغضب عن العالم ، وانطفأت ثورة الشر التى ألهبت جوانحه وأقضت مضاجعه ، وكادت تقضى على حكمة الله فى خلق الإنسان « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

محمود شلتوت

قيمة كل امرىء فيما يعطى

بينما كان فولتير يسير على شاطىء نهر النيمز فشاهد غنياً يوشك أن يغرق ، ولكن أحد الفقراء خاطر بحياته فأنقذه فمنحه الغنى قرشاً .

وكان جمع من الناس قد احتشدوا ورأوا ما حدث فهموا بالغنى يريدون أن يفتكوا به ، ولكن فولتير هدأ روعهم بقولهم : إن هذا الغنى يعرف أكثر من غيره ماذا تساوى حياته .

ولقد صدق « إيتان راى » إذ يقول « إن المال لا يظهر حماقة الناس وإنما يظهر حقيقتهم » .

مكتبتنا العربية

دين العقل

للأستاذ محمد احمد الغمراوى بك

الإسلام دين العقل ليس فى ذلك شك ، جهله من جهله ، وعلمه على وجهه من علمه . والناظر فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهما ما هما ، لا يكاد ينقضى عجبه مما لقى العقل فيهما من عناية وإكبار وهداية . أما الحديث الشريف فيكفى منه ما ذكر الإمام الغزالى فى الإحياء فى باب شرف العقل وما بعده ، ويكفى مما ذكر قوله صلى الله عليه وسلم (ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم عليه من العقل) . وهذا يفسر وجه التكريم والتفضيل الذى منّ الله سبحانه به على الإنسان فى قوله تعالى من سورة الإسراء « ولقد كرمنا بنى آدم ، وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » . إذ بالعقل وحده تصرّف الإنسان فى البر والبحر ، وتسلط فى الأرض على غيره من الكائنات . ولقد فسرت آيةَ الإسراء من هذه الناحية آيتا سورة الجاثية : « الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه ؛ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . فالعقل أساس لهذا التسخير من غير شك ، إذ بدونه لم يكن التسخير ليتم . وأساس آخر هو ما أودع الله خلق السموات والأرض من أسرار على وجه يطوّع للإنسان الوصول إليها والتصرف فيها بعقله . وإلى الأساسين جميعاً أشارت خاتمة الآيتين « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » وفى هذه الخاتمة الكريمة ما فيها من حض على تطلب تلك الأسرار للانتفاع ثم للاعتبار .

فالقرآن الكريم إذ جاء لهداية البشر من عند فاطر الفطرة سبحانه ، إنما يخاطب العقل أول ما يخاطب . ولقد تنوعت أساليب الخطاب حتى ليظن الناظر أن ليس هناك فى الفطرة أسلوب فى خطاب العقل والقلب لم يأت به القرآن .

فالدعوة إلى الله وتوحيده قائمة فيه على العقل قبل كل شىء . والذى يتتبع مواقف تلك الدعوة يأخذه العجب من وضوح حججها حتى فى مواطن الإيجاز فى إيرادها ، فالناظر فى مثل قوله تعالى من سورة الطور : « أم خُلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والأرض ؟ » لا يجد بدا من الإقرار بالخالق سبحانه و « من غير شىء » هنا معناها من غير خالق كما نبه إليه الإمام الغزالى فى باب التفسير من الإحياء . فإذا نظر فى قوله تعالى من سورة فصلت : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى

مكتبتنا العربية

خلقهن » أو قوله من سورة الحج « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » أو قوله سبحانه من سورة الرعد : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار » عجب كيف يمكن أن يتعطل العقل فى الإنسان فيتخذ مع الله آلهة لا تملك لغيرها ولا لنفسها من شيء ؛ ثم لا يكون ذلك إلا فى أمم كالعرب والروم والفرس أو كالهند والصين ، لكل منها فى قديم التاريخ مكان .

فإذا تركنا خطاب القرآن أهل الشرك ونظرنا فيما خاطب به أهل الكتاب وجدنا مُثلا أخرى من إقامة الحجة فى إيجاز وإلزام نجتزىء منها بمثل واحد ، هو قوله تعالى من سورة المائدة : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدّيقة كانا يأكلان الطعام » . فى الكلمات الثلاث الأخيرة وما اندرج فيها برهان أى برهان على بطلان ما يدعيه عبّاد عيسى ومريم عليهما السلام .

ولا يبقى بعد هذا فى أمر التوحيد إلا نفى الندّ مطلقا عن الله سبحانه ، وهنا تلقى العجب العجاب من الحجاج المعجز بيانا ومنطقا ، من نحو قوله تعالى فى سورة الأنبياء « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون » ، أو قوله تعالى من سورة الإسراء « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا » ، أو قوله تعالى من سورة المؤمنون « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » . وهى حجج قاطعة تسد على فروض الفلاسفة الأبواب .

وكما حاكم القرآن الناس إلى العقل فى أمر الإله الحق حاكمهم إليه فى أمر الرسول الحق محمد بن عبد الله ومن قبله من الرسل ، على نفس النسق من الروعة وإحكام الحجة ووضوح البرهان . وهنا أيضاً لا يتسع المقام إلا لبعض أمثلة جمعت بين الوضوح والإيجاز .

والاعتراضات التى كانوا يعترضونها على رسالة الرسول فيها سخف كثير ، كاعتراضهم على بشريته ، فحكى الله اعتراضهم فى شيء من التعجب من سخفه ، وذلك فى قوله تعالى من سورة الإسراء « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا » ، ثم كرّ عليه بقوله « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » . فأول الجواب توكيد لرسالته صلى الله عليه وسلم بكلمة « قل » وآخره تقرير لسنة من سنن الله فى الاجتماع ، وهى أن الرسول - أو المصلح - لا يكون إلا من بين المرسل إليهم ، فالبشر لا يكون رسولهم إلا من البشر ولو كان هناك ملك رسول ، فلن يرسل إلا إلى أمة من الملائكة . وفى الجواب ما فيه من التهكم الخفى بعقول يحول بينها وبين قبول الحق مثل ذلك الاعتراض .

مكتبتنا العربية

واللجاج من عادة المعاندين الذين أضلهم الهوى عن سبيل الحق والعقل فعدلوا اعتراضهم من طلب الرسول الملك إلى طلب ملك يكون مع الرسول البشر ، فانظر كيف حكى القرآن الكريم اعتراضهم الجديد وكيف رد عليه من سورة الأنعام : « وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون . ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

إنهم إذن يكونون بين أمرين : إما أن يروا الملك على هيئته الملائكية فيهلكوا رعباً ، إذ لا طاقة للبشر برؤية الملائكة على صورتهم التى فطرهم الله عليها ، حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو الرسول أصابته غشية حين أجابه جبريل عليه السلام فتبدى له على صورته . وإما أن يأتيهم الملك فى صورة بشر حتى لا يهلكوا من الخوف وإذن لا يدرون أملك هو أم رجل ويظلون فى نفس الإشكال الذى أوقعهم فيه العناد

وأخرستهم الحجة فحملهم العناد على اعتراضات أسخف ، قالوا كيف يتبعون رسولا يأكل كما يأكلون وسيموت كما يموتون ، فجاءهم الجواب من سورة الأنبياء ، وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ، فانظر إلى سخف الاعتراض وجلال الجواب ! فالرسل بشر ، والبشر ذوو أجساد ، والجسد لابد له من طعام يقيمه، والمغتذى بالطعام لابد له فى هذه الدنيا من أن يقع به الانحلال فيموت سنة الله فى كل جسد حى أن يطعم وأن يموت .

وعادوا يعترضون بأنه صلى الله عليه وسلم له أزواج مثلهم وذرية ، فجاءهم الجواب من سورة الرعد « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية » ، وهو من ناحية يقرر رسالة الرسول صلوات الله عليه ويؤكدها؛ فضمير المتكلم هنا هو ضمير الجلالة ، وضمير الخطاب هو ضمير الرسالة ، ومن ناحية أخرى يشعرهم حين أغفل ذكرهم أنهم لن يكونوا أهلا للخطاب حتى ينزلوا على حكم العقل ويقلعوا عن سخيف الاعتراض .

ومن جليل مظاهر اعتماد الإسلام على العقل التحدى بالقرآن . وما التحدى إلا تحاكم إلى العقل وتحكيم له فيما زعم الزاعمون من أن القرآن من عند محمد لا من عند الله . ولم يكن التحدى أول ما أجيبوا به على هذا الزعم كما يبدو من قوله تعالى من سورة يونس : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ! قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون » . فلما لم يعقلوا ما انطوت عليه هاتان الآيتان الكريمتان من حجج ولجُّوا فى زعمهم ، تحداهم أن يأتوا بمثل القرآن وهم مثل محمد فى النشأة العربية . وتساهل معهم - إرخاء للزمام وتمكينا للحجة عليهم - فأباح لهم الاستعانة بمن شاءوا من العرب أو من غير العرب من أهل الكتاب أو غير أهل الكتاب

مكتبتنا العربية

وآيات التحدى مشهورة معروفة لمن قرأ القرآن. فهناك آية الطور : « أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين » ثم آيتا هود :

« أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » . ثم آيتا يونس أيضا : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » وهذه كلها آيات مكية . ثم أعيد التحدى فى المدنية بعد الهجرة بآيتى سورة البقرة : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ! » . وترى أن خاتمة آيات التحدى هذه فيها ما ليس فى أخواتها من تنبؤ بأنهم لن يفعلوا وهى نبوءة لا تزال قائمة إلى اليوم .

وهناك آيات أخرى غير آيات التحدى حكت كيف رمى المشركون فيها النبى صلوات الله عليه بافتراء القرآن ، وأجابت على إفكهم هذا بما يبرىء النبى وإن بغير التحدى ، مثل آية سورة هود أيضاً : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلىّ إجرامى وأنا برىء مما تجرمون » . وآية سورة الأحقاف : « أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بينى وبينكم » .

وفى القرآن آيات أخرى كثيرة ودلائل لا تحصى يكفى بعضها للدلالة اليقينية أن القرآن حقا كلام الله لا كلام أحد من خلقه ، أنزله على رسوله الأمين هدى ونورا للناس « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور » . آخر سورة الشورى .

وبعد فينبغى أن يوقن المسلم عن دليل لا عن تقليد أن محمداً رسول الله ، وأن القرآن كلام الله ، وهما قضيتان ليس أهم منهما للمسلم من قضية بل للبشرية . وهما ثابتتان بالعقل كما رأيت ثبوتا لا يحتمل شكا قط ، فمن كان من المسلمين فى نفسه منهما أو من إحداهما شىء فعليه ألا يهدأ حتى يزيل ذلك الشىء من نفسه . فهما بعد ثبوتهما عقلا حق اليقين . وكم فى يقين الناس من باطل ، ثم إليهما بعد ذلك ترد قضايا كثيرة تثبت بهما وعن طريقهما ، فيكون ثبوتها عن ذلك الطريق ثبوتاً عقلياً علمياً كما ثبتت ثبوتا رياضيا نتيجة النظرية الهندسية ، فيتوحد للمسلم بذلك ويتحد ؛ طريقا العقل والنقل .

ولا يزال فى الموضوع بقية تزيد المسلم بصراً بأن الإسلام دين العقل حقا ، نرجو أن نتناولها ببيان فى العدد الآتى إن شاء الله ؟ .

محمد أحمد الغمراوى

مكتبتنا العربية

فى اللغة والأدب

لغة منطقية

للأستاذ عباس محمود العقاد

من رأينا أن اللغة العربية لغة منطقية ، وأنها تمتاز بذلك مزية قليلة النظير بين اللغات الحية .

ولست أعنى بهذه المزية أن مصطلحات قواعدها مستمدة من مصطلحات المنطق كما وضعه اليونان ، ولست أعنى كذلك أنها تتسع لتعبيرات المنطق ومفهوماته ، فهذا وذاك صحيح على الجملة ، ولكن المنطقية التى أعنيها غير هذا وذاك ، وفحواها أن أحكام اللغة قابلة للتعليل المنطق لا يمنعها أن تعلل على هذا الوجه غير جهل الأسباب ، وجهل الأسباب فى كل شىء - لا فى اللغة العربية وحدها - يحول دون التعليل الصحيح .

أسمع من بعيد من يقول هنا ما يقال عادة فى سياق الاعتراض على هذا الرأى : وهل معنى ذلك مثلا أن الصيغ والأوزان فى اللغة العربية تجرى على حكم القياس فى جميع الأحوال ؟

وأجيب كما أجيب عادة من قريب : كلا . ليس معنى « المنطقية » فى اللغة العربية أن صيغها وأوزانها تجرى دائماً على قياس واحد . إذ لو كانت كذلك لكانت لغة آلية ولم تكن لغة منطقية ، فليس من المنطق أن تجرى أحكام البنية الحية على قياس واحد فى جميع الأحوال ، وما من بنية حية تسيغ فى الشتاء ما تسيغه فى الصيف أو تطيق فى الكبر ما تطيقه فى الصبا ، أو يلائمها فى جميع البيئات ما يلائمها فى بيئة واحدة ، وليس بالمعقول أن تجرى صيغ اللغة العربية وأوزانها على قياس واحد إلا إذا كانت كلماتها جميعاً قد نشأت دفعة واحدة فى موضع واحد ، على نحو واحد ، فإذا كانت الكلمات تنشأ فى أوقات مختلفة ، على ألسنة مختلفة ، لأغراض مختلفة ، فالذى يناقض المنطق هنا أنها تجرى مع الاختلاف كما تجرى مع الاتفاق ، على سنة الآلات الصماء بغير فارق بين دواعى الحياة .

وأفضل من مناقشة النظريات أن نضرب المثل ببعض الملاحظات التى تثبت المنطقية لأحكام اللغة العربية ، وهى فى وضوحها وثبوتها على درجات .

فمن أوضحها أن اللغة العربية - مع أنها من اللغات التى تفرق بين صيغة التذكير وصيغة التأنيث - تسقط علامة التأنيث حيث تبطل الحاجة إليها ولا يقتضى العقل وجودها ، بل يقتضى حذفها والاستغناء عنها ، فيقال حامل ومرضع فى أخص صفات المؤنث ، لأن هذا الخصوص هو الذى يبطل الحاجة إلى التفرقة بالعلامات .

وأدق من هذه الملاحظة فى باب المنطق ، استخدام الأداة التى تنفى وقوع الحدث فى الماضى دون غيره ، فلا حاجة مع هذه الأداة إلى العدول عن صيغة المضارع إلى صيغة الماضى ، لأن

مكتبتنا العربية

الكلام عن الماضى هنا مفهوم بالبداهة بغير علامة من أوزان الأفعال .

يقولون : لم يكتب . ولا يقولون لم كتب ، لأنهم حين ينفون حدوث شيء يفهمون أنهم يقصدون الماضى ولا يقصدون وقتا لم يأت ولم يقع فيه حدوث أو يمتنع فيه حدوث .

وهنا موضع التفرقة المنطقية الدقيقة ، فقد يقال : ما كتب وما يكتب ، وما ضل صاحبكم وما غوى ، وما كذب فلان وما يكذب . ولكن لا يقال : لم كتب ولم ضل ولم غوى ، والفرق بين الحكمين هو فى الواقع فرق بين حكمين عقليين على غاية من الدقة ، وليس قصاراه أنه فارق بين لفظين أو عبارتين .

ماذا نفهم حين يقال لنا مثلا : « لا يكذب فلان أو فلان لا يكذب ؟ إننا لا نتكلم هنا عن الحدث وإنما نتكلم عن الصفة التى ينشأ منها الحدث فى جميع الأزمنة ، غير مقيد بالماضى أو بالحاضر أو بالمستقبل ، فإذا عهد فى إنسان أنه لا يكذب فالنفى هنا ممتد إلى جميع الأزمنة خلافا للنفى الذى يتعلق بشيء منتظر الحدوث قبل نفيه .

وقد اخترنا هذا المثل الواضح لأننا أردنا مثلا بعيداً من اللبس والاشتباه ، لجعلناه من خصائص الأخلاق الثابتة لأنها أدخل فى هذا الباب من الحوادث التى لا تتعلق بالأخلاق .

ولكننا مع هذا نستطيع أن نلحظ الفارق بين قولنا ما كتب فلان وقولنا لم يكتب فلان ، فليس القول الأول مطابقاً للقول الثانى فى جميع مدلوله ، وإنما قولنا « ما كتب فلان » مسألة يغلب عليها أنها مسألة تقدير ، أما قولنا « لم يكتب فلان » فهى مسألة إخبار بحادث معين ، وليس التقدير فيه هو المقصود .

إذا قلت « ما كتب فلان » فإنما أريد أن تقديرى يخالف حصول الكتابة ، ولكننى إذا قلت إنه « لم يكتب » فليس لهذا القول غير معنى واحد : وهو أننى علمت أن الكتابة لم تحدث . وليس الأمر هنا مجرد الكلام على ما أقدره أو ما ينبغى لفلان فى نظرى ، سواء صح ما قدرت أو أخطأت فيه حسن التقدير .

وجملة القول أن « لم يكتب » غير « ما كتب » وأن الاختلاف هنا دقيق جداً يرجع إلى التصور والحكم العقلى ، ولا يرجع إلى لفظ اللسان وحده ، ومتى بلغت أدوات اللغة هذا المبلغ من الدقة فى التفرقة بين التصورات فهى من المنطق على أساس متين .

ومن الذى يفهم مثلا أن فلانا لم يكذب عليك تساوى ، أن فلانا ما كذب عليك ؟ ومن الذى يفهم الفرق ، ويرى أدوات اللغة كفيلة بالتعبير عنه ، ثم يرى أن المنطق منعزل عن التعبير العربى على ألسنة المتكلمين به فى لغة العلم أو لغة الطريق والسوق ؟

ولست أشك فى أن الأوزان اختلفت لحكمة تخفى علينا فى الوقت الحاضر ، ولكنها خليقة أن تعرف متى عرفت جميع الظروف التى أحاطت بها عند وضعها ، ويحضرنى فى هذا الباب أن السليقة توحى إلينا أن نعود إلى الأوزان كما نشأت على غير علم بالقواعد والتخريجات . ومن أمثلة ذلك أننى سمعت بعض الباحثين ينكر العلل التى ينتحلها النحاة لتغيير الأوزان ، ويرجح أنها محض تعسف ومصادفة ، وكان الكلام يدور على الفعل الذى يدل على وصف ثابت من قبيل كرم وعظم

مكتبتنا العربية

حسن وسخف بضم العين فى جميع هذه الأفعال ، فحضرنى فى هذا الباب أن العامة التى تجهل القواعد والتخريجات ، تقول طال الليل ولكنها تقول : طول الصبى أو طول بكسر الطاء والواو أو بضمهما ، كأنهم يجعلون للطول العرضى صيغة غير صيغة الطول الذى يدوم ، ويقاس على ذلك ما كان من حكم السليقة قبل ألوف السنين .

وأعتقد كذلك أن أحكام الإعراب لها علل قديمة وليست محض تعسف ومصادفة ، وشاهدى - بل شواهدى - أن عمل الحركات فى اختلاف الدلالة متمكن من بنية اللغة العربية أسمائها وأفعالها وأوائلها وأواخرها على السواء ، فالفرق بين الفعل المبنى للمعلوم والفعل المبنى للمجهول إنما هو فرق بين حركات بعض الحروف ، وكذلك الفرق بين صيغة الفاعل وصيغة المفعول ، وبين بنية المضارع وبنية الماضى ماعدا حروف المضارعة ، وليس من الأشياء العرضية أو من فعل التعسف والمصادفة أن يكون هذا شأن الحركة فى دلالات اللغة كلها ، وبخاصة حين نعلم أن اللغات يمكن أن تنقسم فى هذا المعنى إلى قسمين : قسم تتغير مدلولاته بالحركة وقسم تتغير مدلولاته بإضافة المقاطع إلى أوائل الكلمات أو أواخرها ، وأن أصول هذه المقاطع معروفة كلها أو أكثرها ، فلا يعقل أن تأتى الحركات التى تقوم بهذه الدلالات عندنا من غير أصول وأن تأتى جزافا وهى تطّرد على جملتها ذلك الاطراد .

والآية الكبرى على « المنطقية » فى اللغة العربية أنها تتسع للجملة الاسمية والجملة الفعلية على جميع أوضاعها ، لأن المعانى العقلية تتغير حين تتغير الأوضاع ، فليس من المنطق أن تدور اللغة على تركيب واحد كأنه هو التركيب الوحيد الذى يسمح به عقل المتكلم والسامع .

وهذه أمثلة لما يفهم من اختلاف موقع الفعل من الجملة ، ويكاد يفهمه العامة كما يفهمه الخاصة ، ويتيسر لهم أن يفهموه بالتفهيم فى غير عناء .

فمحمد كتب الصحيفة ، وكتب محمد الصحيفة ، وكتب الصحيفة محمد ، وهى عبارات تختلف دلالتها مع اتفاق كلماتها ، وإنما يأتى الاختلاف من التقديم والتأخير ، ومما نسميه بالجملة الاسمية والجملة الفعلية ، وكلاهما ميسور لمن يتكلم العربية ولكنهما غير ميسورين كذلك لمن يتكلمون غيرها من أكبر اللغات .

عند ما نقول « محمد كتب الصحيفة » فالفاعل هو الذى يعنينا ونقصد الكلام عنه ، وعند ما نقول « كتب محمد الصحيفة » فهناك خبر نذكره سواء عنينا بالكاتب أو لم نعن به على الإطلاق ، وعند ما نقول « كتب الصحيفة محمد » فالصحيفة هى التى تشغلنا ونخصها بالإخبار .

تلك جمل ميسورة فى اللغة العربية بمنزلة واحدة من السهولة ، ولكنها لا تتيسر على هذا النحو فى اللغات الأوربية التى تقصر التعبير على الجملة الاسمية ، ويرجع تعذرها إلى أصل التركيب ولا يرجع إلى مجرد الاستعمال ، ونريد بالتعذر من أصل التركيب أن التقديم والتأخير لا يتيسران فى جميع الأحوال كما يتيسر للعربى العامى أن يقول : « كتب محمد الصحيفة » و« محمد كتب الصحيفة » ... وحسبنا من هذا الفارق شاهدا على امتياز التفكير المنطق ورجحان اللغة التى تسمح بتركيب الجمل المتعددة على اللغة التى تردها إلى تركيب واحد ، فإن شيوع الجملة الاسمية

مكتبتنا العربية

على السنة العامة لم يكن رجحانا أو ارتقاء فى استخدام الكلام وتحرى الدقة المنطقية ، بل هو قناعة بالقليل من الكثير ، على القدر اللازم من التعبير والتفكير .

ولقد يبدو للمتعجل أن دعوى المنطقية تصطدم بأقوى الموانع فى مسألة العدد وأحكامه الغريبة عند من ينظر إليها لأول وهلة .

والذى يبدو لنا أن مسألة العدد أقوى الشواهد على المنطقية وليست أقوى الشواهد على غيابها وامتناعها .

فاللغة العربية « أولا » لم تنس التفرقة بين الفرد والزوج ولم تكتف بالتفرقة بين المفرد والجمع ، كما اكتفت لغات كثيرة ، ولا ريب أن قسمة العدد إلى فرد وزوج أصيلة فى العقلية الرياضية المنطقية .

واللغة العربية ، بعد ، قد تمشت مع العدد من نشأته البدائية على السنة المعقولة ، إذا لاحظنا أن أطوار العدد قد تدرجت منذ كانت الخمسة هى غايته القصوى ، إلى أن أصبحت « العشرون » وحدة له ملحوظة فى اللغات الرفيعة ، ومنها اللغة الفرنسية التى تعد الثمانين أربع عشرينات وليس فيها اسم خاص للثمانين .

فالعدد ، غير معلق على المعدود ، بعد الواحد والاثنين هو « ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة عشرة » .

ومن المحقق أن تغليب المذكر فى الكلام كان حكما عاما فى جميع اللغات ، حتى أن اللغة الانجليزية مثلا تسمى الرجل إنسانا وتسمى المرأة إنسانا ذا رحم (Wo-man) .

فإذا تكلم الناس عن الرجال قالوا : رجل ورجلان وثلاثة رجال ، ثم يجرى العدد من الأربعة إلى العشرة مجرى الثلاثة ، فيقال أربعة رجال وعشرة رجال .

وإذا تكلموا عن النساء احتاجوا إلى التمييز بالمغايرة فقالوا ثلاث نساء وعشر نساء .

ثم يكون المعدود تمييزا حتى نصل إلى العشرين ، فإذا جعلناه مضافا إليه قلنا عشرو رجل وثلاثو رجل وأربعو رجل على حكم جمع المذكر السالم ، فإذا جعلناه تمييزا فذاك أخف على اللسان ولا إخلال فيه بقاعدة من قواعد اللغة ، وإذا انتقلنا من تسعة وتسعين إلى مائة فلا ثقلة فى الإضافة ولا خطأ فى التمييز ، حكم العقل هنا لا حكم النحو وحده ، ومتى تساوى الحكمان عقلا فلا ضير من التساوى باللفظ على اللسان .

ومسألة العدد خليقة أن تهدينا إلى طريقة تطبيق المنطق على اللغات ، فنحن نبدأ بالتطبيق منذ استخدام العدد تبعا لأطواره المتعاقبة ، ولا ننتظر بأحكام العدد حتى تكمل ثم نطبق عليها المنطق ومقتضياته فى الزمن الأخير ، وكم قرنا مضت على المتكلمين وهم لا ينطقون بالعقود وما فوقها ؟ وكم قاعدة تقررت خلال ذلك مع الترقى بالأعداد والمعدودات ؟

ومؤدى ما تقدم أن اللغة العربية تقبل التعليل بالمنطق كلما عرفت المقدمات والأسباب ، وأن الكشوف المقبلة كفيلة فيما نرجو أن تهدينا إلى كثير من المقدمات والأسباب المجهولة ، ويومئذ ندرك العلل المنطقية التى تخفى علينا اليوم ، وندرك معها عراقة هذه اللغة التى لا يكفى لتفسير أطوارها أن نرجع بها إلى ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف سنة ، فإنها لأقدم من ذلك بغير خلاف ؟

عباس محمود العقاد

مكتبتنا العربية

منطق أرسطو والنحو العربي

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مصور مجمع فؤاد الأول للغة العربية

كلنا يعلم ما للقياس من أهمية فى نشأة النحو العربى ، وغزارة مادته ، واستخلاص قواعده ، وضبط أحكامه . ذهب اليه النحاة الأول بحكم فطرتهم وسجيتهم ، مقارنين بين الأشباه والنظائر ومستنبطين منها الأوصاف المشتركة التى تلتقى فيها . وتوسع فيه من جاءوا بعدهم ، فجعلوه منهجا ذا قواعد ثابتة ومعالم محدودة ، واعتبروه منبعا رئيسياً تستمد منه القواعد النحوية . وربما حكموه فى لغات العرب وروايتهم ، فيقولون إن لغة أقيس من أخرى ، وأن تعبيراً ما يجيزه القياس وإن لم يرد به السماع ، وكأنما يشرعون فى النحو كما شرع الفقهـــاء فى المعاملات . وها هو ذا ابن جنى يقول : « إذا بطل أن يكون النحو رواية ونقلا ، وجب أن يكون قياساً وعقلا » . ويقرر من بعده ابن الأنبارى : « إن انكار القياس فى النحو لا يتحقق ، لأن النحو قياس كله ، فمن أنكره فقد أنكر النحو ، ولا يعلم أحد من العلماء ينكره » ، ويعزى إلى الكسائى ذلك البيت المشهور :

إنما النحو قيـاس يتبع
وبه فى كل أمر ينتفع

وقد استخدم القياس فى النحو منذ المراحل الأولى ، فعالجه عبد الله الحضرمى المتوفى سنة ١١٧ هـ ، وأخذ يقيس ويعلل لأقيسته . ونماه الخليل بن أحمد وأدعمه ، وتوسع فيه سيبويه أيما توسع . وفى « الكتاب » أقيسة عدة واعتداد بالقياس فى مناسبات مختلفة لترجيح رأى على آخر . وقد لا يقف عنـد استقراء الأمر الواقع ، بل يفترض فروضاً نظرية ويعطيها أحكاما خاصة . وإذا كان نحو البصرة قد سبق نحو الكوفة بطبقتين كاملتين أو بما يقرب من مائة سنة ، فان البصريين يعتبرون بحق واضعى دعائم القياس فى النحو العربى . على أن الكوفيين أيضاً لم يترددوا فى استخدام القياس والتعويل عليه ، وربما اكتفوا بالشاهد الواحد فاستنبطوا منه قاعدة عامة ، وبالغوا فى الأقيسة النظرية والعلل العقلية . وها نحن أولاء نقيس حتى اليوم ، ولمجمع فؤاد الأول قرارات سابقة تتصل ببعض الأقيسة النحوية ، كالنسبة إلى جمع التكسير ، واستعمال وزن مفعلة للمكان .

ومهما يكن من أمر الخلاف بين مدرستى البصرة والكوفة ، فان مما يلفت النظر أن القياس النحوى نبت ونما فى العراق حيث نبت ونما القياس الفقهى . ولم يجىء ذلك عبثا ، وإنما كان

مكتبتنا العربية

وليد الاعتداد بالرأى والتأثر بالثقافات الأجنبية ، ومن بينها منطق أرسطو . وهنا نقطة ينبغى توضيحها . نتحدث عن قياس فقهى وآخر نحوى ومن الخطأ أن يظن أن الأمر فيهما كما هو فى القياس الأرسطى، ذلك لأن هذا الأخير يقوم فى أساسه على سير من الكلى إلى الجزئى ، أما قياسنا النحوى وزميله الفقهى فعلى عكس ذلك يسيران من الجزئى إلى الكلى . ولكن ينبغى أن نلاحظ فوراً أن أرسطو لم يهمل هذا النوع من الاستدلال ، فقد عرض فى لواحق قياسه لضربين من الاستدلال هما الاستقراء والتمثيل . وإذا كان لم يعتد بهما كل الاعتداد ، فقد قدر لهما أن يستخدما فى البحوث والدراسات العلمية التى جاءت بعد ، وعلى الاستقراء بوجه خاص يعتمد البحث العلمى الحديث .

فالقياس النحوى تمثيل إن استنبطت القاعدة من شاهد واحد ـ الأمر الذى كان يبغضه نحاة البصرة ـ أو استقراء ناقص إن استخلصت القاعدة من عدة حالات فردية . وهو على كل حال فطرى فى صورته الأولى التى تتلخص فى تتبع الأشياء المتشابهة والبحث عن أسبابها وعللها . وليس لأحد أن يدعى أن هذا القدر الفطرى من صنع أرسطو أو فيلسوف آخر . ولكن يوم أن تتحول الفطرة إلى فن وصناعة ينبغى البحث عن عوامل هذا التحول . ولم يقف القياس النحوى عند تلك الصورة الفطرية التى أشرنا اليها ، بل فلسفه النحاة وافتنوا فيه إلى درجة كبيرة .

فبحثوا عن أركانه ، وقالوا كما قال الفقهاء إنها أربعة : أصل وهو المقيس عليه ، وفرع وهو المقيس ، وحكم قد يتنوع كما تتنوع الأحكام الفقهية فيكون واجباً أو ممنوعا أو حسناً أو قبيحاً ، وأخيراً علة وهى دعامة القياس . ثم حاولوا بعد هذا أن يحددوا شرائط القياس النحوى الصحيح كما حدد أرسطو شرائط إنتاج قياسه المنطق . وإذا كانت هذه الشرائط لم تصلنا على شكل كامل وفى صورة مهذبة فإنا نجد منها شذرات هنا وهناك فى « الخصائص » لابن جنى ، وفى « أصول النحو » و « الإنصاف » لابن الأنبارى ، وفى « الاقتراح فى أصول النحو » للسيوطى

ودون أن نتتبع مبادىء القياس النحوى ، نكتفى بأن نشير إلى أمثلة منها ، فيقال يحمل الأقل الأندر على الأعم الأكثر لا العكس ، والحمل على ماله نظير أولى من الحمل على ما لا نظير له ، وما جاء على أصله لا يسأل عن علته ، والقياس على الفاسد فاسد ، وإن أجازوا القياس على ما ورد فى ضرورة الشعر بشرط أن يستعمل فى هذه الضرورة أيضاً . وفى هذه المبادىء وأمثالها ما يدل على أن نحاة العرب أرادوا أن يضعوا لقياسهم أصولا تحاكى تلك الأصول التى وضعها الفقهاء . وأصول القياس النحوى كأصول القياس الفقهى تلتقى فى أنها تترسم خطى القياس المنطقى .

ومثل واحد بين هذه الأصول كاف فى توضيح

مكتبتنا العربية

ذلك ، ألا وهو مبدأ العلية ، وقد كان لهذا المبدأ شأن فى النحو العربى لا يقل عن شأنه فى المنطق الارسطى ، ذلك لأن العلة هى الدعامة التى يقام عليها القياس النحوى والمنطقى . وما نظرية العامل النحوية إلا وليدة مبدأ العلية الفلسفى ، وإذا قلنا نظرية العامل فإنما نلخص النحو فى جملته ، وقديماً قالوا : « النحو أثر يجلبه العامل » . وقد وضع أبو على الفارسى كتاباً سماه « العوامل » استوعب فيه النحو جميعه ، كما وضع عبد القاهر الجرجانى كتابا آخر اسمه « العوامل المائة » فيه خلاصة نحوية مستوفاة .

والعوامل ظاهرة ومضمرة ، وقوية وضعيفة ، ومجموعة العوامل المتشابهة تكون أسرة واحدة . وهناك كلمات تعمل بنفسها ، وأخرى لمشابهتها لغيرها ، فالأصل فى العمل للأفعال ، وتلحق بها الأسماء إذا شابهتها . وتكون الكلمة عاملا حيناً ومعمولا حيناً آخر ، ولا يمكن أن تكونهما فى آن واحد . والبحث عن العوامل بيان وتوضيح لعلل الإعراب ، وقد عرفت علل الإعراب أو علل النحو قبل أن تعرف نظرية العامل فى ثوبها الكامل ، ويعتبر « كتاب » سيبويه أول بحث جامع للعلل النحوية .

فمن أين استمد النحاة فكرة العلل أو نظرية العامل هذه ؟

يذهب فريق إلى أنهم تأثروا فيها بالفلسفة الكلامية ، وإذا كان لكل حادث محدث فلكل معمول عامل . ويقول الإمام الرضى إن : « النحاة يحررون عوامل النحو كالمؤثرات الحقيقية » . ويذهب فريق آخر إلى أنهم تأثروا بالبحوث الفقهية ، ذلك لأن القياس النحوى شبيه كل الشبه بالقياس الفقهى . يقول ابن جنى فى « خصائصه » : « اعلم أن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد ابن الحسن ، جمعوها منها بالملاطفة والرفق » ، ويشير الزمخشرى إلى شىء شبيه بهذا فى « مقدمة » « مفصله » ، ويضع السيوطى كتابه « الاقتراح فى أصول النحو » على ترتيب يحاكى - فيما يرى - أصول الفقه فى الأبواب والفصول والتراجم . ولكن ابن جنى يعود فيقرر أن علل حذاق النحاة أقرب إلى علل المتكلمين منها إلى علل الفقهاء ، لأنها أكثر مجاراة للطبع .

وسواء أكانت العلل النحوية أشبه بالعلل الكلامية أم بالعلل الفقهية ، فان كلا العرضين لا يحل الموقف تمام الحل ذلك لأن علل الإعراب عرفت فى أوائل القرن الثانى للهجرة قبل أن تذاع وتعرف علل المتكلمين والفقهاء . وإذا صدق كلام ابن جنى والزمخشرى على القرن الرابع والخامس ، فإنه ليس من السهل أن توضح به أحداث القرن الثانى - على أن فكرة العلية عند المتكلمين والفقهاء أنفسهم قد تأثرت بأصل أرسطو .

وذلك ان الفيلسوف اليونانى عرض لمبدأ العلية فى كتبه الطبيعية والميتافيزيقية والمنطقية ، ويعنينا الآن الجانب المنطقى لهذا المبدأ ، ففى « التحاليل الثانية » يشرح أرسطو العلل الأربع :

مكتبتنا العربية

المادية ، والصورية ، والفاعلية ، والغائية ، ويبين مدى استخدامها فى التعريف والبرهان ، فالتعريف الصحيح هو الذى يوضح مادة الشىء وصورته ، أويكشف عن باعثه وغايته ، والقياس العلمى الدقيق هو الذى يستخلص النتيجة من عللها الحقيقية ، وكلما كان الحد الأوسط أحد العلل الأربع كان الاستنتاج سهلا يسيرا ، والاستدلال واضحا فيها .

ولم يعمل النحاة شيئا أكثر من أنهم حاولوا أن يدعموا قياسهم بمبدأ العلية ، كما فعل أرسطو من قبل ، فتلمسوا عللا لما قرؤوا وما سمعوا ، وقاسوا عليه كل مايشترك معه فى علته . وتنوعت العلل عندهم كما تنوعت عند الفيلسوف اليونانى ، فلديهم علة تشبيه كبناء الاسم لشابهته للحرف ، وإعراب المضارع لمشابهته للاسم ، وعلة استثقال كحذف واو يعد استثقالا لوقوعها بين ياء وكسرة ، أوعلة تغليب مثل : وكانت من القانتين . وقد غلوا فى هذه العلل إلى حد أفقدها كثيرا من قيمتها . ومن أمثلة المتعلمين : العلة النحوية كالوردة تشم ولا يضغط عليها . وإذا كان ابن جنى والسيوطى قد تصديا للدفاع عن العلل النحوية ، فما ذاك إلا لما أخذ عليها من ضعف ووجه اليها من نقد .

هذه هى آثار منطق أرسطو فى النحو العربى ، وجه الى بعض قواعده ، وساهم فى تكوين بنيانه وأعان على رسم منهجه ، وكان عاملا قويا من عوامل غزارة مادته واتساع أبوابه - ولكنه من ناحية أخرى أصابه - فيما يظهر - بشىء من العقم والصورية التى بلى بها المنطق الأرسطى نفسه ، فعنى بالصور والأشكال أكثر مما عنى بالمدلولات والمعانى ؛ وأكثر من القوانين والضوابط فأثقل على العلماء والمتعلمين ، وغلا فى القواعد بحيث أصبحت جوفاء لا تصدق إلا على حال أو أحوال محدودة ، ومع ذلك لم تخل من شذوذ واستثناء . وأسرف فى التعاريف غير العملية التى جاءت وليدة تشبيه وفروض وهمية لا أساس لها . ومن يقرأ شرح السيرافى على « كتاب » سيبويه أوشرح أبى حيان على التسهيل يلمس أن النحاة كثيرا ماأفسدوا النحو بماوضعوا من فروع وعلل وأصول وأقيسة ومسائل غير عملية .

وفوق هذا فتح مبدأ العلية على النحاة باب فلسفة مفرطة وثقيلة أحيانا ، فهناك علل أول وثوان وثوالث ، وقد يكون للمعلول الواحد أكثر من علة يتأولها كل نحوى كما يتراءى له . وفى باب الممنوع من الصرف أمثلة من تلك العلل المتهافتة ، وفى باب الاشتغال ولا النافية أمثلة أخرى من تلك الاعتبارات الفلسفية غير المقبولة . وكثيراً ما ورد فى المسألة قولان أو أقوال ، واستخدمت العلة الواحدة فى إثبات الشىء وضده .

وكان من نتائج هذا أن اختلف النحاة فيما بينهم اختلافا بيناً ، اختلفوا مدارس كما اختلفوا أفرادا . وجدّ كل فريق فى الدفاع عن رأيه والتدليل

مكتبتنا العربية

على وجهة نظره . واعتبرت التوجيهات النحوية ضربا من النشاط الذهنى الذى افتن فيه أيما افتنان فكانت مثار جدل طويل لم يعدم أرسطو الحيلة فى أن يغذيه بوسائله الجدلية الكثيرة ومن الغريب أن الخلاف فيما يصح أن نسميه فلسفة النحو أشد من الخلاف فى النحو نفسه ، ونظرة إلى « كتاب الإنصاف » لابن الأنبارى تكفى لتوضيح ذلك ، فالبصريون والكوفيون مجمعون على رفع المبتدأ ، والخلاف بينهم فى علة الرفع : هل هى الابتداء أو الخبر ؟ والنحاة متفقون على نصب المفعول معه ، وإنما يختلفون فى علة هذا النصب ؛ فالجمهور يراها ما تقدمه من فعل ، والجرجانى الواو المقارنة لهذا المفعول ، والزجاج يضمر لذلك فعلا خاصاً ، والكوفيون يقولون بعامل معنوى هو الخلاف . ولا أظننى أبيح لنفسى أن أثقل عليكم بسرد أدلة كل رأى من هذه الآراء .

ولو وقف الأمر فى هذا كله عند الخاصة والمتفوقين ، لقلنا لهم شأنهم وليسلكوا من سبل البحث ما يشاءون . أما أن يفرض على شباب المتعلمين جميعاً ، فهذا تكليف بما لا طاقة به ، وإجهاد فى غير طائل . ولعل هذا هو الذى دفع ابن مضاء الأندلسى إلى القول بإلغاء نظرية العامل ورفض القياس والعلل النحوية ، فوق ما كان لديه من اعتبارات أخرى نظرية ولا شك فى أن نظمنا التعليمية خطت خطوات فسيحة فى إعفاء شباب المتعلمين من هذه الفلسفات العقيمة والخلافات غير المجدية ، ولكن لا تزال دعوة تيسير النحو قائمة . وما أحوجنا أن نصنفه تصنيفاً جديدا ، فنحذف منه ما لا لزوم له وما أكثر ذلك ، ونستغنى عن التأويل والتقدير فى الصيغ والعبارات ونقرب نحونا من روح العصر ومقتضيات الحياة الحاضرة ، ونرعى فيه تطور النحو فى اللغات الأخرى .

وإذا كانت لجنة الأحوال الشخصية ، بل والبرلمان قد يسرا للناس كثيراً من أمر حقوق الأسر ، فلن يعز علينا أن نيسر لهم قواعد لغتهم التى يتخاطبون بها ويكتبون قبل أن يتقاضوا ويختصموا .

ابراهيم مدكور

أسد وكلب

جاء هوميروس الشاعر اليونانى رجل وقال له : أهجنى لأفتخر بهجائك إذا لم أكن أهلا لمديحك : فقال له : لا . فقال الرجل : إذن سأمضى إلى زعماء اليونان أخبرهم بنكولك . فقال هوميروس : بلغنا أن كلباً حاول مرة قتال أسد بجزيرة قبرص ، فامتنع عليه الأسد أنفة منه . فقال الكلب : سأمضى فأخبر السباع بضعفك . فقال الأسد : لأن تعيرنى السباع بالنكول عن مبارزتك ، أحب إلى من أن ألوث شاربى بدمك .

مكتبتنا العربية

خصائص الثقافة الإسلامية

للأستاذ محمد خلف الله بك
عميد كلية الآداب بجامعة فاروق

الثقافة ـ فى اصطلاح الباحثين ـ هى مجموعة المعارف والجوانب الروحية الأصيلة من حياة الأمة ، ممثلة فى تعاليمها الدينية وتقاليدها ، وأدبها وفنها وفلسفتها ، وأنظمة تفكيرها فى الحياة والسلوك .

ومما ينفع المسلمين فى المرحلة الحاضرة من تاريخهم أن يتعرفوا خصائص ثقافتهم ، ويعملوا على إحيائها ونشرها فى مجتمعهم الحديث ، حتى يصبح مجتمعا موحد النزعات والأهداف ، له طابعه وكيانه المستقل ، وله دوره الإيجابى فى تطور الحضارة الإنسانية المعاصرة . والطريق الصحيح إلى تعرف هذه الخصائص هو العودة إلى تاريخ الإسلام ودراسة مقومات الحياة الإسلامية فى عصورها الذهبية .

لقد نشأ الإسلام فى جزيرة العرب ، ولم تلبث أضواؤه أن انتشرت شرقاً وغرباً ، فنفخت فى الإنسانية روحاً جديداً ، وأخرجت لها ثقافة واضحة السمات ، أولُ خاصة تميزها أنها تستمد مُثلها وأهدافها ونظم حياتها من وحى السماء : فهى تقوم على عقيدة التوحيد ، والإيمان برسل الله ، لا تفرق بين أحد منهم ، وهى تنظم الصلات والمعاملات بين الناس ، وتبنى قواعد السلوك فى الفرد والمجتمع ، على أسس التشريع السماوى .

والخاصة الثانية لهذه الثقافة أن لسانها المبين هو اللغة العربية : فقد اقتضت حكمة الله أن يختار رسول الإسلام من العرب ، وأن يجعل معجزة دينه كتاباً عربياً ، هو عند المسلمين نهاية الإعجاز فى البيان ، وهو النموذج الخالد الذى يتطلع إليه كل منشىء وأديب فى لغة الضاد . وقد أطلعت الثقافة الإسلامية ـ تحت راية هذا الكتاب ـ أعلاماً من المفكرين والمؤلفين بتلك اللغة ، من مختلف الأجناس . وكان القرآن هو الينبوع الذى تفجرت ـ وأستمدت ـ منه الدراسات الإسلامية الأصيلة ، من تفسير وتشريع ، وفقه وتوحيد ، وأصول وبيان ، وأخلاق وتصوف ، بل كانت دراساته وتوجيهاته وسيرة رسوله هى الباعث الأول على نهضة التأليف فى الأدب واللغة والتاريخ فى البيئات الإسلامية .

ولم تلبث تلك العقول التى أنشطها الإسلام من عقالها أن تنبهت إلى ما حواليها من مختلف الثقافات القديمة والمعاصرة ، فأقبلت عليها ، ورحبت بممثليها ، وأفسحت لهم المجال فى قصور خلفائها ، ورحاب معاهدها ، وشجعتهم على النقل والترجمة ، فتلاقت بذلك جداول التراث القديم والفيض الدافق الذى فجرته يد الإسلام ، فكان من كل أولئك تلك الثروة الفكرية التى لعبت دورها فى نهضة العالم الحديث .

هذه الثقافة الإسلامية من أغنى الثقافات

مكتبتنا العربية

العالمية وأعرقها ، فى آدابها ومعارفها الواسعة . فهى تمتاز بكثرة ما أخرجت من الموسوعات الأدبية والعلمية والتاريخية ؛ ولها اتجاه فلسفى ذو طابع خاص حاولت فيه أن توفق بين روح الدين ، وبين التفكير البشرى الفلسفى . ولهذه الثقافة فنها الذى استمد روحه واتجاهاته من بيئاتها ودينها ونظم حياتها ، فكانت له نقوشه وخطوطه ورسومه ، وكان له طابعه الشرقى فى البناء والعمارة .

امتازت هذه الثقافة - إذن - فى معارفها بالشمول وسعة الآفاق وحرية التبادل الفكرى ، وكثرة من أطلعت سماؤها من نجوم الفكر وشموس المعرفة .

ولكن لهذه الثقافة جانباً آخر لا يقل شأناً عن سابقه ، ذلك هو الجانب السلوكى والاجتماعى منها ، فقد وضعت أمام الفرد مثالاً من الحياة الصالحة يستطيع أن يسمو إليه ، إذا أحسن استعمال ما وهبه الله من عناصر الخير فى طبيعته . وقد تعهدت هذه الحياة بجملة من الشعائر والعبادات ، وبضروب من التوجيه الروحى والمعاشى ، فى آيات القرآن وسنة الرسول والسلف الصالحين .

وأخص ما تتميز به هذه الحياة التى دعا إليها الإسلام أنها وسط معتدل ، لا هو بالروحى الفانى فى روحيته ، ولا هو بالمادى الطاغى فى ماديته ، يستطيع فيه الفرد أن يعيش لذاته ولغيره ، وأن يعمل لدنياه ولآخرته ، وأن يحاول توفير السعادة لنفسه ، ولأكبر عدد ممكن من بنى الإنسان .

وقد تميزت هذه الثقافة فى ناحيتها الاجتماعية بنظام لا تنفك الأيام تكشف كل حين جديداً من فضائله ومزاياه . هذا النظام فى ناحيته المدنية يوفق توفيقاً حكيماً بين سلطان الحاكم وحرية المحكوم من جهة ، وبين مصالح الجماعة وحقوق الأفراد من جهة أخرى ؛ وهو فى ناحيته الاقتصادية عملى مثالى معاً ، يحترم الملكية الفردية ، ويقيم إلى جانبها دعامة من البر والتعاون بين الغنى والفقير .

وهو فى ناحيته الإنسانية لا يفرق بين لون ولون ولا بين عنصر وعنصر ، إلا على أساس التقوى والعمل الصالح . وهو فى ناحية الآداب العامة يحض على التزام الطهر والاحتشام فى موقف كل من الجنسين نحو الآخر ، وعلى أن يكون طابع الحياة طابع جد ووقار واعتدال وإخلاص ، فلا إسراف فى متعة ، ولا إغراق فى لهو ، ولا إضاعة للعمر فى عبث أو فضول ، ولا انتهاك للحقوق والحرمات بين الناس .

هذه فى إجمال ، مقومات الثقافة الإسلامية فى ناحيتى المعرفة والسلوك . ومن واجبنا أن ننظر فى ضوئها إلى مجتمعنا الإسلامى الحاضر ، لنرى موقفنا ، ولنتبين طريقنا إلى الإصلاح .

إن الأمم الإسلامية اليوم وصلت إلى درجة من الوعى أدركت معها ضرورة الجد فى توجيه ثقافتها وجهة إسلامية قومية . ولا شك أن الركن الأول فى خلق مجتمع موحد مستقل ، هو قدر عام مشترك من الثقافة القومية يزود به كل مواطن قبل أن يتجه إلى التخصص فى فرع من فروع المعرفة . ومعنى ذلك أنه يجب أن يبنى

مكتبتنا العربية

التعليم العام فى الأمة الإسلامية على أساس موحد ، يتغذى فيه الناشىء المسلم بالروح الإسلامية ، ويفقه تراث آبائه وأجداده ، ويتعرف إلى معالم تاريخه ، والخالدين من مفكريه وأبطاله .

هذه نقطة مهمة فى جهادنا الثقافى فى الوقت الحاضر ، وقد تنبهت لها مصر ، وقطعت فى العمل بها شوطاً كبيراً : فقربت بين مناهج تعليمها ، وعنيت بتعميم نواحى الثقافة القومية فى تلك المناهج ، وأخذت هى وشقيقاتها من البلاد العربية تسعى فى الاتفاق على قـــدر من الثقافة ، لا بد لكل مواطن عربى أن يحصله ، وإذا اطّرد السير فى هذا المضمار ، كان لنا أن نتطلع منذ اليوم إلى عهد فى الثقافة العربية الإسلامية ، تتوحد فيه المشاعر ، وتتقارب طرائق التفكير ، ويتصل حاضر هـذه الأمة بماضيها ، ويصبح كل مثقف فيها - أيا كانت مهنته أو ناحية تخصصه - فخوراً بتراثه ، ملما بحيوات رجاله ، تهتز نفسه اهتزاز العزة كلما ذكر علياً وعمر والشافعى والطبرى وابن سينا والغزالى والرازى وابن خلدون والجاحظ والمتنبى ومحمد عبده وشوقى ، وغيرهم من رجالات الفكر الإسلامى .

ومن الطبيعى أن تأخذ اللغة العربية فى هـذا الجهاد حيزاً كبيراً من التفكير والعناية ، فهى الترجمان الناطق عن هـذه الثقافة الإسلامية ، وقد كان هـذا شأنها فى مختلف أقطار الإسلام من عربية وغير عربية ، إذ كان المثقف المسلم يهتم بإتقان هـذه اللغة قبل أن يهتم بإتقان لغته المحلية . ولا شك أن الحكمة العملية تقضى بأن تحافظ الأمم الإسلامية على هذه الرابطة الكبرى ، وأن تتعاون على تجديدها ونشرها .

أما المجتمع العربى الإسلامى فعليه فى هـذا واجب خاص يحتمه مركزه من ثقافة الإسلام : ذلك أن الفصحى هى اللغة القومية لهذا المجتمع ، ومن تمام هذه القومية أن تكون تلك اللغة لغة العلم والحياة معاً ، ولن يستقيم أمر الثقافة العربية الإسلامية حتى تتوحد فيها طرائق التعبير فى البيت والسوق والمدرسة ، وحتى يتفاهم الجميع ويقرءوا ويكتبوا بلغة واحدة .

أما فى النـاحية السلوكية فلا مفر للمجتمع الإسلامى - إذا أراد أن يكون له كيانه المستقل - من أن يقيم أركان دينه ، وأن يصبغ حيـاته الفردية والجماعية بالصبغة الإسلامية ، وأن يعنى فى مجتمعاته العامة بالمحافظة على آداب الاسلام ، وأن يصدر عن روح الإسلام وتعاليمه فيما يعالج من شئون الحياة ومذاهب التفـكير .

إن أمام المجتمع الإسلامى اليوم أهدافاً ثلاثة رئيسية ، ينبغى ألا يقصر عن تحقيقها :

الأول - التحرر من رق التبعية لأى سلطان أجنبى ، وهـذا شرط لابد منه لوجود ثقافة إسلامية سليمة .

والثانى - التحرر من رق الجهل بمحو الأمية ونشر التعليم ، والعناية بالطابع القومى فى التربية .

والثالث - التحرر من رق التقليد الاجتماعى بالرجوع إلى مناهج الحياة الإسلامية الصحيحة فى السلوك والأخلاق وآداب الاجتماع .

محمد خلف الله

مكتبتنا العربية

حياة اللغة العربية في الجزيرة قبل الإسلام

للدكتور عبد الحليم النجار
مدرس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

هناك ظاهرة غالبة ، يشبه أن تكون حقيقة ثابتة ، في حياة العرب اللغوية قبل الإسلام . تلك هي اختصاص الأدب الرفيع ، والتعبير الفني ، بلغة يغلب عليها طابع موحد ، ونظام متسق ، يخالف ما عرف عن العرب ، وما هو كامن في طبيعة كل لغة حية ، من تباين في اللهجات ، واختلاف في الألسنة .

ويذهب الجمهور من علماء اللغات المحدثين - وعلى الأخص المستشرقون - تجاه هذه الظاهرة ، إلى التفرقة بين لغة الأدب ولغة الشعب ، بين لسان الشعر وفن القول من جانب ، ولسان الحياة في مباذلها ومدارجها الرتيبة المعتادة من جانب آخر .

دعنا من بعض مستشرقين آخرين زعموا أن الأمة العربية الأمية في عهد الجاهلية كانت بمعزل عن صبغة الترتيب العقلي ، والتهذيب الفكري ، الذي يزعمون أن سبيله الوحيدة هو الثقافة المكتسبة ، فاستكثروا أن تكون للعرب ثروة أدبية بالكلية ، وادعوا أن ما روى لهم من أشعار وآثار هو من صنيع الرواة والعلماء ، بعد أن عرفوا العلوم واصطنعوها ، بوساطة احتكاكهم بالأمم ذات الحضارات القديمة ، والعلوم المتوارثة ؛ بل من هؤلاء المستشرقين من يذهب شططا فيزعم أن القرآن نزل أول ما نزل بلغة عرب الجاهلية المبتذلة ، كما يتصورونها ، وأن القراء والرواة والعلماء هم الذين صقلوه ، ووسموه بميسم العربية الذي ابتدعوه [١] .

ولقد دمغ الراسخون من المستشرقين أنفسهم هذا الرأي بأنه هراء ، وقرروا أنه لا يستحق ذكرا بين الآراء [٢] .

ويقرر جمهور المستشرقين [٣] أن العرب ازدهرت لهم في الجاهلية أفنان من الشعر القومي زكت ثمارها ، وأينعت قطوفها ، وإن لم يشارك في هذا الازدهار جميع العرب ، بل سكان أواسط الحجاز ، وأهل نجد جميعا ، وما جاور

---

(١) أنظر :

K. Vollers, Volkssprache U. Schriftsporache im Alten Arabien, 1906.

و :

P. Kahle, The Cairo Genia, London, d. 78-84.

و :

P. Kahle, The arabic Readers of the Koran (Jour. of New Eastern Studies 8, 1947, p. 65-71) etc.

(٢) انظر :

Th. Noldeke, Neue Beitraege zor semitischen Sprachwisseuschaft, 1910, 1-5.

و :

Encyclopédie de l'Islam (sous le titre : Quran).

(٣) انظر :

C. Brockelman, Grundriss der vergleichenden Gramuratik der semitischen Sprachen, I, p. 23.

مكتبتنا العربية

نجداً من المساكن والديار ، ويدخل فى ذلك سهل الفرات . على حين أن العرب الذين كانوا تابعين للإمبراطورية الرومانية فى سورية لم يظهروا فى هذه الثروة إلا آخذين متأثرين ، لا صانعين مبدعين . وكل شعراء تلك المناطق والديار ، على الرغم من اختلاف قبائلهم وعشائرهم ، اصطنعوا لسانا مشتركا عاما ، لم تكن له - فضلا عن ذلك - حياة فيما عدا هذه اللغة الغنائية الفنية ، لغة الشعر والأدب الرفيع .

ويحاول هؤلاء المستشرقون تقريب ذلك الافتراض - مع اعترافهم بأن تحققه غير طبيعى لعدم ألفة العرب فى الجاهلية للكتابة التى من شأنها تحديد مستوى من التعبير يترفع عن لغة العامة - بأنه توجد فعلا أحوال مشابهة عند بعض الأمم الطبيعية البدائية التى يسود عندها أسلوب خاص فى التعبير الغنائى ، مختلف عن أسلوب التخاطب اليومى الرتيب دون أن تعرف الكتابة ، أو توجد لديها وسيلة إلى اكتساب الثقافة المنظمة .

وهم يرون أن لغة الأدب العربى هذه تمتاز بثروة كبيرة من الصيغ والقوالب ، وتبلغ بدقة وسائل التعبير فيها أعلى قمة النمو بين اللغات السامية كافة ؛ كما أن كنز مفرداتها غنى غنىً خارجا عن المألوف ، لأنه يستمد مددا لا ينقطع تياره من جميع اللهجات الشعبية المتفرقة .

* * *

بهذا الشرح والتفسير يحاول علماء اللغة المحدثون فهم ظاهرة اتحاد لغة الأدب ، إزاء اختلاف لهجات العرب ، وهو فهم يخالف رأى علماء العربية ، ولا يجارى ما تناقلته الروايات التى تفيض بها كتب اللغة والأدب . وقبل أن نأخذ فى بيان ذلك يحسن أن نتعرض لفحص الأسس التى بنى عليها هذا الشرح والتفسير .

يقر المستشرقون ومن جاراهم - كما سبق - بأن افتراضهم غير طبيعى ، إذ لم يكن للعرب عهد فى الجاهلية بذيوع الكتابة وانتشارها على صورة ترسم للتعبير أساليب ثابتة ، ومعايير لها صبغة العموم . وأقصى ما يعتمدون عليه فى تسويغ إمكان وقوع ذلك الافتراض هو القياس على بعض الأمم الطبيعية التى لا تزال موجودة وعندها أسلوب خاص للتعبير الغنائى مخالف لأسلوب كلامها العادى .

ونحن نرى أن هذا القياس بعيد المنزع ، غير واضح المهيع ؛ فشتان بين الأمم الطبيعية المعاصرة فى مجاهل أفريقية ، أو بين شعوب الأمريكيين الحمر ، وبين عرب الجاهلية الذين كان أدبهم ديوان حكمة ، وقانون أمة ، ومشرع حضارة ، ومعين ثقافة ، وبلغ من النضج الفكرى ، والسمو الوجدانى ، والمستوى الخلقى ، مبلغا قل أن نرى مثله عند شعوب أخرى فى القديم والحديث .

كيف وقد رأينا أن هؤلاء العلماء يرون امتياز لغة الأدب العربى بثروة فى الصيغ ، والأساليب ، ترفعها إلى الذروة بين جميع اللغات السامية التى شهدت حضارات ومدنيات متنوعة الألوان ، متفرعة الأغصان . فهل يجوز عقلا أن تسمو لغة أمة بدائية فى تكوينها وطبيعة حياتها - مهما كانت هذه اللغة لغة الأدب فحسب - على لغات

مكتبتنا العربية

سارت فى ركب الحضارة بخطى سراع ، وزاحمت فى ميدان العلوم والمعارف بمنكب وباع ؟

ثم ما هذا التضارب والتناقض ! وكيف تسمو لغة الفن والأدب الرفيع على لغة الشعب والحياة المبتذلة ، مع تقرير أن الأولى تستمد عدداً لا انقطاع له من الثانية ، أى من اللهجات الشعبية الدارجة ، الجارية فى تلك الحياة الرتيبة المبتذلة ؟

لا جرم أن الحكم على هذه الصورة لا يستقيم ، ولا يجد مساغا فى العقل السليم ؛ كما أن التسليم بذلك قد يتناقض مع كثير من الأدلة المعقولة والمنقولة ، وينقض كثيراً من الأصول المسلمة المتلقاة بالقبول :

(١) فكثير من الآيات القرآنية ، بله الروايات المتضافرة ، يصرح بأن القرآن - ولغته لغة الأدب الرفيع ، بل أسمى نماذجه باتفاق القدماء والمحدثين - نزل على نبى من العرب ، بلسان العرب ، متحديا العرب جميعا أن يأتوا بمثله أو بعضه ، ومعجزاً إياهم جميعا ، مع أنه من نوع كلامهم ، وعلى سنن بيانهم ، وبأسلوب تعبيرهم ؛ وإلا لما جاز أن يتحداهم ، ولا تم له أن يعجزهم [1].

(٢) كما أنه لو كان للعرب كلام يختلف فى أساليبه ومناهج تعبيره عن لغة الأدب والفن لوجدنا دليلا على وجود ذلك الكلام غير سبيل الافتراض والتخمين ، ولما فقدنا من يشير إلى ذلك أدنى إشارة بين العلماء والرواة ونقلة اللغة الذين كانوا أحرص الناس على مخالطة البدو وانتجاع ديارهم ، وتدوين كلامهم ، وجمع المادة اللغوية من أفواههم ، دون تمييز فى ذلك بين الشاعر المغلق ، والخطيب المفحم ، والشيخ الفانى ، والشاب الجذع ، والعجوز الحيزبون ، والفتاة الرود [1] .

وإذاً فلا بد هناك من حلقة ساقطة تشرح كيف يتحد لسان الأدب والفن عند جميع القبائل فى الصيغ والأساليب ومناهج التعبير ، مع أن هناك أدلة قوية على حصول اختلاف بين تلك القبائل فى اللهجات وفيما اختصت به كل قبيلة من لحن القول .

* * *

هناك حقيقتان تنبغى ملاحظتهما جيداً إذا أردنا أن نفهم حياة العربية فى الجزيرة على حقيقتها قبل الإسلام . ومرد هاتين الحقيقتين إلى تحقيق مدى كل من الاتحاد والاختلاف اللغويين اللذين كانا موجودين فى الجزيرة زمن الجاهلية .

وجميع الشواهد والدلائل تتجه إلى إفادة أن الإسلام لم يشرق نوره ، ولم ينزل فرقانه ، إلا بعد أن كانت قد انتهت فى الجزيرة منذ عهد بعيد سابق على ذلك معارك صراع عنيف بين لهجة قريش وبقية اللهجات الأخرى ، وإلا بعد أن تم للهجة قريش - بما تهيأ لها من أسباب الغلب والظفر - الانتصار الساحق على غيرها . فلا غرو إذاً أن نرى الشعراء ورجال البيان واللسن فى قبائل العرب جميعا يضعون نصب أعينهم مثالا يحتذونه لا يتجاوزونه إلا قليلا ، وأسلوبا موحدا لا يشذ إلا فى جزئيات تافهة يسيرة لا تنقض وحدته ، ولا تعكر صفاء ينبوعه .

(١) انظر مبحث إعجاز القرآن فى كتب الكلام والبلاغة وكتاب إعجاز القرآن للباقلانى بوجه خاص .

(١) أخذ بهذه الحجة ولدكه Th. Noldeke فى الكتاب الذى ذكرناه آنفا .

مكتبتنا العربية

وقد حفلت كتب العربية [1] بالروايات والآثار التى تؤكد هذه الحقيقة ، والتى تشير إلى عوامل عدة ساعدت لهجة قريش على ما تم لها من ظفر وانتصار . وقد يمكن تلخيص هذه العوامل فى :

(١) العامل الجغرافى : فقد كانت قريش تسكن منطقة مستقلة سميت حجازاً لها يقيها من التأثر البعيد المدى بالمؤثرات الخارجية . ومن هنا احتفظت بخصائص لغتها فلم تندمج فى غيرها ، ولم تأخذ من قبائل العرب إلا بالقدر الذى يروقها ، ويندمج فى دائرة طبيعة لسانها ، أما غيرها من أطراف الجزيرة فكان مفتوح الأبواب للتأثر من داخل الجزيرة وخارجها ، بل من داخلها على وجه أوسع لما كان العرب عليه فى مجموعهم من شبه عزلة عن العالم الخارجى من ناحية ، ولما كانت عليه قريش من مكانة مرقومة تجعلها قدوة فى نظر العرب جميعاً من ناحية أخرى .

(٢) والعامل الدينى : فقد كانت قريش سدنة البيت وجيرته الأدنين ؛ والبيت محجة العرب فى الجاهلية ، وحرمها المقدس الذى كانت تقصد إليه معظم القبائل للعبادة وتبادل المنافع .

وكانت مكانة البيت هذه سبباً فى غزوة الفيل التى ساقها أبرهة الحبشى إلى مكة مدفوعا بباعث الحقد على البيت وعلى توحيده للعرب ، والرغبة فى صرف العرب عنه إلى بيت يؤسسه هو ويكون شعاره سيادة الحبشة .

(٣) والعامل الاقتصادى : فقد كانت معظم تجارة العرب فى أيدى قريش يجوبون بها طرف الجزيرة شمالا وجنوبا فى مختلف الفصول . ومن ذلك رحلتا الشتاء والصيف الوارد ذكرهما فى القرآن الكريم .

فكان من أثر ذلك احتكاك قريش بشتى القبائل ، وفسح مجال الصراع بين لهجتها ولهجاتهم؛ ولاسيما إذا كانت تلك الرحلات طويلة بسبب طبيعة التنقل فى ذلك العهد ، وكان الاختلاط لهذا أعم وأكثر تغلغلا وتأثيراً فى النفوس والألسنة ؛ فضلا عما تجلبه التجارة معها من أرباح مادية وثقافية واجتماعية وغيرها ، إلى جانب البضائع المختلفة الأسماء والوظائف والفوائد ، وكل ذلك هيأ لقريش سمواً وتفوقا على غيرها فى اتساع المدارك وتذوق ألوان الحضارات .

كما كانت أعظم مجامع العرب وأسواقها فى الجاهلية بعد الحجيج تعقد على مقربة من مكة ، وهى عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز . وفيها كان تبادل المنافع ، ومفاداة الأسرى ، والمفاخرة ، والمنافرة ، والتغنى بالحب والجمال ، والتهذيب بالحكم والأمثال ؛ وكان لهذا كله أثره فى صقل اللغة وتوحيدها .

(١) انظر : المزهر للسيوطى (الفصل الثانى فى معرفة الفصيح من العرب) ؛ وانظر كتاب : فقه اللغة تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى ، فى تغلب لهجة قريش الخ .

مكتبتنا العربية

(٤) والعامل السياسى المترتب على كل ما تقدم، فقد يسر ذلك كله لقريش أسباب النفوذ فى أنحاء الجزيرة وظهر أثر ذلك فى الاحتكام إليها عند اللجاج والخصام ؛ وقد بقى هذا النفوذ السياسى لقريش ظاهرا بارزا بعد انتشار الإسلام ، فنرى أبا بكر يحج الأنصار حين طمعوا فى الخلافة قائلا : « لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش » .

إلى غير ذلك مما يقرب فهم غلبة اللهجة القريشية على غيرها ، ويفسر ما تفيض به كتب العربية من أن لهجة قريش أعظم لهجات العرب ثروة وأغزرها مادة، وأسلسها وأرقها وأقربها إلى ذروة البيان ، وأحقها بالتحدى والإعجاز ، وأن قريشا أفصح العرب اسانا ، وأبينهم بيانا الخ [1] .

بيد أن هناك روايات كثيرة أخرى تتعارض كلها فى ظاهرها ، إذ تنسب كل منها أعلى درجات الفصاحة إلى قبيلة معينة غير قريش . فقد ذكر أن أفصح العرب قبيلة سعد بن بكر ، وجشم ابن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف ، وعليا هوازن ، وسفلى تميم الخ [2] .

ولكننا إذا أنعمنا النظر فيما تقدم من أن اتجاه العرب إلى توحيد لغتهم بتأثير ما للهجة القرشية من قوة وفتوة كان أمرا سابقا على الإسلام بكثير ، فلم يجىء الإسلام إلا وقد عمل فى ذلك الاتجاه عمل كبير ، استطعنا أن نزيل ذلك التعارض فى ظاهر الأمر بأيسر الخطب . فإن العربية كانت قد قطعت فعلا أشواطا بعيدة فى سبيل التوحيد جعلتها وحدة عامة فى الصيغ والأساليب ، وصور التركيب ما عدا هنات هينات من اختلاف يسير تنفرد به كل قبيلة عن غيرها . فكانت هناك قبائل موسومة بالفصاحة لقلة ما فى لغتها من مظاهر ذلك الاختلاف ، وكانت كل قبيلة من هذه تباهى بخلوص لهجتها وفصاحة لغتها ، وتفوقها على غيرها فى الاقتراب من المثل الأعلى للفصاحة ، ومن ثم ادعت كل قبيلة من تلك القبائل أو ادّعى لها أنها أفصح العرب .

أما أنه كان لا يزال هناك اختلاف بين لهجات القبائل عند ظهور الإسلام فهذا أمر لا يستطيع أحد إنكاره لثبوته بكثير من الأدلة . ولو كانت العربية لغة واحدة لما جاز أن يكون هناك فصيح وأفصح بين اللهجات ، ولما وضحت دلالة للحديث المستفيض الذى ينص على أن القرآن نزل على سبعة أحرف ، إلى غير ذلك من الأدلة على أن الجزيرة كانت تشتمل على كثير من اللهجات بمقدار كثرة قبائلها وعشائرها ، وهذا ما تقضى به أيضا طبيعة اللغة فى حياتها ونموها وتأثرها بالمؤثرات المختلفة من جغرافية ، واجتماعية ، واقتصاديه ، وسياسية ، وغيرها .

ولكن هذا الاختلاف لم يصل إلى المستوى المنحط الذى يصوره المستشرقون ، بل هو اختلاف لا يتجاوز ما يمكن أن يكون بين اللهجات من اختلاف .

---

(١) انظر ما نقله السيوطى فى المزهر (الفصل الثانى فى معرفة الفصيح من العرب) عن ابن فارس والفارابى فى أن قريشاً أفصح العرب .

(٢) المزهر فى الموضع السابق .

مكتبتنا العربية

علم الملوك

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد القادر المغربي

رئيس المجمع العلمي العربي - وعضو مجمع فؤاد الأول

علم الملوك هو العلم المعروف بعلم الخبر أو علم الأخبار ، والضليع فى هذا العلم كانوا يسمونه أخباريا . والأخباريون هم أولئك الذين اشتهروا بغزارة المادة وسعة الرواية فى أخبار الناس . وواقعات حياتهم على اختلاف أزمانهم . وتباين طبقاتهم . وخاصة طبقة العظماء من ملوك وأمراء ووزراء وعلماء وأدباء وشعراء .

وليس كل خبر يصح أن يدخل فى موضوع هذا العلم . وإنما موضوعه الخبر الذى فيه طرافة وله روعة . وفى سياقه مفاجأة تثير العجب . وتبعث على الطرب .

وقد يمزج صاحب هذا العلم أخباره بشىء من

ذلك أن هناك مقداراً من الاتفاق والاختلاف ينبغى ألاّ تتجاوزه اللهجات ما دامت لهجات تابعة للغة واحدة ، ولم تتحول إلى لغات تختلف فى طبيعتها بعضها عن بعض .

فاللهجات لكى تبقى لهجات لابد أن تتفق فى طابعها اللغوى العام ، أى أن تكون مطابقة للغتها الأصلية فى طبيعة تكوينها التركيبى ، وفى المجموع الغالب من مفرداتها ، وكذلك فى الصبغة العامة من أساليب استعمالها ومناهج تعبيرها .

وقد تختلف اللهجات بعد ذلك فى أمور عرضية أخرى ، كاختلاف الأصوات بين الفتح والإمالة أو التحقيق والتخفيف ، أو الحذف والإبدال ، أو التصحيح والإعلال ، أو الفك والإدغام ، أو ما شاكل ذلك ؛ كما قد تختلف فى بعض المفردات ، وبعض أساليب التعبير ، بحيث لا يغير ذلك من طابعها اللغوى العام .

ومثل ما ذكر من الاختلاف ربما كان سائداً بصورة قوية قبل ما ذكرناه من سيادة اللهجة القرشية وطغيانها على بقية اللهجات العربية ولا سيما فى قلب الجزيرة . وربما أعان على توضيح مدى ذلك الاختلاف وبيان قوته ما أسفر عنه التنقيب من نقوش ثمودية وصفوية ولحيانية ، ثم ما كشف من نقوش النمارة وزبد وحران وأم الجمال (١) .

أما بعد سيادة لهجة قريش فقد تكون بقيت بقايا من ذلك الاختلاف هنا أو هناك ، وعند هذه القبيلة أو تلك ، ولكنها لم تزد على أنها كانت بقايا ينظر إليها كأنها هنات من بقع سوداء تشوّه وجه التعبير السليم .

ومن هنا نرى علماء العربية يحصون تلك البقايا والخصائص القبلية ، ويعدونها عيوباً فى ألسنة قبائل معينة ينبغى أن ينزه عنها الكلام الفصيح ؟

عبد الحليم النجار

---

(١) انظر :

Enno Littmann' Semitic Tnscribtions.

مكتبتنا العربية

علم الملوك

لصاحب الفضيلة الشيخ عبد القادر المغربي

رئيس المجمع العلمي العربي - وعضو مجمع فؤاد الأول

علم الملوك هو العلم المعروف بعلم الخبر أو علم الأخبار ، والضليع فى هذا العلم كانوا يسمونه أخباريا . والأخباريون هم أولئك الذين اشتهروا بغزارة المادة وسعة الرواية فى أخبار الناس . وواقعات حياتهم على اختلاف أزمانهم . وتباين طبقاتهم . وخاصة طبقة العظماء من ملوك وأمراء ووزراء وعلماء وأدباء وشعراء .

وليس كل خبر يصح أن يدخل فى موضوع هذا العلم . وإنما موضوعه الخبر الذى فيه طرافة وله روعة . وفى سياقه مفاجأة تثير العجب . وتبعث على الطرب .

وقد يمزج صاحب هذا العلم أخباره بشىء من

ذلك أن هناك مقداراً من الاتفاق والاختلاف ينبغى ألاّ تتجاوزه اللهجات ما دامت لهجات تابعة للغة واحدة ، ولم تتحول إلى لغات تختلف فى طبيعتها بعضها عن بعض .

فاللهجات لكى تبقى لهجات لابد أن تتفق فى طابعها اللغوى العام ، أى أن تكون مطابقة للغتها الأصلية فى طبيعة تكوينها التركيبى ، وفى المجموع الغالب من مفرداتها ، وكذلك فى الصبغة العامة من أساليب استعمالها ومناهج تعبيرها .

وقد تختلف اللهجات بعد ذلك فى أمور عرضية أخرى ، كاختلاف الأصوات بين الفتح والإمالة أو التحقيق والتخفيف ، أو الحذف والإبدال ، أو التصحيح والإعلال ، أو الفك والإدغام ، أو ما شاكل ذلك ؛ كما قد تختلف فى بعض المفردات ، وبعض أساليب التعبير ، بحيث لا يغير ذلك من طابعها اللغوى العام .

ومثل ما ذكر من الاختلاف ربما كان سائداً بصورة قوية قبل ما ذكرناه من سيادة اللهجة القرشية وطغيانها على بقية اللهجات العربية ولا سيما فى قلب الجزيرة . وربما أعان على توضيح مدى ذلك الاختلاف وبيان قوته ما أسفر عنه التنقيب من نقوش ثمودية وصفوية ولحيانية ، ثم ما كشف من نقوش النمارة وزبد وحران وأم الجمال (١) .

أما بعد سيادة لهجة قريش فقد تكون بقيت بقايا من ذلك الاختلاف هنا أو هناك ، وعند هذه القبيلة أو تلك ، ولكنها لم تزد على أنها كانت بقايا ينظر إليها كأنها هنات من بقع سوداء تشوّه وجه التعبير السليم .

ومن هنا نرى علماء العربية يحصون تلك البقايا والخصائص القبلية ، ويعدونها عيوباً فى ألسنة قبائل معينة ينبغى أن ينزه عنها الكلام الفصيح ؟

عبد الحليم النجار

---

(١) انظر :

Enno Littmann' Semitic Tnscribtions.

مكتبتنا العربية

مسائل العلوم والفنون الأخرى فى أثناء سرد أخبار المتفقهة والمحدثين والصوفية والنحاة واللغويين وغيرهم .

هذا هو معنى الأخبار والأخباريين فى تفسير موضوع (علم الملوك) وقد ذكروا لهذا العلم آداباً منها لا يطال الحديث فيملل ، وأن لا يوجز فيجهل . ومنها حسن إلقائه وحسن البيان فيه . ومنها أن يتجنب فيه التكرار وإعادة القول . وقد نظم هذا بعض الشعراء فقال :

إذا تحدثت فى قوم لتؤنسهم
بما تحدث من ماض ومن آت
فلا تعد لحديث ، إن طبعهمو
موكل بمعـــاداة المعادات

وهناك أخبار أخرى عن أخبار الماضين من رجال التاريخ وأخباريون آخرون وهم الذين يقال لهم فى الأعم الأغلب « أصحاب الأخبار » . كما يقال للواحد منهم « صاحب الخبر » . ويراد بالأخبار إذ ذاك أخبار الناس الحاضرين باعتبار تسميتهم رعية وما يقع لهم فى أسواقهم ومجتمعاتهم وأماكن لهوهم وسمرهم وسائر أعمال حياتهم حتى أسرار بيوتهم ، يوصلها صاحب الخبر إلى الحكام وذوى السلطان فتساعد هؤلاء معرفتهم بها على سياسة المملكة ، وضبط الرعية ، وتصريف الأمور طبق إرادتهم ، ووفقاً لقوانين دولتهم . وقد يتولى صاحب الخبر مع عمله هذا ، أعمال البريد ، ونقل أخبار البلاد إلى عاصمة الملك . وهو ما نسميه اليوم مدير البرق والبريد .

هذه الأخبار هى التى عناها أحد ملوك أمية وقد سئل عن سبب زوال ملكهم فقال (وكان أول زوال ملكنا استتار الأخبار عنا فزال ملكنا عنا بنا) .

فصاحب الأخبار إذن مأمور سياسى أو إدارى . ويسمى فى لغة هذه الأيام (مأمور تحرى) أو (مأمور استخبارات) والأتراك كانوا يسمونه (خفية) وإذا أريد تحقيره سمى (جاسوساً) . وقد فصلت هذه الوظيفة اليوم عن وظيفة أعمال البريد وأصبحتا مستقلتين بعد أن كانتا قديماً توكلان إلى عامل واحد .

هذا هو الأخبارى فى الاصطلاح السياسى أو الإدارى . أما أخبارينا العالم بعلم الملوك فهو عالم متفنن مؤرخ أديب محاضر نقاد .

قال السمعانى فى كتابه (الأنساب) : الأخبارى نسبة إلى الأخبار ويقال لمن يروى الحكايات والقصص والنوادر الأخبارى . ا ه) .

وعبارة السمعانى هذه تشعر بلمز هذا العلم وغمز موضوعه ، والغض من مكانة علمائه ، حتى إن قوله هذا حمل بعضهم على الزعم بأن هؤلاء الأخباريين قد يتعمدون الكذب والوضع ، إرضاءً لشهوة الملوك ، واستثارةً لدهشتهم .

وناهيكم سوء ظن العلماء المتزمتين بأكبر أخبارى عربى أعنى (الجاحظ) فهم يعدون عليه قشورا ، وثقافته بورا .

وكأن المؤرخ الكبير ، والأخبارى العظيم ، (المسعودى) توقع أن يوصم هذا العلم ورجاله بما وصمهم به هؤلاء فقال فى تاريخه (مروج الذهب) ١٠ أجزاء ١٩٠ صفحة .

مكتبتنا العربية

« كل علم من (الأخبار) يستخرج ، وكل حكمة منها تستنبط ، والفقه منها يستثار ، والفصاحة منها تستفاد ، وأصحاب القياس عليها يبنون ، وأهل المقالات بها يحتجون ، ومعرفة الناس منها تؤخذ ، وأمثال الحكماء فيها توجد ، ومكارم الأخلاق ومعاليها منها تقتبس ، وآداب سياسة الملك والحزم منها تلتمس ، وكل غريبة منها تعرف ، وكل عجيبة منها تستطرف ، وهو علم يستمتع بسماعه العالم والجاهل ، ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل ، ويأنس بمكانه وينزع إليه الخاصيُّ والعامِيُّ ، ويميل إلى روايته العربي والعجمي ، وبعد فإنه يوصل به كل كلام ، ويتزين به في كل مقام ، ويتجمل به في كل مجلس » .

وذكرني حلو الزمان وطيبه
مجالس قوم يملؤون المجالسا
حديثاً وأخباراً وشعراً وحكمةً
وبراً ومعروفاً وإلفاً مؤانسا [1]

« ففضيلة علم الأخبار بينة على كل علم . وشرف منزلته صحيح في كل فهم ، فلا يصبر على فهمه ، ويتقن ما فيه إلا إنسان قد تجرد له ، وفهم معناه وذاق ثمرته ، واستسفر [2] من غُرره ، ونال من سُرره [3] . اهـ » .

وفيما قاله المسعودي دليل واضح على نزاهة هذا العلم ، وكرم موضوعه ، وأمانة علمائه ، وإن كان فيهم من يجرؤ على الوضع أحياناً فشِنشنةٌ نعرفها من إخوانهم الوضاعين في علم الحديث والتاريخ والأنساب : ففي كل علم من هذه العلوم الثقة المحقق ، والوضاع الممخرق ، وعلم الأخبار والسير والحديث والتاريخ والأنساب ويضاف إليها علم القصص والمقامات والمحاضرات ، متقاربة في موضوعاتها ، متفاوتة في شرفها ونبل غاياتها ، وليس المقام متسعاً للمقارنة بينها . وشرح (المبادىء العشرة) لكل منها ، وإنما نقتصر على (علم الأخبار) أو (علم الملوك) الذي هو موضوع كلمتنا هذه .

ورجال هذا العلم طبقات . فالطبقة الأولى عاشت في صدر الإسلام أي في زمن الدولة الأموية ، وأول من اشتهر من رجال هذه الطبقة عبيد بن شرية الجرهمي . الذي كان يسمر مع معاوية (رضي الله عنه) ويحدثه بأخبار الأمم الماضية ، ولا سيما ملوك اليمن . وكان معاوية يرتاح إلى أخباره ويستزيده منها . ثم أمر كتابه أن يدونوا ما يقوله ابن شرية . فجمعوا روايات في كتاب سمي باسم (أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها) وهو في نحو مئة وثمانين صفحة طبعت أخيراً في الهند وهذا الكتاب يجعله بعضهم أول كتاب دون في الإسلام .

ثم يأتي من بعد ابن شرية (وهب بن منبة)

(١) ويشبه هذا ما قاله بعض الفضلاء في هذا العلم وهو : أن في علم الأخبار سلوة للنفوس وأدابا نافعة للرئيس والمرؤوس لأن القلوب ترتاح الى الأخبار من شجونها ، والآذان تصغى الى سماع طرفها وفنونها ، والوحيد يأنس بمطالعتها . والجليس ينبسط الى مطارحتها . والملوك يتحفون بها . وينال الجاه عندهم بسببها . اهـ

(٢) استسفر المرأة طلب منها أن تسفر .

(٣) سرة الحوض مستقر الماء في أقصاه . فيكون معنى نال من سروه استخرج فوائده من أعمق أبعاده .

مكتبتنا العربية

المتوفى سنة ١١٠ هـ فقد كان أخبارياً واسع الرواية جداً ، وقد جمعت رواياته فى كتاب على حدة سمى بكتاب (التيجان فى ملوك حمير) وقد طبع هذا الكتاب فى الهند أيضاً .

ويأتى من بعد هذين محمد بن اسحاق (المتوفى سنة ١٥٢) والواقدى (المتوفى ٢٠٧) والهيثم ابن عدى (المتوفى سنة ٢٠٦) ومحمد بن سعد (المتوفى سنة ٢٣٠) وهشام الكلبي وغيرهم . ومصنفات هؤلاء فى الأخبار والسير والمغازى مشهورة . وقد أدركوا أوائل عهد بنى العباس .

أما الطبقة الثانية من الأخباريين فهى التى كانت فى عهد ازدهار خلافة العباسيين . وأشهر رجال هذه الطبقة حماد الراوية والأصمعى وأبو عبيدة وابن قتيبة الدينورى صاحب عيون الأخبار المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ثم المسعودى صاحب مروج الذهب المتوفى ٣٤٦ هـ والأصبهانى صاحب كتاب الأغانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وأبو حيان التوحيدى المتوفى سنة ٣٨٠ وصاعد اللغوى المتوفى سنة ٤١٠ هـ ولا يمكن حصر رجال هذا العلم لكثرتهم ولفقد كتبهم وآثارهم ، فأبو الفضل أحمد طيفور (المتوفى سنة ٢٨٠ هـ لم نعرف أنه من كبار الأخباريين إلا بعد أن نشر أحد المستشرقين (هنس كلر) الجزء السادس من تاريخ بغداد الذى ضمنه طيفور سيرة الخليفة المأمون . وكذلك أبو محمد البلوى الذى عاش بين القرنين الثالث والرابع لم نعرف أنه من كبار الأخباريين إلا بعد أن نشر كتابه (سيرة أحمد بن طولون) .

ومن أراد استيفاء طبقات هذا العلم ومعرفة رجاله وما تركوا من الآثار فليرجع إلى فهرست ابن النديم فإنه فى الفن الأول من المقالة الثالثة سرد أسماءهم واحداً واحداً . وأتى على شىء من تراجمهم وغريب ما يروى عنهم .

وهناك واحد من رجال هذه الطبقة (الثانية) بذّ الأوائل والأواخر فى استحكام ملكة هذا العلم فى نفسه . أعنى به أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ صاحب التصانيف الممتعة فى كل ضرب من ضروب الأخبار ، وهو بحق سيد الاخباريين الإسلاميين وإمامهم . إمامة الجاحظ فى علم الخبر جعلته ترتقى بفنه إلى الأوج ، ويضع فيه المصنفات ويباهى به أرباب العلوم والصناعات ، حتى سمّاه (علم الملوك) إكباراً له عن أن يسمى (علم الخبر) : فقد ذكر الإمام السيوطى فى كتابه المزهر (جزء ٢٠ صفحة ٣٥٧) أن الجاحظ كان يقول « إن علم الخبر والنسب وهو علم الملوك » ويريد بالنسب أنساب العرب ، ولا جرم أن معرفتها جزء من معرفة أخبار البشر .

وقام بعد هذه الطبقة الثانية العباسية طبقة ثالثة شغلت بأخبارها ومصنفاتها التاريخية عقول أهل القرون الوسطى :

منهم ابن الجوزى وابن منقذ وابن خلكان والصفدى والذهبي وابن السبكى وفى طليعتهم ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ فإن معجميه

مكتبتنا العربية

(معجم الأدباء ومعجم البلدان) من أمتع كتب الأخبار وأجمعها للفوائد والطرائف ، ومما يعجب ذكره : أن (ياقوتاً) سمى علم الأخبار (علم الملوك) كما سماه الجاحظ ، ولا نعلم إن كان هذا منه اتفاق مصادفة ، أو اتباع موافقة . وذلك أن (ياقوتاً) رد على من حط من قدر كتابه (معجم البلدان) وتنقص الأخبار التي فيه . فقال ياقوت : (إن هذه الأخبار أخبار قوم عنهم أخذ القرآن والحديث ، وبصناعتهم تُنال الإمارة ، ويستقيم أمر السلطان والوزارة ، وبعلمهم يتم الإسلام ، وباستنباطهم يُعلم الحلال والحرام ، وإن كتابي هذا هو علم الملوك والوزراء والكبراء ، يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ، ونزهة لنفوسهم) .

وإذا صح ما نقل عن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه من أنه قال : (عليكم بطرائف الأخبار فإنها من علم الملوك والسادة . وبها تنال المنزلة والحظوة لديهم) - إذا صح هذا - كان سيدنا عمر هو صاحب التسمية ويزداد هذا العلم بذلك شرفاً على شرف . ومهما يكن من أمر واضع هذا الاسم - أكان عمر أو ياقوتاً أو الجاحظ - فإن الملحوظ أنه إنما سمى بعلم الملوك ، لما أن الملوك لهم من مشاغل الملك ومهام السياسة ما يصرفهم عن النظر فى العلوم ، وكد الذهن فى فهم حدودها وتعريفاتها ، وحفظ مسائلها وتقسيماتها ، فلم يبق إلا أن تقدَّم إليهم هذه العلوم بشكل خلاصات أو (مستحضرات) يتناولونها فى مجالس أنسهم ، وبين أهل سمرهم ، وقد تضمنت المستملح من أخبار الناس الحاضرين ، وحوادث البشر الغابرين .

فالأخبار التى دونها كل من المسعودى والجاحظ ثم من جاء بعدهم كالمحسِّن التنوخى فى كتبه (نشوار المحاضرة [1]) و (الفرج بعد الشدة) وأبى الفرج الأصبهانى فى كتابه (الأغانى) - لم تكن أخباراً ساذجة ، ولا أحاديث لهو لاغية ، بل إن لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية

فكل طالب نصيب من هذه المعارف البشرية يجد فى (علم الملوك) ما يشحذ ذهنه ، ويثقف عقله ، ويقوى ملكته . ويعده لأن يخوض غمار الحياة العملية ، بعد أن يكون واقفاً وقفة العواجز على عتبة علومه النظرية .

والملوك ورجال السياسة والإدارة فى طليعة من يستفيد من هـذا العلم الذى سميناه (علم الملوك)

وروى عن أبى العتاهية أن المأمون استدعاه يوما فدخل عليه فإذا هو مطرق مفكر . قال أبو العتاهية . فأحجمت عن الدنو منه وهو على تلك الحال ، فرفع رأسه وأشار بيده : أدن . فدنوت ، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه فقال : يا أبا إسحاق شأن النفس الملل وحب الاستطراف ، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة . (ويريد المأمون بالاستطراف طلب معرفة الغريب النادر من الأخبار ، قلت أجل يا أمير المؤمنين ولى فى هذا المعنى بيت من الشعر ، قال هاته ، فقلت :

---

(١) هو فى عدة أجزاء ظفر منها بثلاثة طبع أحدها المستشرق مرجليوث وطبع الاثنين الأخريين بمعهدنا العلمى الدمشقى

مكتبتنا العربية

لا يصلح النفس ما دامت مقسمة
إلا التنقل من حال إلى حال

والنفس المقسمة هى المهمومة . اهـ .

وقد وسمت طبقة الإخباريين الراسخين فى (علم الملوك) من بين سائر طبقات العلماء بميسم الكياسة والحذق والظرف : فقد روى أن إمام النحاة أبا عثمان المازنى رتب طبقات علماء كل علم وماز بعضهم عن بعض بأوصاف خاصة فقال:

أصحاب القرآن فيهم كذا وكذا[1] .

وأصحاب الحديث فيهم كذا وكذا[1].

وأصحاب الشعر فيهم هوج .

وأصحاب النحو فيهم ثقالة .

وأصحاب الأخبار فيهم الظرف كله .

وقد عرف الخلفاء والملوك والأمراء لرجال هذا العلم فضلهم ومزيتهم فقربوهم وأدنوا مجالسهم وتنافسوا فى اجتذابهم إليهم ، وإغداق الصلات والجوائز عليهم .

بل إن الجاحظ نبه إلى فضيلة هذا العلم وجلالة قدره وفضله على الإنسانية بما لم يسبقه إليه سابق ، فقد ذكر فى رسالته (كتمان السر وحفظ اللسان)

« من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار ، وبهذه الجبلة نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين وعن الغائبين إلى الشاهدين ، وأحبّ الناس أن ينقل عنهم ، ونقشوا خواطرهم فى الصخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . فقام مجىء الأخبار عن غير تشاعر ولا تواطىء مقام العيان ، وعُرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدبيرات . ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار ، وحلت محلها بينهم ، ولكن الله خالقهم حببها إليهم لهذا السبب » .

ولعلم الملوك مسائله . وهانحن أولاء نذكر منها على سبيل المثال النموذجين الآتيين :

احتاج الناصر إلى قطعة أرض من أراضى الأحباس العامة وهى ما نعبر عنه اليوم بقولنا (الأوقاف العمومية) وتقع تلك الأرض قبالة قصره فى قرطبة . وكانت ترمى فيها الفاذورات ، وتسرح فيها دواجن البيوت . فأراد الناصر استبدالها بأرض من أملاكه ، وتحويلها إلى متنزة يضمه إلى متنزهات قصره . فكتب إلى فقهاء قرطبة فى طلب الأرض ، وذكر فى طلبه أنه يعوض الوقف أرضاً أرفع ثمناً ، وأوفر غلة .

فلم ير الفقهاء فى مذهبهم المالكى ما يجيز هذا الاستبدال ، فاستدعاهم الملك إلى قصره فحضروا ، وكان فيهم قاضيه (ابن بقى) فأخرج إليهم أحد وزرائه يكلمهم فى الأمر فقال :

يقول لكم أمير المؤمنين : يا مشايخ السوء ، يا مستحلى أموال الناس ، وذكر جملاً أخرى من هذا الطراز إلى أن قال : إن الخليفة واقفٌ على أعمالكم ، وهو مغض عنكم حتى احتاج فى المدة الأخيرة إلى دقة نظركم فى حاجة مرة واحدة فى دهره فلم تلبوا طلبه ، ما كان هذا ظنه فيكم ، ليفعلن بكم وليفعلن .

فأسرع منهم شيخٌ ضعيف النفس فاعترف بذنبه ، وطلب من الملك العفوَ والصفح وأعلن

(١) قال المازنى فيهم قولا نزهق ونتره مقالنا عن ذكره .

مكتبتنا العربية

توبته . فالتفت إلى ذلك الشيخ ! (محمد بن حسونة) وقال له : مِمَّ تتوب يا شيخ السوء ؟ نحن براء منك . ثم خاطب الوزير قائلاً :

بئس المُبَلِّغ أنت . وكل ما ذكرته على لسان أمير المؤمنين هو صفتكم أنتم معاشرَ خَدَمَته . أنتم تفعلون كذا وكذا . أما نحن فأعلامُ الهدى . ومصابيحُ الظلام . بنا تُقام الفرائض ، ويُفرَّق بين الحلال والحرام . ثم قال :

هلا بلغتنا رسالة أمير المؤمنين التى قالها على غيظ بألين أسلوب . وأخفِّ كلام . فنحن نعلم أن أمير المؤمنين لا يتمادَى على هذا الرأى فينا بل سيرجع بالعذر علينا ، على أنه لو صحَّ ما قلته على لسانه لبطل جميعُ ما تمَّ على يدنا من العقود والأحكام فى مدة خلافته ، فلا عقدُ حربٍ ولا سلم ولا وقفٍ ولا عتق ولا بيع ولا شراء مما جرى بشهادتنا وحكمنا .

ثم نَهَضَ وتبعه رفاقه . فوجه الخليفةُ من ردَّهم اليه ، فأكرمهم واعتذر لهم ، وخلع عليهم .

وكان فى قرطبة لذاك العهد فقيهٌ داهيةٌ اسمه (ابنُ لُبابة) كان فى مجلس الشورى فعزل منه . فأرسل إلى الخليفة يقول : لو لم أكن معزولا لأفتيت سيدنا الخليفة بجواز الاستبدال .

فردّه الخليفة إلى الشورى ثم عاد فاستأنف طلب استبدال أرض الوقف من الفقهاء . فردّوا طلبه كالأول . فاستفتى (ابن لبابة) فأجابه : إن قول مالك فى المسألة هو ما قاله الفقهاء من أهل المغرب ، أما العراقيون من فقهاء المشرق فهم لا يجوزون الوقف أصلا . وإذ قد دَعَتْ الحاجة أميرَ المؤمنين إلى استبدال أرضه فأنا أفتيه بذلك مقلِّداً العراقيين .

فاعترض الفقهاء عليه آسفين من تركه مذهب مالك . وهو مذهب البلاد وأبنائها ، والخليفة وآبائه فاحتج عليهم (ابن لبابة) قائلا :

ـ أسألكم فاصدقونى : ألم تنزل بأحدكم نازلةٌ اضطرته إلى تقليد إمام غير إمامه مالك ؟

فقالوا : بلى . فقال لهم فامير المؤمنين أولى أن تفتوه بتقليد غير مذهبه كما فعلتم . فسكتوا .

عندها عمل الخليفة بفتوى (ابن لبابة) وعوض الوقف أملاكا تزيد قيمتها أضعافاً .

أما الخديو (عباس) فهل وُفِّق إلى ما وُفِّق اليه (الناصر) فيقوم من فقهاء زمانه فقيهٌ يسارع فى هواه . ويفتيه بما يرضيه ؟ كلا .

أحب سمو الخديو عباس أن يستبدل أرضاً فى الجيزة . معدة للبناء . تابعة للأوقاف العمومية بزرعة من مزارعه الخاصة معروفة باسم (مشتهر) ، وأن تعطيه الأوقاف زيادة على أرضها ثلاثين ألف جنيه . وأن ذلك كله يكون فى مصلحة الوقف .

وقد عرض طلبه هذا على مجلس الأوقاف الأعلى . وكان فى هذا المجلس مفتى الديار المصرية أستاذنا الشيخ محمد عبده كما كان للخديو فى المجلس نائب عنه هو المرحوم (حسن باشا عاصم) .

فعارض المفتى فى هذا الاستبدال ما لم تعين لجنةٌ من أهل الخبرة يقدرون ثمن أرض الوقف ، وثمن المزرعة الخديوية ، ليعرف ما إذا كان هذا الاستبدال فى مصلحة الوقف أولا ؟

وبعد أيام قدمت اللجنة إلى المجلس تقريراً

مكتبتنا العربية

القصة الموحشة

للاستاذ محمد فريد أبو حديد بك

المدير العام لمعاهد المعلمين والمعلمات

« ستذهب إلى هذا الرجل يا سليمان بن مخلد ، وستجلس اليه خالياً أو مع غيرك من أهل هذه الدولة ، وستسمع منه وتقضى اليه بما تراه من رأيك ، فاعلم يا سليمان أنك لن تستطيع أن تدرك غوره وإن خيل اليك أنك تفعل » .

كانت خلاصته : إن أرض الوقف تفضل مزرعة سمو الخديو بعشرين ألف جنيه .

وبهذا التقرير خسر الخديو خمسين ألف جنيه : الثلاثين ألفاً التى كان يتوقع الحصول عليها من الزيادة ، والعشرين ألفاً التى أوجب عليه الخبراء تأديتها لجهة الوقف .

فأحفظ هذا الصنيع قلب سموه على المفتى فجعل من يومئذ يتربص به الدوائر .

وكان لهذه الحادثة أثرها الجميل فى نفوس المصريين . وقد هنأوا المفتى والباشا على هذا الموقف الذى دل على تجردهما وكبر نفوسهما . ومبلغ ثباتهما فى خدمة الحق ، وصيانة العدل .

هذان نموذجان من العلم الذى سميناه (علم الملوك) فيهما تسلية وفكاهة ، وفيهما علم وفقه ، وفيهما تاريخ وخبر ، وفيهما عظات وعبر لمن اتعظ واعتبر .

[دمشق] المغربى

هكذا كان عبدالملك بن حميد يتحدث إلى سليمان ابن مخلد أبو أيوب الموريانى عندما أراد أن يقدمه لأبى جعفر المنصور أمير المؤمنين العباسى .

وكان أبو أيوب شابا حسن الهيئة تلوح عليه الوداعة ويلمع الذكاء فى شعاع نظراته إذا رفع عينيه من إغضائهما . وأجلب الفتى قائلا :

ـ سأكون يا سيدى عندما تحب ، وسترضى عن اختيارك إياى ، وسأحفظ لك هذا الصنيع ما دمت حيا .

فقال الشيخ وكان فى صوته ما ينم عن الحزن :

ـ لست أدرى يا ولدى إن كنت تعرف هذا الرجل وما تكلفك مصاحبته من المشقة . وقد كنت أحاول جهدى أن أستميل قلبه وأبلغ عنده ما أحب ولكنها الشيخوخة يا ولدى . الشيخوخة والمرض وضيق الصدر تجمع على فلا أملك نفسى ولا يُطيعنى لفظى حتى عرفت أننى ثقلت عليه وتبينت أنه يريد أن يستبدل بى غيرى .

وها أنذا أسبقه فاختارك لتكون عنده بدلا منى حتى لا يختار له كاتباً آخر يهدم علينا كل ما بنيناه ويفسد كل ما ترفقنا فى إصلاحه . ولست أحب أن أخيفك أو أن أخلع قلبك قبل أن تبدأ عملك ، ولكنى لا أجد بدا من أن أفتح عينيك وأجلو بصيرتك لعل الله يكتب لك التوفيق معه .

مكتبتنا العربية

القصة الموحشة

للاستاذ محمد فريد أبو حديد بك

المدير العام لمعاهد المعلمين والمعلمات

« ستذهب إلى هذا الرجل يا سليمان بن مخلد ، وستجلس اليه خالياً أو مع غيرك من أهل هذه الدولة ، وستسمع منه وتقضى اليه بما تراه من رأيك ، فاعلم يا سليمان أنك لن تستطيع أن تدرك غوره وإن خيل اليك أنك تفعل » .

كانت خلاصته : إن أرض الوقف تفضل مزرعة سمو الخديو بعشرين ألف جنيه .

وبهذا التقرير خسر الخديو خمسين ألف جنيه : الثلاثين ألفاً التى كان يتوقع الحصول عليها من الزيادة ، والعشرين ألفاً التى أوجب عليه الخبراء تأديتها لجهة الوقف .

فأحفظ هذا الصنيع قلب سموه على المفتى فجعل من يومئذ يتربص به الدوائر .

وكان لهذه الحادثة أثرها الجميل فى نفوس المصريين . وقد هنأوا المفتى والباشا على هذا الموقف الذى دل على تجردهما وكبر نفوسهما . ومبلغ ثباتهما فى خدمة الحق ، وصيانة العدل .

هذان نموذجان من العلم الذى سميناه (علم الملوك) فيهما تسلية وفكاهة ، وفيهما علم وفقه ، وفيهما تاريخ وخبر ، وفيهما عظات وعبر لمن اتعظ واعتبر .

[دمشق] المغربى

هكذا كان عبدالملك بن حميد يتحدث إلى سليمان ابن مخلد أبو أيوب الموريانى عندما أراد أن يقدمه لأبى جعفر المنصور أمير المؤمنين العباسى .

وكان أبو أيوب شابا حسن الهيئة تلوح عليه الوداعة ويلمع الذكاء فى شعاع نظراته إذا رفع عينيه من إغضائهما . وأجلب الفتى قائلا :

ـ سأكون يا سيدى عندما تحب ، وسترضى عن اختيارك إياى ، وسأحفظ لك هذا الصنيع ما دمت حيا .

فقال الشيخ وكان فى صوته ما ينم عن الحزن :

ـ لست أدرى يا ولدى إن كنت تعرف هذا الرجل وما تكلفك مصاحبته من المشقة . وقد كنت أحاول جهدى أن أستميل قلبه وأبلغ عنده ما أحب ولكنها الشيخوخة يا ولدى . الشيخوخة والمرض وضيق الصدر تجمع على فلا أملك نفسى ولا يُطيعنى لفظى حتى عرفت أننى ثقلت عليه وتبينت أنه يريد أن يستبدل بى غيرى .

وها أنذا أسبقه فاختارك لتكون عنده بدلا منى حتى لا يختار له كاتباً آخر يهدم علينا كل ما بنيناه ويفسد كل ما ترفقنا فى إصلاحه . ولست أحب أن أخيفك أو أن أخلع قلبك قبل أن تبدأ عملك ، ولكنى لا أجد بدا من أن أفتح عينيك وأجلو بصيرتك لعل الله يكتب لك التوفيق معه .

مكتبتنا العربية

فقال الشاب هادئا :

- بارك الله عليك يا سيدى فقد عرفت مقدار برك بى وحدبك على ، وليست هذه أول مرة تغمرنى بفضلك وبرك . ولكنى أحسب أننى أعرف الرجل ولا أجد فى نفسى قلقاً من التقرب اليه .

فقال الشيخ فى فتور :

- تحسب أنك تعرفه ؟

فقال أبو أيوب : بل أعرفه حقاً يا سيدى . أعرف أنه لا يشبه إذا حلق فى الفضاء وانقض على فريسته وأعرفه كالذئب ينام بإحدى مقلتيه ويسهر بالأخرى . وأعرفه كسنان الرمح لا يلين فى طعنته . عرفت فيه هذا وغير هذا ولكنى لا أجد فى نفسى قلقاً من التقرب اليه .

فقال الشيخ باسماً :

- أمروض سباع يا أبا أيوب ؟

فقال الشاب باسماً كذلك :

- ولم لا أكون يا سيدى ؟ أنت تعلم أننى من أول من دخلوا فى دعوة هذه الدولة وأننى بايعت آل محمد وكنت من المقربين إلى أبى سلمة الخلال . ولست بعيداً عن قلب الرجل فقد كانت لى عليه يد لا ينساها . فصاح الشيخ عبد الملك .

- لك عليه يد ؟ .

فقال سليمان بن مخلد : إذا شئت أن تسميها يدا . كنت كما تعلم كاتباً لسليمان بن حبيب وهو عامل لمروان بن محمد على الاهواز فأتى حراسه برجل : قالوا عنه إنه أبو جعفر عبد الله بن محمد العباسى . فما وقعت عينى عليه حتى عرفت أنه سيكون صاحب هذه الدولة الجديدة إذا لم يحل الموت دونه . وجعل سليمان يعنفه ويطالبه بما معه من الأموال ويتهمه بأنه اختان الدولة وسلب رعيتها ودعا بالسياط فضربه أربعين سوطاً . ولكن الرجل كان كما قلت فى وصفه أصلب من سنان الرمح فلم يستطع سليمان ابن حبيب أن ينال منه شيئاً . فالفيت بنفسى عليه وحميته بظهرى واخذت أجادل بن حبيب وأخوفه من دولة بنى العباس المقبلة وأشعره باليأس من دولة بنى أمية حتى رضى أن يضعه فى السجن ويعدل عن تعذيبه .

فلما سكن الليل حركت الجنود المضرية فاقتحموا عليه سجنه وأطلقوه فأصبح يسير آمناً على طريق البصرة . ألم تكن هذه يدا لى عنده ؟

فقال عبد الملك فى اهتمام :

- إذن فالرجل يعرفك يا ولدى . لقد نبهتنى إلى شىء لم أفطن إليه قبل هذا . اذكر الآن أنه كان يتجه بى إلى جهتك فى حديثه حتى إذا ما نطقت باسمك وثب إليه وثوبا . ألا ترى أنه رجل لا يسبر غوره ؟ حتى أنا لم استطع أن أسبر غوره .

ثم قام وأمسك بيد الفتى وتلفت حوله كأنه يخشى أن يكون أحد فى ركن من أركان الحجرة فيسمع من قوله حرفا . ثم قال هامساً .

- تذكر ياسليمان بن مخلد أننا نخاطر بحياة أمة بأسرها ، ماضيها وحاضرها ومستقبلهـــا . تذكر ما ذاقه قومنا الفرس منذ مائة عام حتى لاحت لنا هذه البارقة من آل محمد . فهؤلاء هم يبذلون لنا الوعود ويظهرون لنا المودة ويعتمدون

مكتبتنا العربية

علينا ويجعلون ثقتهم فى ولائنا ، وإذا لم يفسد علينا هذا الأمر كان من اليسير علينا أن نستعيد فى دولتهم مجد أمتنا . ولكن آمالنا كلها معلقة على شعرة . أتفهم قولى ؟

وكان الفتى يستمع إليه فى لهفة وقلبه يخفق سعيداً بأن عبد الملك بن حميد يتحدث إليه ويثق فيه ويفضى إليه بمكنون أسراره ، وقال فى صوت متهدج :

أظننى أفهم طرفا مما تقول ياسيدى ، ولكنى لا أفهم كيف تتعلق الآمال بشعرة .

فقال الشيخ مرتاحا :

أحسنت فى سؤالك وهذه بشرى تنبىء بأنك جاد فى نيتك . أقول إن آمالنا معلقة على شعرة لأن أبا جعفر مثل أخيه الذى سبقه ـ أبى العباس عبد الله بن محمد ومثل سائر بنى هاشم ليسوا سوى عرب خلّص . وإذا كان غيظهم من بنى أمية يجعلهم يلجأون إلينا ويستندون على نصرتنا ، فإنهم لن يلبثوا أن ينقضوا عهدنا إذا أحسوا منا خوفا .

ورفع الفتى رأسه فى شىء يشبه الذعر فتلاقت عيناهما فى صمت ، ومضى الشيخ قائلا :

فليكن كل همك ألا تقطع هذه الشعرة ياولدى ، بل اجعل همك أن تقويها وتعززها حتى تصير سبباً متيناً يصل بين هذه الدولة وبين أمتنا . هلم نذهب إلى أمير المؤمنين يا ولدى فإنه ينتظرنا ولا ينبغى أن يرانا أحد نطيل حديثنا ، سوف ألقاك فى مجلس الخليفة بين حين وآخر ؛ ولكنى سأعرض عنك ولا أظهر لك ارتياحا ، ولتكن مراسلتنا سرا ورمزا . وسأختار لك الأمين الذى يحمل رسائلنا ، هلم بنا إلى القصر لندرك وقت الصلاة فنصلى العشاء وراءه جماعة .

وخرج الشيخ مع صاحبه فركبا إلى قصر أمير المؤمنين أبى جعفر فى مدينة الكوفة . وهكذا اتصل أبو أيوب أول مرة بالخليفة العباسى الصارم فى أول حكمه عند ما كان لا يزال يبنى قواعد ملكه .

وكان أبو أيوب ظريفاً لبقا حلو الحديث كأنه خلق ليكون صاحبا للملك . كان خبيراً بالكيمياء والطب ، حاذقا فى الحساب ، أديبا بارعا فى اللغة ، وكان فوق هذا عالما بالنجوم يتحدث إليها ويستطلع أخبارها ، قديراً فى السحر حتى قالت العامة إنه اتخذ لنفسه دهنا يمسح به وجهه كلما دخل على الخليفة فإذا هو أسلس الناس له قيادا .

وما أسرع ما صار سليمان بن مخلد سيد رجال الدولة وأقرب أولياء الخليفة حتى كان أبو جعفر يقول لأمرائه إذا أعدت له مجلساً أنيقاً ، إنه لا يجد فى ذلك المجلس متعة إلا إذا شاركه فيه كاتبه أبو أيوب الموريانى .

وهل يستطيع الإنسان أن يكون سوى إنسان ؟ كان قلب أبى أيوب عند ما دخل على الخليفة أول مرة يحس أنه يحمل معه أمل أمه . كان كما قال له عبد الملك يعرف أن ذلك الأمل معلق على شعرة ، وأن عليه أن يقويها ويحميها ويعززها ، ولكنه بلغ من المجد ما لم يبلغه أحد من رجال الدولة ، ونال من بر الخليفة وثقته ما لم ينله كاتب ولا وزير فى دولته . ووجد نفسه آخر الأمر يعتلى ذروة شاهقة لم يستطع أحد أن

مكتبتنا العربية

يطمح إليها ، ولم يجرؤ وزير قبله أن يرق إليها . أصبح هو العين التى يرى الخليفة بها ، والأذن التى يسمع بها واليد التى يحركها إذا أراد بطشاً . ومنذ بلغ تلك القمة نسى كل شىء إلا أن يحتفظ بمكانته السامية فوقها .

صار كل همه أن يحمى نفسه من المنافسين الذين يخشاهم على نفسه ، وأن يحتفظ بثقة سيده الذى أعطاه ما لم يعطه ملك لأحد من رعيته . وبدأ يشعر بالقلق والخوف ويمتلىء بالهم والرهبة . كان يحس فى أعماق حسه المرهف أنه لن يتحرك من ذروته الشاهقة إلا لكى يهوى إلى هوة عميقة . كان ينظر حوله من فوق تلك الذروة التى يتسنمها ، فلا يرى إلا خلاء موحشاً ليس فيه أنيس ولا صديق ، ثم يلقى بنظرة إلى أسفله فلا يرى سوى غور مظلم بعيد . كان لا يحس فى قلبه سلاماً ، ولا يعرف اطمئناناً ، بل كان فى مجده شقياً وفى سلطانه العظيم مضطرباً خائفاً . كان مثل الأرى الذى تحوى خزائنه الكنوز العظيمة ، ويقضى أيامه ولياليه فى حراستها دائم القلق والنصب .

ومع ذلك فإنه لم يستطع أن يدفع عن نفسه إرادة القضاء فنفذت إليه المقادير من حيث كان يريد أن يزداد أمناً على مكانته ، وهكذا نحن معاشر الأحياء نتجه إلى مصائرنا كأن عيوننا مغلقة ، وإن خيل إلينا أننا نبصر ، ونقاد إلى أقدارنا وإن حسبنا أننا نمسك بأعنتها .

كان أبو جعفر قد نقل عاصمته إلى بغداد الجديدة ـ بغداد الصغيرة التى بدأت مثل عدد ضئيل لا يستطيع أحد ممن دخلوا إليها أول مرة يتصور أنها ستبلغ من السعة والعظمة ما بلغته من بعد . كانت عند ذلك لا تزيد على حصن يشبه الدائرة يحيط به نطاقان من الأسوار وفى قلبه قصر أمير المؤمنين مثل النواة فى التمرة .

وأما أمير المؤمنين المنصور فمقامه فى حجرة تكاد تكون عارية ، ليس فيها شىء ما يدل على أبهة الملك أو براعة الفن . وكان يخلو هناك إلى نفسه وإلى هموم دولته الفسيحة كأنما هو أحد السباع الحانقة يتربص فى مكمنه ويجيل بصره فيما حوله ولا يشم إلا رائحة الدماء . لم يجلس هناك يوم فى لهو أو طرب ولم يعبأ فيه بسمر أو نجوى صديق . كان ينتظر هناك صاحب البريد الذى يحمل أنباء الثورات أو صاحب الشرطة يحمل إليه رقاع الجواسيس الذين يبلغونه الهمسات الخافتة .

وهناك أتى إليه يوما فتى يريد أن يفضى إليه بنصيحة وأبى الأدلاء بها إلى أحد غير الخليفة . بل إنه أبى أن يقضى بها إليه إلا إذا خلا المجلس من كل من كان هناك من خاصة رجال الدولة فلما صار وحده مع أبى جعفر رفع إليه عينيه فوجده ينظر إليه كما ينظر السبع الحانق إلى فريسته . وثارت فى قلب الفتى دعوة كما ثارت فى قلب الخليفة شكوك كثيرة . فماذا يريد ذلك الفتى الذى لم تقع عينه عليه من قبل ؟ أهو أحد البائسين جاء إليه يتعلل بتلك النصيحة ليحاول أن يفتك به ؟ ولكن وجهه كان لا ينم على شىء من الشر أو الغدر ، فهو وسيم وديع فيه شبه عجيب بصورة

مكتبتنا العربية

مألوفة . فمن يكون ؟ وما تكون تلك الصورة المألوفة التى تشبه الطيف فى الحلم البعيد ؟ وجعل أبو جعفر يتأمل نظرة الفتى وجبينه وأنفه ولونه الأسمر وقامته الفارعة المتينة .

كانت نظرته إلى الخليفة تشبه نظرة كلب أليف فيها جرأة وفيها مودة وفيها انكسار وخشوع . فاطمأن أبو جعفر وأطال النظر إلى مودة الفتى مرتاحا كأنه يسبح فى حلم غامض بعيد العهد وقال فى نفسه : « لا ليس مثل هذا من يضمر الغدر بى » .

وقال للفتى :

ـ هات ما عندك يا فتى . من أنت أولا ؟ .

فقال الشاب فى صوت خافت به هزة مكبوتة :

ـ أنا ابنك يا أمير المؤمنين .

فقال المنصور فى صرخة : ابنى !

فأجابه الشاب : نعم أنا ابنك وهذه علامتى .

وأخرج من جيبه قميصاً وخاتما وقال :

ـ هذه علامتى .

فاستلق المنصور على ظهر وسادته كأنه كان مشدوداً إلى وثاق ثم انفك منه فجأة . وغاب لحظة طويلة فى ذكريات قديمة هجمت عليه كما تهجم الأمواج على الشاطىء الصخرى فى ساعة المد . إنه يعرف هذا القميص حقاً وهذا هو الخاتم الذى أعطاه لزوجته الأهوازية عندما كان يضطرب فى الأرض وحيداً طريداً حانقاً يتخفى فى بيوت أصحابه ويخشى أن تمتد إليه أيدى أعدائه . حقا هذا هو الخاتم الذى خلفه عند امرأته الحسناء ابنة دهقان الأهواز . لقد أنسته الحوادث الجليلة تلك الزوجة المسكينة التى سكن إليها أشهراً قليلة ثم أزعج عنها فغادرها وذهب فى الأرض ليستأنف اضطرابه ، ويمهد لدولة بنى العباس بالعرق والدماء والأشلاء . وتذكر يوم ودعها وهى تتمسك به باكية وتذكره بالجنين الذى يجاور كبدها . مسكينة تلك الزوجة البعيدة ، فماذا كان اسمها ؟ لقد نسى اسمها كما نسى الجنين الذى خلفه عندها ، وها هو ذا يرى ابنها أمامه شابا فيه ذلك الشبه العجيب من الصورة الغامضة التى لاحت له كأنها شبح فى حلم بعيد العهد . وقام فاعتنق الفتى وأسال من دمعه على كتفيه واختفى المنصور العارم المخيف ولم يبق منه إلا الوالد الذى يهزه الحنين .

وكان بينهما حديث طويل أحس فيه الرجل الذى قضى حياته فى الصراع والجلاد بأنه عاد شابا طريداً يتوجس خيفة من أنظار الأعداء . ألا ما أعجب هذه المقادير فى تصاريفها ، وما أضعف القلب البشرى فى نسيانه ! كان عند ذلك لا يملك شيئاً من دنياه ولا يأمن شيئاً على نفسه ؛ وها هو ذا قد أصبح سيد الدنيا ويملأ الآفاق بهيبة سلطانه ؛ ومع ذلك فهو ما يزال مضطربا لا يأمن على نفسه شيئاً . أهى سخرية القضاء أن يهب له كل ما كان يطمح اليه ثم يدعه آخر الأمر دائم الطموح والقلق كأنه لم يقبض إلا على خيال .

ودعا صاحبه أبا أيوب الموريانى بعد أن قضى حيناً فى حديث مع ولده وكان قلبه ما زال يشتعل حنيناً وقلقاً . فماذا يقول لوزيره وماذا يقول للناس ؟ أيأمن أن يجهر قائلا ها هو ذاك ابنى ؟

مكتبتنا العربية

وماذا يقول ابنه محمد المهدى الغيور الذى كان أشد حرصاً على ولاية عهده من أبيه على ملكه ؟ إنه لو جهر بهذه الحقيقة لأدخل على الدولة سبباً جديداً للفتنة وفتح للناس باباً جديداً من الأحاديث ، ومن يدرى ؟ من يدرى ماذا يكون وراء هذه الأحاديث وتلك الفتنة ؟

وأوصى الفتى قائلا :

ـ لا يسمع أحد منك لفظاً مما قلت لى يا ولدى . ولا يجتمع بك أحد من الناس إلا أن يكون فى حضرتى وأما هذا الذى بعثت اليه ، هذا الوزير أبو أيوب الموريانى ، فإنه رجل أهوازى مثلك ، وسنقيم عنده فى بيته حتى أدبر لك من بعد هذا أمرا . ولكن السر الذى بيننا لا ينبغى له ولا لغيره أن يعرف منه حرفا . أتعدنى ؟

فقال الفتى : اسمع وأطيع يا أبى .

ووقعت نغمة صوته فى أذن أبى جعفر كأنما هو يسمع نفسه .

وقال المنصور لوزيره عند ما أقبل عليه :

اجعل هذا الفتى فى بيتك واصنع له ما كنت تصنع لولدى لو بعثت به إليك ، وله أن يزورنى متى شاء فلا حجاب لأحد عليه ؛ ولكن لا يقترب منه أحد غيرى .

وخرج أبو أيوب مع الفتى من القصر خفية حتى بلغ داره . وكان فى طريقه صامتاً دهشاً لا يدرى أى سر جديد ذلك الذى طرأ على الخليفة بغتة . من هذا الفتى ؟ ولم يبعثه المنصور إلى بيته ليقيم معه ؟ وما الذى يحمله على كل ذلك التستر ، وعلى كل هذه التوصية ؟ ثم من هو حتى يذهب إلى القصر متى شاء فلا يحجب عنه ولا يؤذن لأحد أن يراه أو يقترب منه غيره ؟

ومنذ حل الفتى فى بيت أبى أيوب لم يهدأ له بال فى ليل ولا فى نهار ، فكان فى كل يوم يصابحه ويماسيه لغزاً غامضاً مستعصيا .

كان الفتى لا ينبس بكلمة كأنما هو باب مغلق ينطوى على سر عميق ، باب نهاه أمير المؤمنين أن يعرف ما وراءه . إنها القصة القديمة — لا تدخل من هذا الباب فيتحرق القلب شوقا إلى الدخول ، ولا تأكل يا آدم من هذه الشجرة فيخاطر آدم بالخروج من الجنة ويأكل من الشجرة.

وهكذا أحس أبو أيوب . أحس كأنه وهو واقف على قمته العالية ومن حوله الفضاء الموحش ومن تحته الهوة العميقة ، يرى شبحا غامضا يقبل عليه فيزاحمه ولا يدرى من أين أتى . فماذا يبغى المنصور من وراء إقامة ذلك الفتى عنده ؟ أيضمر له كيدا كما أضمر من قبل لأبى مسلم وغير أبى مسلم من أوليائه الذين أقاموا له دولته ؟ أم هو يطمع فى أمواله كما كان يطمع فى أموال غيره من العمال الذين يرفع إليه جواسيسه أنهم يخفون كنوزهم العظيمة حيث لا يطلع أحد عليها؟

إن أعداءه كثيرون يتربصون به الدوائر ويحاولون فى كل يوم أن يدفعوه عن القمة التى يعتليها ، ولكنه يدفعهم عنها ويلقى بهم إلى الهاوية العميقة التى تحف بها . فهل ذلك الفتى أحد هؤلاء ؟ وحاول مرة بعد مرة أن يعرف من الفتى أو يكشف عما يكون بينه وبين أمير المؤمنين

مكتبتنا العربية

إذ خلا إليه ، ولكن الفتى كان لا يبيح له أن يتدسس إلى شيء من أسراره .

وهكذا نسى أبو أيوب كل شيء إلا الخطر الذى يلوح له من جانب الفتى الصامت الذى لا يريد أن ينطق له بكلمة . نسى كل شيء إلا نفسه والقمة العالية التى يقف عليها وحده والهوة العميقة التى تحت قدميه .

وقضى ليلة مسهدة طويلة يفكر فى أمر المنصور وذلك الشاب الغريب الذى كان يذهب إليه كل ليلة فيخلو معه ساعة طويلة ثم يعود إليه متستراً بالظلام ولا يقول له فيم كانا يتناجيان . فماذا عليه لو دفع ذلك الشاب المجهول عن قمته التى جاء يزاحمه فيها ، ثم يبتدع عذراً يحتال فيه بحكمته كما ابتدع من قبل أعذاراً كثيرة فيمن تخلص منهم من المنافسين .

وكان أبو أيوب بارعا فى الطب والكيمياء كما كان بارعا فى حساب النجوم . وها هى ذى النجوم تبسم له قائلة « أقدم ولا تتردد » .

وأعد فى أكوابه وبواتقه جرعة لا يفيق من يتجرعها ، ثم أعد معها طعاما من طرف مختارة ، وفواكه ممتازة ، وحلوى شهية ، فى ليلة من ليالى الخريف الساجية . فلما عاد الشاب من مجلسه فى القصر وقف له يخدمه بنفسه وفاء بوصية أمير المؤمنين ، ثم تركه وذهب إلى مخدعه ينتظر الصباح فى لهفة . فلما طلع الصباح ذهب إلى الفتى على عادته ليقوم على خدمته فوجده على الأرض ميتا ووجهه المقلص يدل على ما قاساه من الآلام المبرحة .

وما هى إلا ساعة قصيرة حتى ضجت الدار بالفزع والحزن وانطلقت أصوات الفجيعة من النساء والجوارى يندبن الفتى النبيل الذى وافاه الأجل كما يوافى الناس فجأة .

وذهب أبو أيوب مسرعا إلى الخليفة ليحمل إليه النبأ الفظيع وكانت عيناه تدمعان وصوته يضطرب وهو يروى قصة المفاجأة القاسية . بات الفتى أتم ما يكون شبابا وصحة ثم طلع عليه الأجل فى الصباح كما يقتل الصقيع الزهرة واطرق حزينا ويداه على صدره خشوعا ، وكانت تلوح له من وراء غشاء الدمع صورة الفتى وهو يزاحمه على القمة العالية يريد أن يدفعه إلى الهوة التى تحتها . وكاد يصرخ عندما خيل إليه أن شبح الفتى يريد أن يتمسك به لكى يتردیا فى الهاوية معا :

وسمع المنصور وهو يقول له فى صوت أجش كأنه حشرجة قتيل : « أمات حقا فجأة ؟ »

ونظر إليه أبو أيوب فلم يقو على أن يلقى نظرة عينيه الصارمتين التى تشبه نظرة الفهد الغاضب ، فأغضى مرغما وخرج موليا غير متمالك من الخوف ، كأن الفهد يثب من ورائه يريد أن ينشب فيه أنيابه .

وقضى أبو أيوب الليلة فى سجن القصر مسهداً كما قضى الليلة السابقة فى داره مسهداً . ثم دخل عليه الموكلون بالعذاب ليستقصوا منه أمواله قبل أن يقذفوا به إلى الهاوية المظلمة التى تحف بالقمة التى كان واقفاً عليها ـ القمة الموحشة ؟

محمد فريد أبو حديد

مكتبتنا العربية

في التاريخ والاجتماع

المساواة في الإسلام

للدكتور علي عبد الواحد وافي بك

لم يصل أي تشريع سماوي أو وضعي في مبلغ الحرص على مبدأ المساواة إلى ما وصل إليه الإسلام، فقد قرر الإسلام مساواة الناس أمام القانون ومساواتهم في الحقوق العامة السياسية وغيرها، وقرر ألا تفاضل بينهم إلا على أساس أعمالهم وكفاياتهم وما يقدمه كل منهم لربه ونفسه ووطنه والمجتمع الإنساني. فقضى بذلك على نظام الطوائف وأساليب التفرقة بين الطبقات في الحقوق والواجبات. وفي ذلك يقول الله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، ويقول عليه السلام في خطبة الوداع التي جعلها دستوراً للمسلمين من بعده وجمع فيها أسس الدين الإسلامي: «أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أبيض، ولا لأبيض على أحمر؛ فضل إلا بالتقوى. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد! ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب»، ويقول عمر رضي الله عنه في وصيته لسعد بن أبي وقاص: «إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته؛ فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء»، ويقول في وصيته للخليفة من بعده: «اجعل الناس عندك سواء، لا تبال على من وجب الحق ثم لا تأخذك في الله لومة لائم، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله».

ولم يكن الأمر مقصوراً على وضع قواعد وتقرير مبادىء، بل إن التاريخ ليثبتنا أن هذه المبادىء كانت منفذة بحذافيرها أدق تنفيذ في عهد الرسول عليه السلام وفي عهد الخلفاء الراشدين من بعده، أي في أثناء هذه المرحلة الذهبية التي تمثل مبادىء الإسلام أصدق تمثيل. فقد جاء مرة أسامة بن زيد إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في امرأة وجب عليها حد السرقة، فانتهره عليه السلام وقال مغضباً: «أتشفع في حد من حدود الله؟ والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وتقاول مرة أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي عليه السلام، فاحتد أبو ذر على العبد وقال له: «يا ابن السوداء»،

مكتبتنا العربية

فغضب النبي عليه السلام وقال : « طف الصاع ، طف الصاع ! ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح ، فوضع أبو ذر خده على الأرض ، وقال للأسود : « قم فطأ على خدى »

وشكا يهودى على بن أبى طالب إلى عمر بن الخطاب فى خلافته ، فلما مثلا بين يدى عمر ، نظر عمر إلى على وقال له : « اجلس يا أبا الحسن » فظهرت آثار الغضب على وجه على . فقال له عمر ما معناه : « أكرهت أن يكون خصمك يهودياً وأن تمثل وإياه أمام القضاء » . فقال على : « لا ! ولكننى غضبت لأنك لم تسوِّ بينى وبينه إذ خاطبتنى بكنيتى ، فقلت يا أبا الحسن » (والخطاب بالكنية كان عندهم أسلوبا من أساليب التعظيم) وحدث مرة أن ولداً لعمرو ابن العاص ضرب رجلا من دهماء القوم من المصريين ظلما فى عهد ولاية أبيه على مصر ، فأقسم المجنى عليه ليشكونه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . فقال له ما معناه : اذهب فلن ينالنى ضرر من شكواك فأنا ابن الأكرمين ، فبينما كان الخليفة مع خاصته وعمرو بن العاص وابنه معهم فى موسم الحج قدم هذا الرجل عليهم وقال مخاطباً عمر : « يا أمير المؤمنين إن هذا - وأشار إلى ابن عمرو - ضربنى ظلما ، وقال اذهب فأنا ابن الأكرمين » فنظر عمر إلى عمرو وقال له . « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ثم توجه إلى الشاكى وناوله درته ، وقال له « اضرب بها ابن الأكرمين كما ضربك »

وحدث مرة أن عمر بن الخطاب فى أيام خلافته رأى رجلا وامرأة على فاحشة ، فجمع الناس وقام فيهم خطيبا ، وقال : « ما قولكم أيها الناس لو رأى أمير المؤمنين رجلا وامرأة على فاحشة » فقام على وأجابه بقوله : « يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهداء أو يجلد حد القذف ، شأنه فى ذلك شأن سائر المسلمين » . فسكت عمر ولم يعين شخصى المجرمين .

ولم يكتف الإسلام بتقرير المساواة بين الناس أمام القانون وفى الحقوق العامة السياسية وغيرها ، بل عمل كذلك على تقرير أكبر قدر ممكن منها فى الناحية الاقتصادية ، وعلى تقليل الفروق بين طبقات الناس وتقريبها بعضها من بعض ، وتحقيق الاشتراكية المعتدلة فى أحسن صورها ، واتخذ لذلك وسيلتين : إحداهما الميراث ؛ والأخرى فرض ضرائب على الأغنياء . والإنفاق منها على الفقراء وعلى مرافق الدولة .

أما نظام الميراث فى الإسلام فهو من أمثل النظم لتوزيع الثروات بين الناس . وذلك أنه يقسم التركة على عدد كبير من أقارب المتوفى ، فيوسع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ويحول من جهة أخرى دون تكدس ثروات كبيرة فى يد فئة محدودة من الناس ، فيفضل هذا النظام الحكيم لا تلبث الثروات الكبيرة التى يتفق تجمعها فى يد بعض الأفراد . أن تتوزع ملكيتها بعد بضعة أجيال على عدد كبير من الأنفس وتستحيل إلى ملكيات صغيرة .

وهذه هى أمثل طريقة لتقليل الفروق بين

مكتبتنا العربية

طبقات الناس وتقريبها بعضها من بعض وتحقيق الاشتراكية المعتدلة فى أحسن صورها. ولحرص الإسلام على الوصول إلى هذه الأغراض حظر على الشخص أن يوصى بشىء من ماله لأحد ورثته، فقال عليه السلام: «لا وصية لوارث»؛ وحظر عليه كذلك أن يوصى لغير ورثته بأكثر من ثلث ماله. فأين من هذا النظام الحكيم نظم أوروبا الحديثة التى ينقل بعضها جميع ثروة المتوفى أو معظمها إلى البكر من أولاده، ويدع بعضها المالك حرا فى أن يوصى بها لمن يشاء! فتجمعت من جراء ذلك ثروات ضخمة فى يد أفراد محدودين من الناس، وأثار هذا حفيظة الفقراء، وأورثهم الحقد على المجتمع ونظمه. فنشأت المذاهب المتطرفة الهدامة، واضطرب نظام الحياة الاقتصادية أيما اضطراب، وأدى هذا إلى معظم الانقلابات والثورات العنيفة التى تعرضت لها أوربا فى العصور الحديثة.

أما الوسيلة الثانية التى اتخذها الإسلام لتحقيق أكبر قدر ممكن من المساواة فى الحياة الاقتصادية، وهى فرض الضرائب على الأغنياء وصرف ما يجبى منها لسد حاجات الفقراء وللإنفاق على المرافق العامة، فقد طبقها الإسلام فى أوسع نطاق، فلم يغادر أية ناحية من نواحى الثروة إلا فرض عليها نوعاً من الضريبة الثابتة أو التصاعدية. ففرض الخراج على العقار، وفرض العشر أو نصف العشر على ما تنتجه الأرض، وفرض الزكاة على جميع مظاهر الثروة الأخرى؛ فرضها على عروض التجارة وما فى حكمها؛ وفرضها على الذهب والفضة وما فى حكمهما، وعلى الأنعام ومنتجاتها.

وبجانب هذه الضرائب المقررة أوجب الإسلام التصدق على الفقراء فى مناسبات كثيرة كعيد الفطر والحج؛ وجعل التصدق على المساكين أو إطعامهم أو كسوتهم كفارة لعدد كبير من الجرائم والخطايا التى يكثر حدوثها.

وفضلا عن الضرائب المقررة والصدقات التى تقدم للفقراء فى المناسبات السابق ذكرها، فقد حبب الإسلام إلى الأغنياء التصدق بفضل أموالهم على الفقراء، وجعل هذا من أكبر القربات وأعظمها أجراً. فقال تعالى يمدح المؤمنين: «وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم»، وقال: «يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون»؛ «إن تبدوا الصدقات فنعما هى، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير»؛ «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»؛ «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم»؛ «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون». «مثل الذين ينفقون أموالهم فى

مكتبتنا العربية

سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّاً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وأوجب الإسلام على أهل كل حى أن يعيش بعضهم مع بعض فى حالة تكافل وتعاضد ، يرق غنيهم لفقيرهم ، ويسد شبعانهم حاجة جائعهم . فأكثر عليه الصلاة والسلام من الإيصاء بالجار ، حتى قال : « ليس منا من بات شبعان وجاره جائع » . ويروى أن رجلا كان عند عبد الله بن عباس وغلام له يذبح شاة ، فقال ابن عباس : « يا غلام لا تنس جارنا اليهودى » ، ثم عاد فكررها ثانية وثالثة . فقال له الرجل : « كم تقول ذلك يا ابن عباس ؟! » ، فقال : « والله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما زال يوصينا بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » أى سيجعل له نصيباً مما نترك .

وقد قضى الإسلام على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة أمام القانون وفى الحقوق العامة ، فجعل المرأة مساوية للرجل فى هذه الشئون . فأباح لها التعلم بمختلف أنواعه ومراحله ، بل جعله فريضة عليها فى الحدود الضرورية لها فى شئون دينها ودنياها . فقال عليه السلام : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وأباح لها كذلك أن تضطلع بمختلف الوظائف التى يمكنها الاضطلاع بها ولا تتعارض مع واجباتها الأخرى ولا مع أوضاعها فى الأسرة والمجتمع .

وقد سوّى الإسلام بين الرجل والمرأة فى الحقوق المدنية والمالية ، فجعل للمرأة الحق فى أن تملك وتبيع وتشترى وتهب وتقبل الهبة وترهن وتوصى وتعقد باسمها العقود وتتصرف فى مالها بسائر وجوه التصرف ، بدون حاجة إلى إذن زوجها أو رضاه . وهذه المنزلة من المساواة لم يصل إلى مثلها بعد أحدث القوانين فى أرقى الأمم الديمقراطية الحديثة . فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت لا تزال إلى عهد قريب أشبه شىء بحالة الرق المدنى .

فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية ، كما تنص على ذلك المادة ٢١٧ من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن « المرأة المتزوجة - حتى ولو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها - لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية »[1] . ومع ما أدخل على هذه المادة بعد من قيود وتعديلات ، فإن كثيراً من آثارها لا يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر . وتوكيداً لهذا الرق المدنى المفروض على المرأة المتزوجة

(1) Art. 517. La femme, même non commune ou séparée de biens, ne peut donner, aliéner, hypothéquer, acquérir à titre gratuit ou anéreux, sans le concoars du mari dans l'acte, au son consentement par écrit.

مكتبتنا العربية

تقرر معظم قوانين الأمم الأوربية ، أو يقضى عرفها ، أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها ، فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان ، بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى « مدام فلان Madame un tel »، أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها . وفقدان الاسم رمز إلى فقدان الشخصية المدنية للمرأة واندماجها فى شخصية الزوج ، ومن الغريب أن كثيراً من المتفرنجات من سيداتنا يحاولن أن يتشبهن بالغربيات حتى فى هذا النظام الجائر ، ويرتضين لأنفسهن هذه المنزلة الوضيعة فتسمى الواحدة منهن نفسها « مدام فلان » أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته ، بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها كما هو النظام الإسلامى . وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه المحاكاة العمياء . وأغرب من هذا كله أن اللائى يحاكين هذه المحاكاة هن المطالبات بحقوق النساء ومساواتهن بالرجال .

وإذا كان الإسلام لم يسوّ بين الرجل والمرأة فى شئون الإشراف على البيت ومرافق الأسرة والوظائف العائلية والاجتماعية ، فخص كلا منهما بأمور حرم منها الآخر ، فقد كان ذلك لحكمة بالغة ، وهى مراعاة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له والعمل على صون المرأة من الابتذال . وفى هذا ضمان لصلاح المنزل والمجتمع وتحقيق لمبدأ توزيع العمل .

وإذا كان الإسلام لم يسوِّ بينهما فى الميراث ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، فما ذاك إلا لأن مسئولية الرجل فى الحياة من الناحية المادية وغيرها أوسع كثيراً فى الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة وهو المكلف بالإنفاق على جميع أفرادها . على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها . فنفقتها واجبة على أبيها أو ولى أمرها أو أقاربها ما دامت لم تتزوج أو فى غير عصمة زوج . ونفقتها واجبة على زوجها ما دامت فى عصمته لا فرق فى ذلك بين أن تكون فقيرة لا تستطيع الإنفاق أو غنية تستطيعه . ونفقتها واجبة على بيت المال إن لم يكن لها زوج ولا عائل ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون قادرة على العمل والكسب أو غير قادرة عليه ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على كاهله وأعفى منها المرأة ضمانا لسعادة الأسرة .

وإذا كان الإسلام لم يسوّ بينهما فى الشهادة فجعل شهادة المرأتين معادلة لشهادة رجل واحد ، فما ذاك إلا لأن ناحية العاطفة فى المرأة تطغى أحيانا على ناحية إدراكها وتمتزج بعناصره ، فتغير كثيراً من صور ما أدركته من حيث لا تشعر هى بذلك ، فاقتضت العدالة أن يتخذ شىء من الاحتياط حيال شهادتها . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى » . ؟

على عبد الواحد وافى

مكتبتنا العربية

الشيخ عبد الله الشرقاوى

للأستاذ محمود الخفيف
سكرتير تحرير مجلة الأزهر

واخشع ملياً وانض حق أئمة ... طلعوا به زهراً وما جوا أبحراً
من كل بحر فى الشريعة زاخر ... ويريكه الخلق العظيم غضنفراً
شوقى

ترى ماذا كانت تحدثه به نفسه حين قدم إلى الأزهر مجاوراً قبيل الثلث الأخير من القرن الثانى عشر للهجرة ؟ أكان يحس فى نفسه من الطموح ما يرجو معه أن يكون فى غده شيخ الشيوخ ؟

انتهت به رحلته الشاقة من بلدته « الطويلة » إلى الجامع العتيق ، وحل الفتى القادم من الشرقية بحى الأزهر ، كما يحل الآلاف غيره من المجاورين لا يكادون يعرفون من القاهرة إلا هذا الحى .

ولقد كانت القاهرة يومذاك موطنين ، يذكر الناس فى أحدهما اسم الله بكرة وعشيا وحين يغدون وحين يروحون ؛ ولا يكاد يذكر اسم الله فى الآخر ذاكر ... أما الأول فحيث يقوم الأزهر فى مدينة المعز ، وأما الثانى فحيث تقع بركة الأزبكية فى حى المماليك . وكانت تتحلق حول الأزهر مساكن المجاورين والعلماء ، عليها فى النهار سيما التخشع والاستحياء ، وتضيئها فى الليل كما تضيء المسجد مصابيح كابية ، ولكن من نورها نوراً ينفذ إلى أقطار الشرق . وكانت تدور بالبركة قصور البكوات والأمراء تتألق فى الضحى ، وتزخر بالجاه ونعيم الحياة ، وتتوهج مصابيحها فى الليل ولكنها لا تكاد تضيء ما حولها . والناس بين هذين الموطنين تجار وأصحاب حرف ، ليس لهم جلال العلماء ، ولا أبهة المماليك . فأكثرهم جهلاء مستضعفون .

وأقام المجاور الشرقاوى حيث يذكر اسم الله ، تقع عيناه كل يوم على العلماء يتحلق الطلاب حولهم . وأكبر الظن أن قصارى ما كان يمتد إليه أمله هو أن يغدو شيخاً كهؤلاء الشيوخ . ولو قد تكشفت حجب الغيب يومذاك لهذا الفتى الشرقاوى عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الذى ولد فى بلدة الطويلة فى حدود سنة خمسين ومائة وألف كما يقول الشيخ الجبرتى ، والذى حفظ القرآن فى قرية « القرين » ، لرأى أنه سوف يغدو فى قومه أول مصرى يجتمع فى شخصه طرفا المدينة ؛ فهو فى غده شيخ الأزهر وهو فى نفس الوقت رئيس الديوان الوطنى الذى سوف يعينه بونابرت ليعاون الحاكم الفرنسى فى حكم القاهرة !

* * *

بدت على الفتى الشرقاوى أمارات الذكاء

مكتبتنا العربية

والجد ، وأقبل على أشياخه وكتبه ، لا يلهيه عن العلم عبث ، ولا يفتنه عن الجد ما عسى أن يفتن الشباب من زينة الدنيا ! وأنى له اللهو والزينة وهو حتى لو لم يكن له من دينه وخلقه وازع ، لا يكاد يجد قوته إلا فى كثير من العسر ؟ وهل كان للأزهرى المجد إلا أن يُقبل على شيخه إذا انعقدت حلقته وأن يعكف على كتبه إذا انفضت الحلقة ؟

« سمع الكثير على الشهابين : الملوى والجوهرى والحفنى وأخيه يوسف والدمنهورى ، والبليدى ، وعطية الأجهورى ومحمد الفاسى وعلى المنسفيسى الشهير بالصعيدى وعمر الطحلاوى ؛ وسمع الموطأ فقط على على بن العربى الشهير بالسقاط ، هذا ما يذكره الشيخ الجبرتى عن بعض ما حصل معاصره وزميله الشرقاوى من العلم .

وأراد الشرقاوى السلوك فى طريق من الطرق الصوفية على عادة أكثر الشيوخ فى ذلك العهد ، يقول الجبرتى « ولما أراد السلوك فى طريق الخلوتية ولقنه الشيخ الحفنى الاسم الأول حصل له ولهٌ واختلال فى عقله ، ومكث بالماريستان أياما ثم شفى ولازم الإقراء والإفادة » .

ولكن ذلك لم يحل بينه وبين العلم ، وما لبث المجاور عبد الله بن حجازى أن أصبح عالما بين العلماء . ونُبه اسم الشرقاوى وذهب له صيت « ودرس الدروس بالجامع الأزهر وبمدرسة السنانية بالصنادقية وبرواق الجبرت والطيبرسية وأفتى فى مذهبه وتميز فى الإلقاء والتحرير » .

وظل الشيخ الشرقاوى مجداً يطلب المزيد من العلم ، كما ظل حريصا على إفادة من يتحلقون حوله من المجاورين . وما تزال حلقته تتسع سنة بعد سنة . وكان إذا فرغ من دروسه ومن العمل فى مؤلفاته انقلب إلى الشيخ محمود الكردى ، إذ كان شديد الحرص على المشاركة فى أذكاره فقد تلقن منه وواظب على مجالسته .

« وكان على حال من خشونة العيش وضيق ذات اليد فلا يطبخ فى داره إلا نادراً ، وبعض معارفه يواسونه ويرسلون إليه الصفحة من الطعام » .

ولكن خشونة العيش لا توهن عزيمته ولا تصرفه عن الدرس والتأليف فى الفقه والتصوف ، وكذلك لا تصرفه مشاغل العلم عن شيخه الكردى ، حتى اشتهر فى الناس صلاحه كما ارتفع بينهم ذكره ، وأخذ يقدِّم إليه بعض محبيه من المصريين والشاميين الصِّلات فخفت عليه خشونة العيش . ولما مات الشيخ الكردى كان الشرقاوى من جملة خلفائه وصار كثيرون من المجاورين الذين يتحلقون حوله فى النهار يطلبون العلم ، يدورون به فى الليل يذكرون الله .

هكذا عاش الشرقاوى حتى أواخر العقد السادس من عمره لا يكاد يخرج من مدينة المعز ، ولا شىء من صلة بينه وبين مدينة المماليك ، أو بينه وبين مصر كلها التى آل أمرها منذ سنة ١١٨٣ إلى على بك الكبير ثم إلى مماليكه من بعده : محمد أبى الذهب وإبراهيم ومراد . وماذا عسى أن يكون من صلة بين مواطن الحكم والسلطان ، وبين شيخ من شيوخ الأزهر ، يعكف

مكتبتنا العربية

على الدرس طيلة نهاره ، ويقوم ليله إلا قليلا يعبد الله ؟

* * *

فى سنة ١٢٠٨ مات الشيخ أحمد العروسى شيخ الأزهر ، وأشيع فى أهل الأزهر تارة أن المشيخة بعده للشيخ مصطفى الصاوى ، وأشيع تارة أخرى أنها للشيخ عبد الله الشرقاوى ، وما زالت الشائعات تختلف قوة وضعفا حتى جاء اليقين ، فإذا بالشرقاوى يغدو شيخاً للأزهر ، فزاد فى تكبير عمامته وتعظيمها حتى كان يضرب بعظمها المثل .

ولكن ما لبث أن اشتد الخلاف بين الصاوى والشرقاوى على أمر غير المشيخة وشايع كلا منهما فريق من الشيوخ . ولقد كانت للصاوى منزلة عظيمة عند العروسى وظلت له عند خلصائه . وكان ما تنازع عليه الشيخان درساً يؤدى بعد صلاة العصر بالمدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعى . وكان العرف أن يلقى هذا الدرس شيخ الأزهر . وكان لهذه الوظيفة معلوم ؛ وحدث أن تركها العروسى لشيخ ضرير نازعه عليها ، وكان يرى أنه أحق بالمشيخة منه ، هو الشيخ محمد المصيلحى . ولما مات المصيلحى أجلس فيها الصاوى ، وظل الصاوى يلقى الدرس بعد أن آلت المشيخة إلى الشرقاوى ؛ ولكن بعض أصحاب الشرقاوى ما زالوا يوسوسون له أن مشيخته لا تتم إلا بها حتى ركن إليهم . ثم إنه ذهب فى جمع منهم وألقى الدرس بدلا من الصاوى واستعان الصاوى بكتخدا إبراهيم بك الكبير ، وجمع له جمعاً من العلماء وذهبوا إلى الشرقاوى فى بيته فنزل عنها للصاوى بعد أن أشهد الجمع على أنها استحقاقه . ولم يرض الصاوى هذا الكلام فأغاظ له وعاب عليه انقياده لمن حوله .

ولقد توحى هذه الرواية بأن فى الشرقاوى ضعفاً . وبخاصة إذا زدنا عليها أنه حين آلت إليه بعد موت الصاوى عمل بعض ذوى الكيد على إخراجه منها فشكوا من شدته فى طلب المعلوم إلى الباشا ، وهو الوالى العثمانى ، ووشوا عنده بوشايات أخرى ، حتى حمله الباشا على أن ينيب فيها بعض الفقهاء .

ولكن للشرقاوى من مواقف القوة فيما نقصُّه من سيرته ، ما نرجح معه أنه إنما خشى الحرج من اتهامه بالحرص على معلوم الوظيفة فلان للصاوى ولان للباشا .

وما عهدنا الشرقاوى بعد ذلك يلين فى موقف من مواقف الحق ، بل لقد عهدناه يزداد قوة كلما تجبر أولو القوة .

حدث فى السنة الثانية من مشيخته ، أن أهل قرية من الشرقية كان للشيخ بها حصة شكوا من تعسف مماليك الألفى واستعانوا بالشيخ ؛ فاتصل الشرقاوى بإبراهيم بك ومراد بك فلم يفعلا شيئاً ، فما كان من الشيخ إلا أن أغلق الجامع الأزهر ، وأمر الناس فأغلقوا الأســواق والحوانيت ، وركب فى طائفة من المشايخ نحو مقر المماليك وتبعهم خلق كثير من أهل القاهرة

مكتبتنا العربية

ومن بعض القرى ممن ضاقوا بجور هؤلاء المماليك. فلما صاروا بحيث يراهم إبراهيم بك هاله جمعهم، فأرسل إليهم أيوب بك الدفتردار فقال العلماء: «نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التي ابتدعتموها» فأجاب الدفتردار إن المماليك إن فعلوا ذلك «ضاقت عليهم المعايش» فقال العلماء: «ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الإكثار من النفقات وشراء المماليك، والأمير يكون أميراً بالإعطاء لا بالأخذ»؛ وانصرف الدفتردار ولم يعد لهم بجواب، فعاد الشيخ ومعه العلماء إلى الأزهر واجتمع أهل الأطراف والرعية وباتوا بالمسجد... ومعنى ذلك أن القاهرة باتت تتحفز لوثبة!

وخشي إبراهيم العاقبة ونصح لمراد بالصلح، وأذعن مراد واستعان ببعض الشيوخ ليصلحوا بينه وبين الشيخ الأكبر، وجاء الباشا نفسه إلى بيت إبراهيم واجتمع هناك بالأمراء، وجاء العلماء يحيطون بالشرقاوي شيخ الأزهر. «ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح»... وكان من شروط هـذا الصلح «أن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس... ويسيروا في الناس سيرة حسنة» وأرسلت هذه الشروط إلى مراد بك فختم عليها «وانجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة وهم ينادون حسب ما رسم سادتنا العلماء» وعاد الشرقاوي إلى كتبه وحلقات دروسه وحلقات ذكره...

* * *

في اليوم العاشر من المحرم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، ورد إلى القاهرة من الإسكندرية أن سفنا فرنسية رست بالشاطئ «لا أول لها يعرف ولا آخر يوصف».

ماذا يصنع إبراهيم ومراد؟ وماذا يصنع الباشا العثماني؟ وماذا يقول أهل القاهرة؟ هل شعروا أن صفحة تفتح في تاريخهم القومي؟ إنهم يتطلعون إلى العلماء منذ أن جاءتهم تلك الأنباء، وهل كانوا ليتطلعوا إلى مراد وإبراهيم؟

وزحف نابليون إلى القاهرة زحفه، وقد أخذ المماليك بمدافعه ومربعاته، وأعد لأهل مصر ادعاءاته ومنشوراته، وفر مراد إلى الصعيد، وهرب إبراهيم إلى الشام، وكان مع إبراهيم الباشا العثماني والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وكثير من العلماء منهم السادات والشرقاوي.

ولبث بونابرت في مقر قيادته بالجيزة، واهتدى الناس إلى مقر قيادتهم في الأزهر... وتشاور العلماء فسلموا المدينة العزلاء للفاتح الغالب، وحل نابليون بالأزبكية، ولئن خلت المدينة حين دخلها من مظاهر الغضب، فإن في كل قلب من قلوب أهلها غضبة.

فهل اطمأن نابليون وقد فر المماليك من وجهه؟ كلا إنه يوجس في نفسه خيفة؛ إنه يخاف من الأزهر الأعزل، وإن لم يعد يخاف من مراد وإبراهيم.

مكتبتنا العربية

وماذا يصنع بعد منشوره للشعب ، ذلك الذى افتتحه باسم الله ثم أعلن فيه احترامه للإسلام وعداءه للبابا ؟ إنه يريد أن يجتذب أهل مصر بشىء حرموا منه قرونا ، وذلك أن يشعرهم بأن حكم مصر قد أصبح فى أيدى نفر من بنيها . وألف نابليون ديوان القاهرة من تسعة من العلماء اختاروا الشرقاوى رئيساً لهم . وقد عاد كما عاد السادات ، وأسند إلى الديوان حكم مدينة القاهرة ، كما ألف الديوان العام من العلماء وأعيان العاصمة والأقاليم واختير الشرقاوى كذلك رئيساً له .

وهل كان لشيخ الأزهر أن يعتز بغير مشيخته ؟ وهل أذعن الشرقاوى حقا وأصحابه للفرنسيين ؟ دعاهم بونابرت ذات يوم يريد أن يكرمهم كما زعم . وهو إنما أراد أن يبلو أنفسهم ، فلما اطمأن بهم المجلس نهض فأثبت الشارة الفرنسية على كتف الشرقاوى ؛ ولكن ما كان أشد دهشة نابليون حين نظر إلى الشيخ فإذا به ينتزع الشارة فى عنف ويلقى بها بين قدميه ! ، واستعفى وتغير مزاجه وانتقع لونه واحتد طبعه ، ولم تجد إغراء الترجمان إياه وإخوانه ؛ واغتاظ بونابرت وقال محتدا : إن هذا لا يصلح رئيسا للديوان . وخرج الشرقاوى وصحابته ولم يتكلم . وأى كلام أبلغ من إلقائه بالشارة الفرنسية إلى الأرض فى وجه نابليون ؟ إنه يقول للقائد الغالب إن كنت ملكت رقابنا بسيفك فإنك لن تملك قلوبنا ، وإن كنت لم تر حتى اليوم ثورة فى القاهرة فإن فى كل قلب من قلوب أهلها ثورة .

وثارت القاهرة ثورتها ولم يمض على غضبة الشرقاوى واستعفائه أكثر من خمسين يوما ، ولم تنفع بونابرت إدعاءاته ولم تجده حفلاته ، وتبين له أنه كان محقا فيما يوجس من خيفة ، وأن العزل جديرون بأن يزعجوه ، وأن الأزهر لم يكن مسجدا فحسب ، وإنما هو مسجد وحصن ومقر قيادة . . . .

وقتلت القاهرة ديبوى حاكمها العسكرى ونحو مائتين من رجاله وبعض الضباط والمهندسين ، واستشهد من أهلها نحو أربعة آلاف ، وقد سلط بونابرت مدافعه عليها وصوبها أكثر ما صوب نحو الأزهر حيث كانت تجتمع لجنة الثورة . ثم أرغمت المدافع المدينة على السكوت ولكن إلى حين . وأقبل بونابرت فى جنده فدخل الجامع بركبانه ومشاته ، وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته ، وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع ، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات ، ودشتوا الكتب والمصاحف ، وعلى الأرض طرحوها ، وبأرجلهم ونعالهم داسوها ، وكسروا أوانيه ، وألفوها بصحنه ونواحيه » .

واختتم بونابرت المأساة بأن أعدم ستة من خيرة العلماء رميا بالرصاص فى القلعة فصعدت أرواحهم إلى بارئها راضية مرضية .

* * *

ورحل بونابرت عن مصر خفية بعد نحو عشرة أشهر ، وخلفه على قيادة الحملة كليبر وظلت

مكتبتنا العربية

للشرقاوى رياسة الديوان فى عهده ، وثارت القاهرة ثورتها الثانية على الفرنسيين ، وكانت قيادة الثورة هذه المرة لغير العلماء من أمثال السيد عمر مكرم والسيد المحروقى .

وكان أعظم مراكزها فى بولاق . وكان للأزهر نصيبه فى الجهاد والاستشهاد ، واستمرت الثورة أكثر من شهر . وعظمت مقاومة الشعب بقدر ما عظم هول الحوادث . وكان مع الشعب عدد من العثمانيين كانوا تسللوا إلى القاهرة . وأمعن الفرنسيون فى القتل والتدمير ، وجرى على الناس مالا يسطر فى كتاب ولم يكن لأحد فى حساب ... منها عدم النوم ليلا ونهاراً ، وعدم الطمأنينة ، وغلو الأفوات ... وغلبة الجهلاء على العقلاء وتطاول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ، ولغط الحرافيش » .

وأرسل كليبر إلى المدينة يطلب وفداً من العلماء ليكونوا رسله إلى الشعب ، وذهب الشرقاوى والمهدى والسرسى والفيومى ، وحصلوا على شروط للصلح « فلما رجع المشايخ بهذا الكلام وسمعه الإنكشارية والناس قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى » .

وما زالت المدينة تصلى نار الفرنسين حتى أرغمت ثانية على التسليم ، وفر عمر مكرم ، وعذب السادات وأهين ، ولكن الأزهر انتقم ، فقد تسلل أزهرى حلبى إلى حيث يقيم كليبر بالأزبكية فقتله بخنجره !

واستدعى للمحاكمة فيمن استدعوا الشرقاوى ، شيخ الأزهر ، وقد كان الفرنسيون يرتابون فيه وفى العلماء فنشطوا فى البحث عن أدلة يأخذونه بها ، وكانوا لا يفتأون يسألون المتهمين من الأزهريين ألم يعلموا بأن الحلبى كان يبيت بمنزل شيخ الأزهر . ولكنهم عجزوا عن إدانته فأطلقوه ... ولقد استبعد نابليون فيما أثبته فى مذكراته بعد ذلك بسنوات أن يجهل علماء الأزهر كيف دبرت هذه المؤامرة . ثم إن الفرنسيين شددوا الرقابة على الأزهر حتى ضاق بهم شيخه فقرر إغلاق أبوابه وظلت مغلقة حتى خرجت الحملة من مصر ...

* * *

خلف « مينو » كليبر ، وظلت للشرقاوى شيخ الأزهر رياسة الديوان . ونشطت انجلترة فى العمل على إخراج الفرنسيين من مصر ، ونزلت قواتهم بالإسكندرية ، وخاف مينو أن تعود القاهرة إلى الثورة فأنذر أعضاء الديوان بطشه ، وحملهم تبعة أية حركة . ثم إنه ما لبث أن ألقى القبض على الشرقاوى وثلاثة من الأعضاء وسجنهم بالقلعة . يقول الشرقاوى فى كتابه « تحفة الناظرين » ، « وقد حبسونا فى القلعة مع إخواننا العلماء خوفاً من قيام أهل البلد عليهم كما وقع منهم سابقاً فمكثنا بالقلعة مائة يوم » .

* * *

وخرجت الحملة من مصر فى أوائل سنة ست عشرة ومائتين وألف ، وخرج الشرقاوى من سجنه وهو يومذاك شيخ الأزهر ليس غير . وطال النزاع بين العثمانيين والمماليك ، إلى أن ظهرت على مسرح الحوادث شخصية ليس مثلها فى الشخصيات ، ونظر الشعب الحائر الذى أرهقه طول الاضطراب

مكتبتنا العربية

فإذا به يحس أن نجاته من الفوضى هى أن يلتف حول هـذه الشخصية ... ومن ثم أقبل شعب القاهرة وفى مقدمته العلماء على محمد على .

وكانت عبقرية محمد على تتفتح أكمامها وكان القدر يهيئه لأن يجعل من هذا البلد الذى تمزقه الفوضى دولة قـوية ناهضة تضاف الى الدول الحديثة .

وفى مستهل شهر صفر من سنة عشرين ومائتين وألف ، قصد حشد كبير من الناس إلى منزل محمد على فبايعوه والياً على مصر ، « لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشروطنا لمـا نتوسمه فيك من الخير والعدالة » وأعلنوا إليه عزمهم على عزل خسرو باشا ، وتقدم الشرقاوى ، والسيد عمر مكرم وقد أحضرا « كركا » وعليه قفطان فألبساه إياه ...

وظل الشرقاوى عند الباشا بعد أن تم له الأمر فى مصر وهو مكين أمين ، إلى أن وشى به السيد عمر وبعض العلماء فأرسل إليه الباشا ياوره فى السابع من شهر رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين وألف يأمره « بلزوم داره لايخرج منها ولا إلى صلاة الجمعة » على أن القاضى ما لبث أن شفع له عند الباشا فى شهر شعبان فقبل الباشا شفاعته وأصلح القاضى بين الشرقاوى وخصومه .

وعادت للشرقاوى مكانته وظل مهيباً فى الناس موفور الجلالة على الرغم مما كان يكيد له السيد عمر مكرم . وفى سنة خمس وعشرين ومائتين وألف ، أوشك أن يغضب الباشا عليه مرة أخرى فقد جمع الباشا العلماء والأعيان ذات يوم ليعينوه على جمع ما تطلبه إصلاحاته من المال ، وتكلم أحد مستشارى الباشا قائلا : « إن حصص كثير من المشايخ مرفوع ما عليها من المغارم ويرجع تتميم الغرامة على حصص الشركاء » وهنا احتد الشيخ وقال له « أنت رجل سوء » يقول الجبرتى « وثار عليه باقى المشايخ الحاضرين وزاد فيهم الصياح فقام الباشا من المجلس وتركهم وذهب بعيداً عنهم » .

وفى يوم الخميس وهو الثانى من شهر شوال سنة سبع وعشرين ومائتين وألف ، مات الشيخ عبد الله الشرقاوى وصلى عليه بالأزهر فى جمع كثير « . قال الجبرتى « مات الشيخ الإمام العلامة والنحرير الفهامة الفقيه الأصولى النحوى شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ عبد الله بن حجازى ابن ابراهيم الشافعى الأزهرى الشهير بالشرقاوى » وقال يصف علمه « وله مؤلفات دالة على سعة فضله ، من ذلك حاشيته على التحرير ، وشرح نظم يحيى العمريطى ، وشرح العقائد المشرقية والمتن له أيضاً ، وشرح مختصر فى العقائد والفقه والتصوف مشهور فى بلاد داغستان ، وشرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد ، ومختصر الشمائل وشرحه له ، ورسالة فى « لا إله إلا الله » ورسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع وشرح الحكم ، والوصايا الكردية فى التصوف ، وشرح ورد سحر للبكرى ، ومختصر المغنى فى النحو وغير ذلك » .

رحم الله الإمام الشرقاوى وجعل لنا فى أعماله أسوة وفى سيرته قدوة ؟

محمود الخفيف

مكتبتنا العربية

فى الفلسفة والعلم

أزمة الضمير الدينى

للدكتور محمد البهى

١ - الضمير الدينى فى الفرد هو القوة النفسية التى تدفع الإنسان إلى سلوك معين فى اتجاه خاص. ويعتمد تكونها فى نفس الإنسان على امتلاء نفسه بوجود الله فى الكون وعظمته فى خلقه، وقدرته بين عباده، ورحمته ورضاه عن المؤمنين به. وكلما امتلأت نفس الإنسان بوجود الله وتمثل لها الله فى كل شىء فى الحياة، التزمت السير وفق خطة الدين ومنهج الوحى الإلهى.

ونفس الإنسان إذ تتمثل الله فى كل شىء فى الوجود لا يعنى ذلك أنها لابد أن تعتقد بحلوله أو باتحاده بكائنات هذا الوجود، بل معناه أنها ترقب يقظته وهيمنته فى كل وقت وآن، حتى لكأن وجوده ملازم لنظرات الإنسان، أو حتى لا تكاد ترى النفس فى الوجود شيئاً سواه، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ....

والضمير الدينى محتاج فى تكونه فى نفس الإنسان ثم فى تزايده ونمائه فيها إلى أن تثار عاطفته الدينية أو ما تسمى بغريزة التدين فى الإنسان، كما أنه محتاج فى عمله ودفعه الإنسان إلى السير فى طريق الدين، إلى التوجيه السليم وإدامة توجيهه على نحو يكفل لصاحبه عدم الانحراف فى السير.

فإيقاظ العاطفة الدينية وتوجيهها توجيها سليما أمران ضروريان فى سلوك الإنسان وفق تعاليم التنزيل ووصايا الشرائع السماوية.

هذا فى الفرد أما فى الجماعة فضميرها الدينى هو قوتها الذاتية التى تدفع أكثريتها إلى العمل الصالح، وإلى التآخى فى سبيل الله، والتعاون على البر والتقوى. ويتبع الضمير فيها قوة وضعفا رقابة الموجه العام للجماعة، والتربية القومية ومقدار العناية بها أو إهمال شأنها.

والظاهرة التى توضح وجود الضمير الدينى فى الفرد أو الجماعة هى سيطرة الخشية من الله فى الفرد والجماعة. وليس هنا مجال الحديث فى فضل هذا الضمير ووجوده فى نفوس الأفراد وبين طبقات الجماعة المختلفة. فإن من الشواهد الجلية على فضل وجوده قلة وقوع الأحداث المنافية لمبادىء الخلق الحسن فى سلوك الأفراد، والأخرى التى من شأنها أن تضعف كيان الجماعة فى الأعمال العامة.

* * *

مكتبتنا العربية

٢ ـ وإذا كان الأثر الايجابى للضمير الدينى فى حياة الأفراد والأمة متوقفا على أن يكون قويا وذلك باستمرار إثارة العاطفة الدينية فى الأفراد وتقوية معنى المشاركة الوجدانية فى الجماعة ـ فإنه بالعكس إذا ضعف عامل الإثارة أو أهمل شأن المشاركة الوجدانية ضعف الضمير الدينى وضعفت بالتالى آثاره فى الحياة الخاصة والعامة .

ويصل أمر هذا الضمير الدينى إلى أزمة إذا لم يستطع الدعاة وقادة التوجيه وهم المربون وأصحاب الرأى فى الجماعة أن يقوموا بوظيفة الدعوة وبأداء واجب التوجيه الصحيح وهو ذلك التوجيه الذى يقوم على تقدير الفضيلة الفردية والجماعية ويرفع من شأن القيم المعنوية فى محيط الإنسان وأمته .

والدعاة لا يستطيعون القيام بوظيفة الدعوة الدينية إما لأنهم لا يحملونها ويحترفون بها فقط ، وإما لأنهم لا يفقهون أمرها ولا الوسيلة النفسية لإبرازها وحمل الناس على اتباعها .

والمربون وأصحاب الرأى فى الجماعة يعجزون عن التوجيه الصحيح إذا وهن إيمانهم بالفضيلة الفردية والجماعيـــة ، وذلك إذا غلب عليهم زخرف الحياة المادية وطغت عليهم موجة التوجيه المادى .

والحروب العالمية من أوضح آثارها أمران : إدلال المنتصر بما أحرزه على خصمه من نصر مادى ، وانزواء المنهزم فى نفسه وميله إلى العزلة سواء فى الحديث وإبداء الرأى أو فى السعى إلى المحافظة على بقائه الخاص . والطرف الذى أصاب النصر فى الحرب لا يفتأ يذكر الرأى العام العالمى بالقدرة المادية وأثرها فى إنهاء الحرب وصيانة السلم . لأنه كان الطرف المنتصر فإنه يعطى لنفسه الحق فى أن يرسم علاقات الأمم بعضها ببعض ، وهى علاقات تقوم فى الأغلب على وصايته على غيره من الشعوب والتدخل من آونة إلى أخرى فيما يسمونه حق صيانة السلم العالمى .

فأمر العالم أثناء الحروب الكبرى يدور إذن فى إطار القوة والغلبة ، ويسير فيما ترسمه القوة أيضاً من توجيه وفيما تخطه للإنسانية من طريق ، وما تضعه أمامها من أهداف .

ومن شأن انجذاب العالم أفراداً وجماعات إلى القوة وخضوعه إلى آرائها وسياستها ـ أن يتأثر الدعاة والمربون وقادة الرأى تأثراً سلبيا ، وأن يتأرجح تبعا لذلك شأن الضمير الدينى ويخف وزن القيم الأخلاقية الفردية والجماعية . إذ أن إغراء المادة الممثل فى شتى مظاهر القوة المادية قلما يفلت منه واحد من هؤلاء .

رجل الدعوة يهن نشاطه الروحى ، وإذا تحدث عن دعوة الدين فحديث المحترف لا حديث الذى امتلأ قلبه إيمانا بها . لأن قوة المادة وبريق الحضارة المادية قلما يتركان فى نشاطه الذهنى فراغا لاستقرار المثل العليا والقيم الرفيعة . فهو مندفع فى تيار الحضارة الراهنة ، ولذا يتخذ من تعاليم الدين ومن الحديث عن وصاياه مهنة ووسيلة يصل بها إلى مستوى فى عيشته ترسمه له أحوال بيئته وجماعته شأنه فى ذلك شأن الطبيب أو رجل الجيش ، يتخذ كلاهما من فنه فى ظروف سيطرة

مكتبتنا العربية

القوة المادية مهنة وحرفة يصل بها إلى هدفه فى الحياة ، وهو هدف قلما تتمثل فيه انسانية الطبيب وشجاعة المدافع .

والمربى وصاحب الرأى ليس كلاهما أشد صلابة من رجل الدعوة الدينية أمام زحف القوة المادية أثناء الحرب العالمية وبعدها ، فتربية المربى تصبح صنعة وليست فنا فيه الصبر والمتعة ، وإبداء صاحب الرأى رأيه يخضع فيه لملابسات الحال الراهنة ، ولا يصدر فى توجيهه عن تأمل دقيق ووزن محكم للأمور ، بغض النظر عما يدور فى محيطه من مؤثرات وإغراء ، ومن هنا تتجلى أزمة الضمير الدينى عقب الحروب العالمية ، بعد أن تضمحل قوته أثناءها . وآية هذه الأزمة استهتار الأفراد بعد الحرب بالقيم والفضائل ، وكثرة الجرائم الخلقية والجماعية فى الأعمال العامة وفى تدبير أمور الجماعة وفى تصريف مسائل الشعوب .

فالتقاليد تنتهك ، وحرمات الأفراد لاحدود لها ، وشعور الأخوة فى الجماعة لا يكاد يوجد ، وأمر الدولة ومرافقها العامة أمر مباح لمن بيده تصريف شئونها . وتسيطر على الناس روح الانفرادية بمعناها الواسع : الاعتبار الشخصى أساس التقدير والحكم ، والمنفعة الخاصة أساس العمل والسلوك . ووراء هذه المنفعة الخاصة أمر الدولة والجماعة وشئونها العليا . وإذا تفشت الانفرادية تعددت المذاهب والآراء ، وهى على تعددها لا تتجاوز الأهداف المادية لأن ذلك من واقع الأمر بعد أى حرب عالمية .

وهنا تنكس الدوله ويسود الأمر فيها ما يشبه الفوضى ، كما يسود حال الأفراد ما يشبه التحلل من قيود الأخلاق والعادات . وليس من الهين على المصلح أن يسير خطوة فى إصلاح دون أن يلقى عقبات ، وليس من اليسير على الداعى إلى الله - إن وجد هذا الداعى عن إيمان بدعوته - أن يجمع حوله الناس دون أن يستهدف لنظرة فاجرة أو يسمع كلمة مؤذية .

* * *

٣ — ومع ذلك فكثيراً ما يردد اسم الدين بعد الحرب ، وكثيراً أيضا ما يرتفع صوته ونداؤه ، ليس من رجال الدين فقط ولكن من الساسة ورجال الفكر والعلم كعلاج لحال الفوضى فى الجماعة وحال التحلل الخلقى فى الأفراد . ويدعو رجال السياسة والفكر والعلم إلى الدين رغبة منهم فى إيقاظ الضمير الدينى من جديد وعملا على عودة الجماعة والأفراد إلى حال ما قبل الحرب وهى حال الشعور بالله وبالأخوة والإنسانية .

وكثيرا ما تكون دعوة رجال الفكر والفلسفة إلى الدين والاستعانة به أقوى وأوضح من دعوة غيرهم ، بالرغم مما يكون لذلك من أثر غير إيجابى على مدارسهم الفلسفية والعلمية ، وهم يعترفون صراحة بعجز هـــذه المدارس عن أن ترجع بالإنسانية المضطربة القلقة بعد الحروب العالمية إلى حال الاستقرار الأول ، وعن أن تعود

مكتبتنا العربية

بالفرد إلى اطمئنان النفس الذى يرجع إلى حد كبير إلى إيمانه بالجزاء الأخروى .

هؤلاء الفلاسفة والمفكرون الذين يدعون دعوة قوية إلى التمسك بالدين والإيمان بالله بعد الحروب العالمية يتخذون من الفترات الطويلة التى تعقبها والتى يتزايد فيها القلق ويشيع فيها الخوف وعدم الأمن - آية على عجز الفلسفة بعد أن تهيأت لها الفرصة وأفسح المجال لنشر آرائها ومذاهبها وأسند لأصحابها زمام الأمور ؛ فقادة الحروب هم أصحاب فلسفة ، ورجال السلام بعد هذه الحروب أصحاب فلسفة ، وأرباب المواثيق والعهود فى ربط الأمم والشعوب أصحاب فلسفة .

* * *

٤ — إن الإنسان كى يطمئن فى الحياة ، ويقنع بالوجود ، وينتج فى العمل ، ويؤاخى فى السلوك ، فى حاجة إلى الضمير الدينى . وأن الجماعة الإنسانية أو الدولة كى تنجو من الفوضى ، وتستند فى مواجهة الصعاب الخارجية إلى لبنات قوية ، وتسير قدما نحو حياة جماعية رغدة ، فى حاجة إلى الضمير الدينى .

وأن الضمير الدينى استعداد فى طبيعة الفرد والجماعة ، وأن الدعوة إلى الله وإقناع الناس بالسير فى طريق الله من عوامل تكوينه وخلقه ، كما أن الاستمرار فى إرشادهم إلى هدى الله من أسباب زيادته ونمائه .

وأن ضعف رجال الدعوة الدينية وضعف أصحاب الرأى والتوجيه فى الأمة يؤثر على كيان الضمير الدينى ، وإن الحروب العالمية وما يعقبها من فترات القلق والاضطراب لمما تهز رجل الدعوة فى إيمانه بما يدعو إليه ، وصاحب الرأى فيما يقود به أمته وجماعته .

وأن فترات ما بعد الحرب فترات تتصارع فيها الآراء الإنسانية والمذاهب الفلسفية كما تتشيع فيها الأفراد إلى شيع وتنقسم إلى طوائف فى الرأى ، وكلهم يغلب عليهم طابع الانفرادية واتجاه النفعية .

ليس من السهل على القائم على شأن الدعوة الدينية أن يوجه دعاته إلى دعوة الناس إليها ، ويرتقب من دعوتهم عملا إيجابياً ، إذ عليه قبل ذلك أن يخلق منهم أو من غيرهم جيلا يعرف الحد بين سلطان القوة المادية التى ظهر طغيانها بعد الحرب وبين الاقتناع بالمثل والقيم والفضائل وأثرها فى طمأنينة الأفراد واستقرار الجماعات .

وليس من السهل على الموجه العام ، وهو المصلح والمدبر لشئون الجماعة أن يقود جماعته إلى المبادىء العامة ويحمل الأفراد على الحد من الاستهتار بالمصالح العليا ، إذ عليه أن يصبر فى جهاده ولا يستهين بالعقبات فى طريق كفاحه وهو شاق طويل ، لكنه الطريق المتعين لاستقرار الأمة وصلاحها .

محمد البهى

مكتبتنا العربية

المذهب المادى فى العصر الحاضر

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول

من سمات التفكير الشائع فى الشرق هذه الأيام « المادية » ـ نعنى المذهب المادى ـ حتى لقد سرى هـذا الاصطلاح إلى لغة الصحف والمجلات والأحاديث والمحاضرات ، والناس منقسمون فى أمرها إلى مؤيد ومعتقد ، أو منكر ومعارض ، أو جاهل بحقيقتها ، لم يرتفع إلى مرتبة الخاصة من المثقفين الذين تتسع نظرتهم فيصدرون فى حياتهم عن إيمان بمذهب فلسفى يفسر هذه الدنيا ويعلم النظام الذى تخضع له .

ومع شيوع هـذا الإصطلاح ، وجريان لفظة المادية على الألسنة والأقلام ، فإن معظم الناس يرددونها تقليداً لا فهما ، ويعلمون عنها قشوراً لا تنفذ إلى اللباب ، ولا تتخطى الظواهر إلى الأعماق . وقد يكونون من الماديين وهم لا يشعرون؛ أليس الجمهور وأوساط الناس ممن يعتقدون أن المادية هى اقتناء المال وتقديره ، ثم تسخيره فى شراء ألوان المتاع والزينة من طعام وشراب وملبس ومسكن ، وما إلى ذلك مما يشبع رغبات النفس ويجيب مطالبها ويحقق لها اللذة ! ولذلك يسمون المقبل على الدنيا ، وطالب اللذات ، والباحث عن الذهب « ماديا » .

وهم فى ذلك يأخذون المادية من « المادة » ، وهى عندهم ، كما هى الحال فى التفكير التجريبى الساذج ، هـذه الأشياء التى ندركها بالحواس فنرى لها طولا وعرضا ووزنا وحجما . ويعتقد الإنسان فى وجود هذه الأجسام خارجة عنا ، ومستقلة عن أنفسنا ، وسابقة على إدراكنا لها بالحواس ، ويسمى هـذا الضرب من الوجود « موضوعيا » ، بالإضافة إلى ذاتنا أو وجودنا « الذاتى » . فهذه الشجرة ، وهذا الباب ، لها وجود فى ذاتها ، سواء أدركتها أم لم أدركها ، وسواء أكنت على قيد الحياة أم انقضت حياتى ، على خلاف جماعة من المثاليين الذين يذهبون إلى القول بأن وجود الأشياء لا يكون إلا فى الأذهان العاقلة .

هذه هى النظرة العامية فى الاعتقاد بوجود المادة ، وفى إقامة مذهب المادية على أساسها .

وهناك مصدر آخر خلاف وجود الأشياء الخارجية بإزاء أنفسنا ، يجعلنا نعتقد فى وجود المادة ، ويفضى بنـا بعد ذلك إلى تصور مذهب مادى ، أو ثنائى ، أو روحانى . وذلك المصدر مستمد من أنفسنا . فنحن مركبون من بدن ونفس ، من جسم وروح ، ويدلنا النظر اليسير على الاختلاف العظيم بين هذين الجوهرين ؛ فالبدن من عالم المادة ، لأنه يمتاز بالخصائص المعروفة للأجسام ، أما النفس أو الروح أو كما يسميها بعض الفلاسفة العقل ، فإنها من عالم آخر يختلف فى خصائصه عن المادة ، إذ لا توجد فى مكان ، وليس لها طول

مكتبتنا العربية

ولا عرض ولا عمق ، ولا تدرك بالحواس الظاهرة كالبصر والسمع واللمس . وآثار النفس موجودة ، ومظاهرها واقعة لا ريب فيها ، كهذه الصور التى تعرض فى صفحة الخيال ، أو الرؤى التى تظهر فى الأحلام ، ثم المعقولات الكلية وهى موضوع التفكير ، وبالجملة هذه المظاهر التى يقول عنها علماء النفس المحدثون إنها تجرى فى «الشعور» ، ولهذا السبب أقام برجسون [١٨٥٩ - ١٩٤١] فلسفته على مبدأين : المادة ، والشعور أو الذاكرة ، وله فى ذلك الكتاب المشهور بعنوان المادة والذاكرة ، فلا غرابة أن تكون فلسفته ثنائية تسلم بوجود الجسم والنفس ، أو المادة والشعور .

وفى ذلك يقول : « كل واحد منا جسم يخضع للقوانين ذاتها التى تخضع لها الأجزاء الأخرى من المادة ، فإذا دفعت هذا الجسم تقدم إلى الأمام ، وإذا شددته رجع إلى الوراء ، وإذا رفعته ثم تركته هوى ، وإلى جانب هذه الحركات المنبعثة ميكانيكياً عن علة خارجية ، توجد حركات أخرى تنبعث فى الداخل وتسمى « إرادية » ؛ فما علتها ؟ إنها تلك التى يعنيها كل واحد منا بقوله « أنا » ؛ وما الأنا ؟ الأنا ، شىء يبدو - إن خطأ أو صواباً - متخطياً الجسم الذى تتصل به من جميع أجزائه ، متجاوزا إياه فى المكان والزمان على حد سواء . . . »[1]

وإنما بدأنا بعرض نظرية برجسون لأنه يمثل رأى المحدثين فى القرن العشرين حين يرد على المادية التى سادت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فقد بدأ الفكر الأوربى منذ عصر النهضة مع اكتشافات كبلر وجاليليو فى الفلك ، حتى عهد نيوتن ، يعتقد فى إمكان رد جميع الظواهر الفلكية والفيزيقية[2] إلى قوانين ميكانيكية ، حتى لتمد خيل إلى الفلاسفة أن العالم المادى ، بما فيه من جمادات وأحياء ، أشبه شىء بآلة ضخمة خاضعة للقوانين الرياضية ، وليست الكائنات الحية ، والإنسان كذلك ، إلا جزءاً من هذه « الساعة » الميكانيكية . ويترتب على ذلك أن أعمال كل شخص محدودة ومحتومة وخاضعة لما يدفعها فى ذلك الجهاز الآلى الضخم ، وليس له إرادة أو حرية أو شعور أو ابتكار . وقد ولى الآن عهد الميكانيكية التى كانت تفسر حركة الأجسام بالنسبة إلى الكتلة والقوة المحركة لها من خارج ، وأخذت بالمذهب الدينامكى الذى يفسر حركة الأجسام بالقوة الدافعة لها من باطن ، أو ما يسميها برجسون بدفعة الحياة Elan Vital ، وإلى مذاهب أخرى غير مذهب برجسون ، ولكنها على أى الحالات تختلف عن تصور علماء القرن التاسع عشر وفلاسفتهم .

ولنرجع إلى حديث المادية قديما ، نعرض ما قال الفلاسفة عنها عرضاً سريعاً ، لأن المادية فى العصر الحاضر ، كأى مذهب من المذاهب ، إنما يعد تطورا للأفكار على مر الزمان من جيل إلى جيل . وقد انقسم الماديون من فلاسفة

(1) Le Materialisme Actuel, Faml-marion, 1833, p. 8.

(٢) نقصد بالفيزيقية هنا ما يراد باللفظة الأجنبية .

مكتبتنا العربية

اليونان فريقين ، أصحاب المادة الأولى ، وأصحاب الذرة ، وذهب طاليس إلى أن المادة الأولى هى الماء ، وقال غيره بالهواء أو بالنار ، وساد مذهب العناصر الأربعة ، الماء والهواء والتراب والنار ، وأخذ به أرسطو ، وعد كل جسم مركبا من هذه العناصر بنسب مختلفة . أما ديمقريطس فقال بالذرة أو الجزء الذى لا يتجزأ ، ومنها تتركب الأجسام . وقد تسرب المذهبان إلى الفلسفة الإسلامية ، فأخذ بعضهم بمبدأ العناصر الأربعة ، وساد مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين بوجه خاص .

وقد سميت المدرسة المادية التى بدأت بطاليس بمدرسة الطبيعيين . وسوف نرى فيما بعد أن المذهب الطبيعى ذو صلة وثيقة بالمذهب المادى . على أن هذه المدارس اليونانية المادية على اختلاف أنواعها ، رأت أن المادة وحدها لا يمكن أن تفسر وجود الموجودات وكونها وفسادها ، فأقروا بوجود إله مدبر لها ، وهذا طاليس يقول : العالم مملوء بالآلهة .

ومذهب أرسطو جدير بالنظر ، لأنه ظل مسيطرا على العلم حول عشرين قرنا من الزمان ، ولا نزال نستعمل مصطلحاته حتى الآن . فهو يرى أن كل جسم طبيعى يتركب من مادة وصورة ، ويسمى المادة جوهراً وكذلك الصورة ، وكذلك الموجود المركب من المادة والصورة وإذا علمنا أن الفلسفة الإسلامية ممثلة فى الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد إنما اعتمدت اعتماداً عظيما على أرسطو فى طبيعياته ، فلا غرابة أن نجد كتب هؤلاء الفلاسفة تأخذ بفكرة المادة والصورة والجوهر ، وتميز بين الوجود والماهية ، وليست الماهية فى الواقع إلا الصورة المضافة إلى المادة . فأرسطو ثنائى فى فلسفته ، ولكنه يغلب الصورة على المادة .

ثم وقفت الفلسفة الإسلامية عند هذا الحد ، وانتقل مركز الفكر إلى أوربا ، ونادى ديكارت فى القرن السابع عشر بأن العالم يتركب من مبدأين هما الامتداد والفكر ، وهما يتمثلان فى الإنسان الذى يستطيع كل واحد منا أن يتميزهما عندما يتأمل نفسه وجسمه . وقد رأينا كيف رد برجسون على ديكارت ولم يقبل منه تفسيره الميكانيكى .

فلما اشتد ساعد العلم فى القرن الثامن عشر ثم التاسع عشر ، سادت فكرة « القانون الطبيعى » وحلت مكان « الماهية » التى أعلنها أرسطو وتبعه فيها فلاسفة العصر الوسيط إسلاميون ومسيحيون . وهذا هو السبب فى قولهم إن العلم الحديث مادى ، لأن العلم الحديث يمتاز بالبحث فى الطبيعة ، حتى لقد كان شعار رواد العلم منذ عصر النهضة « اقرأ كتاب الطبيعة » . فلا غرابة أن يكون المذهب المادى مرادفا للمذهب الطبيعى .

وهذا هو الذى فهمه جمال الدين الأفغانى حين كتب رسالته « الرد على الدهريين » ، وجعل الفصل الأول منها فى « بيان حقيقة مذهب النيتشرية والنيتشريين وبيان حالهم » . وهو يعنى بالنيتشرية الإصطلاح الأجنبى Naturalism ثم شرح مقاصدهم ووسائلهم وبين أن غرضهم هو إنكار الأديان ، ثم شرع ينقض مذهبهم ويبين فساد أصولهم منذ اليونان قديماً حتى زمانه فى القرن التاسع عشر .

غير أن المذهب الطبيعى ، أو المذهب المادى

مكتبتنا العربية

بعد التقدم السريع الذى حققه العلم الفيزيقى أخيراً ، وبخاصة فى مباحث الذرة ، لم يصبح منعزلا عن ميدان الأخلاق والدين كما كان الأمر فى القرن الماضى ، ولم يعد هناك ذلك الفارق الحاسم بين الجسمانى والنفسانى أو الروحانى حتى لقد أصبح كثير من الماديين يقرون بوجود الله والنفس وخلودها باسم العلم نفسه .

يقول «برات» فى كتابه «المذهب الطبيعى»[1] ما فحواه : إن العالم الذى يدرسه أصحاب المذهب الطبيعى لا يقوم على أهوائنا أو معتقداتنا ، بل على الواقع وما تفضى إليه تجارب العلم . ويهدينا العلم إلى أن الكون خاضع بالضرورة لنظام يمكن أن ننفذ إلى معرفته وتعليله . ويمضى فى آخر الكتاب فيقرر أن العلم الحديث أصبح يمتاز بميزتين ، الديناميكية والغائية ، فإذا كان الأمر كذلك ، فإن الغائية تستلزم بالضرورة عقلا مدبراً ، وبذلك يقترب العلم من الدين .

يقع الخلاف بين المادية الحديثة Neo-materialism ، وبين مادية القرن التاسع عشر فى أمرين : أحدهما علمى والثانى فلسفى .

أما العلمى ، أو بوجه أدق الفيزيقى ، فهو انفلاق الذرة . فقد كان الظن إلى عهد قريب أن المادة لا تنقسم إلى ما لا نهاية له ، بل تقف عند جزء لا يتجزأ ، هو الذى سموه الذرة أو الجوهر الفرد . ثم أثبت العلماء أن الذرة قابلة للتجزئة ، فبعض الذرات ينفجر من تلقاء ذاته مثل ذرات الراديوم واليورانيوم وغيرهما من العناصر ذات النشاط الإشعاعى ، ويمكن أن يحطم البعض الآخر أو يهشم بوسائل خاصة كما تمكن تشارلس ويلس عام ١٨٩٦ من تصوير ذرة البورانيوم بعد تهشيمها ، فخضع البحث للتجربة العلمية وانتقل من مجرد فرض إلى نظرية علمية مقررة ، وحقيقة واقعة . واتضح أن الذرة تتحلل إلى ثلاثة أجزاء ، أو «أشعة» هى ألفا وبيتا وجاما ، وتتجه أشعة ألفا التى تحمل الكهرباء الموجبة نحو اليمين ، وبيتا التى تحمل الكهرباء السالبة نحو الشمال ، وتذهب أشعة جاما ، وهى ليست مكهربة بل نوراً ، نحو الإمام . وبذلك انطلقت المادة الذرية وأصبحت «طاقة» يمكن استخدامها فى أغراض الحرب والسلم . والذى يهمنا فى هذه الكلمة أن نقرر أن مفهوم المادة القديم قد تغير ، وأصبحت المادة طاقة . ونحن ننقل إليك رأى المرحوم الدكتور مصطفى مشرفة باشا أحد الذين ساهموا فى مباحث الذرة. قال : «ومن المهم أن يفهم القارىء أن هذه الطاقة المختزنة فى بواطن الذرات ليست شيئاً يضاف إلى المادة ، بل إنما هى المادة ذاتها . فالحصول على ٢٥ وحدة من وحدات الطاقة من كيلو جرام من المادة ليس معناه استخراج هذه الطاقة من داخل ذرات المادة مع بقاء الكيلو جرام كيلو جراماً ، بل إن معناه أعمق من هذا بكثير ، ألا وهو تحويل المادة إلى طاقة . فالكيلو جرام من المادة يعادل ٢٥ وحدة من وحدات الطاقة ويساويها مساواة . وإذا أمكن الحصول على هذه الطاقة

(1) Pratl : Naturalism, 19s9, Yale unversir, i press.

مكتبتنا العربية

فيكون ذلك على حساب المادة ذاتها فتفنى ويمحى أثرها من الوجود . ومعنى هذا أن المادة والطاقة قد صارا مظهرين لشيء واحد ، أو صورتين مختلفتين لنفس الشيء »[1] .

ويختم الأستاذ جان فال Jean Wahl كتابه « طريق الفلاسفة » بفصل بعنوان « الماهيات والصور، وفكرة المادة » جاء فيه ما يأتى: لم تعد المادة معارضة للعقل أو الصورة، وهى لذلك لا يمكن أن تعرَّف ، وقد يحتمل قيام مادية صوفية Mystical Materialis ، بل هى ولا ريب حقيقة واقعة[2] .

ولكن أخطر النتائج العلمية التى نشأت عن التقدم فى البحوث الفيزيقية هو إفساح المجال للحرية ، حتى فى عالم الفيزيقا ، وهو أول درجة من درجات المادة ذلك أن الطاقة التى تتبدد من الذرة عند انفلاقها فتذهب يميناً أو شمالا ، لا يمكن تحديد مسارها . فإذا كان هذا هو الحال فى عالم الذرة فما بالك بعالم الإنسان ؟ وحرية الإنسان فى أعماله شرط ضرورى للتدين ، حتى يصح الثواب والعقاب . وقد كانت معارضة المادية القديمة للأديان من هذا الوجه ، نعنى من جهة القول بالحتمية المستمدة من طبيعة الأشياء ، حتى لقد ذهب غلاة الماديين إلى القول بأن المادة هى كل شيء ، وهى أصل العقل والشعور ، وليس العقل إلا إفرازاً من إفرازات المخ ، كما تفرز الكبد الصفراء ، أو المعدة العصارية المعدية .

أما الخلاف الفلسفى بين مادية اليوم ومادية الأمس ، فإنه يقع فى الاتجاه الحديث الذى يسلم بالقيم ، ولم تكن مادية القرن التاسع عشر تفعل ذلك ، لأن فلسفة القيم باب حديث لم يفتح للبحث إلا منذ عهد قريب ، وتعتقد المادية الحديثة أن للأشياء الخارجية المادية قيمة ، وتستند هذه القيمة إلى حاجة الشخص إليها ، وتعتمد الحاجة على الرغبة وعلى المحبة وكلاهما من العواطف الأساسية الفطرية فى الإنسان . وكل ما يرغب فيه الإنسان ويحبه ، فهو « خير » ، وبذلك انقلبت الآية عند الماديين ، فجعلوا الخير مترتباً على الرغبة والمحبة ، على أن المذاهب المثالية والروحانية تقدم الخير وتطلبه لذاته ، وكان ذلك هو مطلب الماديين من قديم الزمان ، كالأبيقوريين الذين جعلوا « اللذة » غايتهم ، ولا يزال الماديون يطلبون اللذة ، والسعادة ، والخير ، والمنفعة والمصلحة ، ولكنهم يمتازون اليوم من حيث الأخلاق بأمرين : الأول أنهم ينظرون إلى « السلوك » ويجعلون ميزان العمل هذا السلوك الصالح الذى يوفر أعظم قسط من السعادة للفرد ، ويجلب له أكبر قدر من النفع ، ويحقق له أكثر مقدار من اللذة . والأمر الثانى هو ما أومأنا إليه من تقدير « قيمة » الأعمال ، مما لا يتسع له المجال الآن أن نبسطه .

ومن صور المادية البالغة الأثر فى العصر الحاضر تلك التى نادى بها كارل ماركس ، [١٨١٨ - ١٨٨٣] والتى تعرف باسم المادية الجدلية Dialectical وقد تطور المذهب بعد

---

(١) الدكتور على مصطفى مشرفة : الذرة والقنابل الذرية . ١٩٤٥ ، ص ٤٩

Jean Wahl : The philosophers way, 1948 ,p. 75.

مكتبتنا العربية

أن استنفد أغراضه ، وتحول إلى مايسمى بمذهب الآلات Instru mentalism ، أى استخدام الآلات فى شتى صور الحياة ، وهو الذى أفضى إلى « تصنيع » الزراعة . ونحن نشهد أثر ذلك الآن فى داخل الدور ، حيث تستخدم الثلاجات والمغاسل والأفران الكهربائية ، حتى الكنس أصبح يتم بالآلة .

أما مادية كارل ماركس فهى نظرة إلى طبيعة ومنزلة الإنسان فيه ، وصلة الإنسان بالبيئة التى يعيش فيها والتى يعد ثمرة لها . وقد اعترض ماركس على مادية القرن الثامن عشر التى كانت تنزل المادة الخارجية منزلتها وتجعل موقف الإنسان منها سلبياً ، أى أن الأثر راجع إلى المادة فلما تأثر ماركس بفلسفة هيجل الجدلية ، جعل الأثر شركة بين الأشياء الخارجية وبين ذات الإنسان ، فينتج عن ذلك شىء ثالث هو المجتمع الجديد الذى ينحو نحو التقدم إلا أن هيجل كان يرى « العقل » أو الروح القوة المحركة لهذا الجدل أو « الديالكتيك » ، أما ماركس فعنده أن « المادة » هى القوة المحركة ، وهو يعنى بالمادة هذه الصلة بين الإنسان والأشياء التى يترتب عليها « الإنتاج » ، والإنتاج هو الأصل فى الاقتصاديات .

ثم فسر ماركس التاريخ تفسيراً ماديا . وزعم أن النظام الاقتصادى هو العلة فى وقوع الأحداث التاريخية .

ونحن لا ننكر أن الاقتصاديات لها أثر عظيم فى حياة الشعوب ، وهى علة الحروب الأخيرة التى لانزال نكتوى بنارها ، غير أن إطلاق هذه القضية وتعميمها على سائر الحوادث مجازفة كبيرة . مثال ذلك ظهور الإسلام وانبثاقه من قلب جزيرة العرب ، وانتصار المسلمين وهم قلة فى العدد والعدد على الفرس والروم مع كثرة رجالهم ووفرة عتادهم ، كل ذلك من الأمور التى لا يمكن تعليلها تعليلا ماديا ، بل لابد من النظر إلى هذه العقيدة الجديدة وإلى هذا الإيمان العميق ، لنرى كيف انتصرت القوى الروحية على الكثرة المادية انتصاراً ساحقا ، وانتشر الإسلام انتشاراً سريعاً حتى شمل معظم العالم القديم فى أقصر زمان .

والفضل فى ذلك إلى الروح والإيمان لا إلى المادة .

وإن شئت مثالا قريباً لم يغب بعد عن الأذهان فانظر حال غاندى الذى تجرد عن الدنيا وزينتها ، وتأمل كيف تغلب على الغاصب المدجج بالسلاح وهو أعزل من كل سلاح مادى ماخلا الإيمان .

والإسلام فى جوهره ثنائى ، يقر بوجود الله وبوجود العالم ، والدنيا والآخرة ، والروح والجسد ، والنفس والبدن ، ولكنه يعلى من شأن الدين ويرفع منزلة الروح ويدعو إلى الحياة الآخرة ، ولا يحرم فى الوقت نفسه الإقبال على الدنيا بشرط التوسط والاعتدال . قال تعالى فى سورة الأعراف : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » .

أحمد فؤاد الأهوانى

مكتبتنا العربية

موازنة فى التعليم بين رابليه وبعض فلاسفة الإسلام

للأستاذ محمود الخضيري
المراقب المساعد للبحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر

يستحق الكاتب الفرنسى الحكيم فرانسوا رابليه Rabelais أن يدرس من جهات مختلفة ، وقد جرت العادة أن يقبل طلاب الآداب والتاريخ على قراءة كتبه فيخرج كل واحد منهم راضيا بما قرأ لأنه فاز بالاطلاع على آثار ممتعة يشيع فيها فن ساحر يجمع فى يسر ومرح بين سعة الإحاطة وحسن التوفيق بين المقاصد ، وهذا هو السر فى دوام الإقبال على مؤلفاته بالرغم من مرور أكثر من أربعمائة سنة على ظهورها وبالرغم من تقادم لغتها حتى أصبحت مختلفة فى المبنى والمعنى عن لغة العصر الحاضر .

كان رابليه خير معبر عن الحماس لاستكشاف المدنية القديمة وعلوم الأوائل بعد أن ظلت قرونا كامنة فى بطون المخطوطات لا يحفل بها غير حكماء العرب واليهود والقليل من الرهبان . ولكنه كان أيضاً شديد العناية بالكتب المقدسة ؛ فهو إذن ممن يرجع إليهم الفضل فى تحديد المدنية الأوربية الصحيحة القائمة على أساسين : أحدهما الديانة المسيحية ، والثانى الثقافة اليونانية الرومانية .

وسأكتفى فى هذا المقال بدراسة خطاب له مشهور وجهه على لسان والد إلى ولده وهو طالب علم فى باريس ، وفيه يرسم ما تنبغى دراسته من العلوم ، ثم أوازن بعد ذلك بين آرائه وآراء منسوبة إلى الفيلسوف الإسلامى ابن سينا ، وأستنتج من ذلك نتيجة أراها خطيرة لأنها تدعونا إلى إعادة تقديرنا لما هو معروف من تاريخ حياته ، وهذا الخطاب وارد فى الفصل الثامن من الكتاب الثانى من مؤلف رابليه المعروف باسم Pantagrvel وهو اسم الطالب الموجه إليه الخطاب .

قال رابليه ما ترجمته :

« أوصيك يا بنى أن تبذل شبابك فى الإفادة من تحصيل العلم والفضيلة . وإنك لمقيم فى باريس ولك فيها أستاذك والعالم . تفيدك باريس بما فيها من علوم حية ، ويعلمك أستاذك بالقدوة الحسنة . وإنى أريد أن تتعلم اللغات على خير وجه : فتتعلم أولا اللغة اليونانية على نحو مارسمه كونتليان[1] ثم اللغة اللاتينية ، ثم تدرس اللغة العبرية لتقرأ الكتب المقدسة ، وكذلك اللغة الكلدانية واللغة العربية ، وأن تعنى بأسلوبك فى اللغة اليونانية على مثال أفلاطون وفى اللاتينية على مثال شيشرون . وألا تترك شيئاً من التاريخ والقصص إلا استوعبته وتأكدت من حفظه ، وأن تستعين بما كتبه المؤلفون فى علم الهيئة . وفيما يختص بالفنون الشريفة[2] ، فإنى حببتها

(١) Quintilian عاش ما بين سنتى ٣٥ و ٩٥ بعد الميلاد واشتغل عشرات من السنين أستاذا للبلاغة فى روما وله كتاب مشهور فى تنشئة الخطيب رسم فيه المنهج المثالى للتعليم .

(٢) الفنون الشريفة arts liberales عددها سبع وهى النحو والخطابة والمنطق والحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وقد يضاف الى هذه الجملة علوم الأخلاق والطبيعيات والالهيات فتصير عشرة . والأرجح أن رابليه يعنى فى هذا الموضع بالعلوم الشريفة القسم الأول منها المحتوى على النحو والخطابة والمنطق وهو ما يسمى فى العصور الوسطى باسم Trivium.

مكتبتنا العربية

إليك عندما كنت صغيرا فيما بين الخامسة والسادسة من عمرك فامض فى دراستها ، وفيما يختص بالفلك اعرف جميع قوانينه . واهجر علم النجوم القائم على التخمين والحدس وصنعة لوليوس Lullius (أى الكيمياء القديمة التى يقصد بها تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب) لأن كليهما عبث . وفيما يختص بالقانون المدنى فإنى أريد أن تحفظ نصوصه الجميلة عن ظهر قلب وأن توازن بينها بحكمة .

وأما فيما يختص بمعرفة الطبيعة فإنى أود أن تفرغ للوقوف على أحداثها بعناية ؛ وألا يبقى بحر ولا نهر ولا نبع إلا عرفت جميع أسماكه . وينبغى أن تعرف جميع ما فى الجو من طيور وجميع ما فى الغابات من أشجار وشجيرات وفسائل وجميع ما على الأرض من نبات وجميع ما يكمن فى باطنها من معادن وأحجار الشرق كله والجنوب ، وألا يبقى شىء ما مجهولا لديك .

وعليك بعد ذلك أن تدرس كتب الأطباء اليونان والعرب واللاتين دون أن تزدرى علماء التلمود والكبال (علماء الشريعة وأصحاب العلوم الخفية من اليهود فى العصور الوسطى وكان منهم أطباء) واستعن بالكثير من الهياكل البشرية لتحصل على معرفة تامة بالعالم الآخر (العالم الصغير) الذى هو الإنسان .

واجعل من كل يوم بضع ساعات تبدؤها بمطالعة الكتب المقدسة وأولها باليونانية « العهد الجديد » ، ووسائل الرسل ثم بالعبرية « العهد القديم » .

وبالجملة فإنى أرى العلم لاحد له ، فإذا ماصرت رجلا فعليك أن تخرج من هدوء الدرس ودعته وأن تتعلم الفروسية وأنواع السلاح لتحمى بيتى وتنصر أصحابنا إزاء غوائل الأشرار .

وإنى أريد أن تمتحن فى أقرب وقت مقدار ما أفدته . وخير سبيل لذلك أن تنهض على ملأ من المستمعين مؤيدا لبعض الدعاوى من جميع أنواع المعرفة منتصرا لجميع الناس أو معارضاً إياهم ؛ وأن تغشى أمكنة أهل الأدب فى باريس وغيرها من البلاد .

ولكن لما كانت الحكمة لا تدخل نفساً خبيثة [1] كما يقول سليمان الحكيم : ولما كان العلم ، إذا لم يقترن بالضمير ، مهلكة الروح ، فإنه يجدر بك أن تعبد الله وأن تحبه وتخشاه وأن تجعل فيه جميع أفكارك وكل أملك وأن تتقرب إليه بالإيمان الذى تصنعه المحبة والإحسان بحيث لا تدع الخطيئة تفصيك عنه . واحذر عبث الدنيا ولا تشغل قلبك بالباطل ؛ لأن هذه الحياة طريق انتقال ؛ ولكن كلام الله يبقى إلى الأبد . وكن نافعاً لجميع من حولك وأحبهم كما تحب نفسك ، ووقر معلميك ، واهجر صحبة الذين لا تريد أن تتشبه بهم ، ولا تعطل ما أسدى إليك الله من نعم .

ثم عد إلى عندما تعرف أنك حصلت جميع ما هناك (فى باريس) من معارف لأراك وأدعو الله أن يباركك قبل أن أموت .

وليصحبك يا بنى سلام الله ونعمته » .

وقد حرصت على ترجمة الخطاب ليتبين قارىء اللغة العربية كيف يتصور رابليه التعليم المثالى

---

(١) كتاب الأمثال « الإصحاح الرابع عشر - العبارة السادسة » ونصها على حسب ترجمة حديثة هو « المستهزىء يطلب الحكمة ولا يجدها » .

مكتبتنا العربية

ويحصى العلوم والمعارف التى ينبغى أن يحيط بها الإنسان لكى يكون حكيما يجمع بين العلم النظرى الذى تتوارثه أجيال الإنسانية من عهد اليونان والتربية الوطنية ، وبين الدين الذى هو سياج المجتمع وعماد نظامه وأمله فى الحياة السعيدة . وهو لم يقنع بما بلغه الأوائل من معارف بل نصح أيضا بدراسة العربية والعبرية والكلدانية لينتفع بما دونه أهلها من علوم وليتمثل الحضارة الإنسانية فى أوسع حدودها . وأراد فوق هذا أن يستمر المتعلم فى مراحله المختلفة مواظباً على قراءة الكتب المقدسة كل يوم لكى تظل عاطفته الدينية فى نمو متصل .

وأشير فى هذه المناسبة إلى أن رابليه لم يخترع هذا البرنامج اختراعا ، ولم يدع ذلك ، وإنما ينحصر فضله فى التوسع والتنظيم وإحكام الوسائل لتحقيق الغاية من التعليم .

أوازن بعد ذلك بين أقوال رابليه فى نظام التعليم المثالى وبين برنامج الدرس والتحصيل الذى اتبعه ابن سينا على حسب ما يروى عنه فى ترجمته لحياته [1] .

قال ابن سينا فيما يذكر عنه : إنه ما كاد يتم عشر سنين من عمره حتى كان قد حفظ القرآن واطلع على كثير من الأدب . وفى رواية أخرى أنه لما بلغ سن الإدراك سلمه أبوه إلى معلم القرآن ثم إلى معلم الأدب ، فكان كل شىء قرأه الصبيان على الأديب أحفظها والذى كلفنى أستاذى كتاب الصفات وكتاب غريب المصنف ثم أدب الكتاب ثم إصلاح المنطق ثم كتاب العين ثم شعر الحماسة ثم ديوان ابن الرومى ثم تصريف المازنى ثم نحو سيبويه فحفظت تلك الكتب فى سنة ونصف ؛ ولولا تعويق الأستاذ لحفظتها فيما هو دون ذلك ؛ وهذا مع حفظى وظائف الصبيان فى المكتب » .

والمهم أن المرحلة الأولى من مراحل التعليم تنتهى فى سن العاشرة . وإذا سلمنا أنه قضى فيها سنة ونصف سنة كانت بدايتها فى سن الثامنة والنصف أو دون ذلك بقليل لتعلم الخط . ولنقل إن البداية فى سن الثامنة ، وتشتمل هذه المرحلة الأولى على تعلم النحو والشعر والأدب بجوار حفظ القرآن وتعلم الخط .

وأما المرحلة الثانية فإنها على نحو ما يصفها ابن سينا فيما نقل عنه تشتمل على الاستماع إلى عقيدة الوالد وأصحابه والاستماع إلى ما يجرونه على ألسنتهم من كلام فى الفلسفة والهندسة وحساب الهند ثم الاشتغال بالفقه على فقيه حنفى وعلم الجدل والمناظرة ودراسة الحساب على معلم خاص ثم دراسة المنطق والهندسة والهيئة على معلم آخر .

ثم اشتغل فى المرحلة الثالثة بتحصيل العلم بنفسه ودرس فيها العلم الطبيعى والإلهى وانتقل بعد ذلك إلى الطب وانتهى من هذه المرحلة وعمره ست عشرة سنة ولم يكف فى أثنائها عن الاختلاف إلى دروس الفقه والمناظرة .

وعنى فى المرحلة الرابعة بمراجعة ما حصله فى المنطق والفلسفة بجميع أجزائها واستغرق فيها سنة ونصف سنة بذل فيها مجهوداً مضنياً ليتيسر له فهم العلوم جميعاً والتحقق من صحة ما حصله . وكان آخر ما راجعه هو العلم الإلهى ولم يتيسر له فهمه إلا بفضل كتاب صغير للفارابى هو أشبه بالدليل المرشد فى هذا العلم . ثم ساعدته الظروف على أن يختلف فى مدة نصف سنة إلى خزانة الأمير نوح بن منصور ليقرأ فيها من

(١) ابن أبى صيبعة ، طبقات الأطباء ج ٢ ص ٢ - ٤

مكتبتنا العربية

الكتب مالم يقرأه من قبل وبذلك أتم التحصيل وعمره ثمانى عشرة سنة .

ونلاحظ أن ابن سينا يكون قدقضى فى تعليمه عشر سنوات كاملة وهذا رقم ينبغى ألا ننساه .

وإذا أحصينا العلوم التى درسها فى هذه المدة على حسب تصنيفه إياها وجدناها عشرة .

النحو ؛ والأدب والشعر ومعهما حفظ القرآن ؛ والفقه والمناظرة ؛ والحساب والمنطق ؛ والهندسة ؛ والهيئة ؛ والطبيعى ؛ والإلهى ؛ والطب .

ولنوازن هذا بما كتبه حنين بن إسحق المتوفى سنة ٢٦٤ للهجرة أى قبل ميلاد ابن سينا بأكثر من مائة سنة ، وذلك فى كتابه المعروف بنوادر الفلاسفة الحكماء وآداب المعلمين القدماء . وهو كتاب لا يزال مخطوطا ونتمنى أن نراه محققا منشوراً فى القريب ، قال حنين بعد أن أورد خطبة بليغة منسوبة إلى أرسطو : « وهذا الصنف من الآداب أول ما يعلمه الحكيم للتلميذ فى أول سنة مع الخط اليونانى ثم يرفعه من ذلك إلى الشعر والنحو ثم إلى الحساب ثم إلى الهندسة ثم إلى النجوم ثم إلى الطب ثم إلى الموسيقى ثم بعد ذلك يرتقى إلى المنطق ثم الفلسفة . فهذه علوم عشرة يتعلمها المتعلم فى عشر سنين »[1] .

وبالرغم مما يظهر من اختلاف بين ترتيب حنين لهذه العلوم العشرة والترتيب الذى اتبعه ابن سينا فى تعليمه إلا أنه لا يفوتنا أن ابن سينا نفسه أشار إلى عودته إلى المنطق بعد انتهائه من دراسة الطب ليطبقه على جميع مادرسه من علوم ؛ كما أنه أشار إلى استعصاء العلم الإلهى على فهمه فأخذ يعاود قراءته بعد ذلك حتى اهتدى إلى كتاب الفارابى فيه ، فتيسر له بذلك إدراكه وفهمه ، وعلى هذا النحو كانت الفلسفة الإلهية هى آخر ما انتهى من دراسته فى برنامجه .

وهكذا يطابق برنامج ابن سينا فى الدراسة والتحصيل ما ذكره حنين بن إسحق عن نظام اليونان فى ترتيبهم لبرنامج التعليم مطابقة جوهرية ولا يختلف عنه إلا فى إضافة ابن سينا حفظ القرآن ، والفقه دون أن يغير فى الترتيب .

وكذلك يطابق البرنامج الذى رسمه رابليه للتعليم فى جوهره نفس البرنامج الذى يقال إن ابن سينا اتبعه . والخلاف بين البرنامجين راجع إلى اختلاف الرجلين فى الدين واللغة والزمن . ويمتاز برنامج رابليه عن برنامج ابن سينا فى أنه يعنى بالتربية الدينية عنايه أكثر .

وفى الجملة نرى أن برنامج ابن سينا أقرب من برنامج رابليه إلى النظام الذى كان يتبعه المتعلمون اليونانيون ، ولم يدخل عليه من التعديل إلا حفظ القرآن ودراسة الفقه . ثم إن ابن سينا يجعل المواظبة على دراسة الفقه فى جميع مراحل التعليم مكان ما ينصح به رابليه من المواظبة على قراءة الكتب المقدسة . وكلاهما يختلف أيضاً عن النظام اليونانى فى إدخال الفقه أو القانون فى صميم البرنامج الدراسى . ثم إن رابليه أشار إلى تعلم الفروسية وأنواع السلاح ولم يشر ابن سينا إلى شىء من ذلك ، لأن هذا يخرج عن تكليف المعلمين فهو من واجبات المتعلم بعد الانتهاء من التحصيل وإلى ذلك أشار رابليه على كل حال .

ومن الواضح أن اليونان كانوا يتبعون فى التعليم ما ذكره حنين ابن اسحاق من برامج يكلف

(١) مقتبس فى طبقات الأطباء لابن أبى صيبعة ج ١ ص ٦٣ ومحبوب القلوب لقطب الدين اللاهجى ص ١١٠

مكتبتنا العربية

في الثقافة العامة

الهندوكية

دين في الناس عتيق

للدكتور احمد زكي بك

الهندوكية دين من أغرب الأديان ، ومن أقدم الأديان ، ومن أمتع الأديان دراسة ، لمن عنده الدراسة متعة ولذاذة ، ولاسيما إذا كان موضوعها الإنسان ، فى فكره ، وفى عاداته ، وفى تطوره .

ومن غرابة هذا الدين أنه دين ولا دين
أو هو دين تضمن أديانا

وتبحث عن هذا الدين أو هذه الأديان فلا تجد لها مساكا يمسكها ، أو حدوداً تحدها ، أو معالم بينة واضحة تدل عليها ، كما تدل سمات وجه الرجل عليه .

وعلى انبهام حدود هذا الدين ، فقد اتسعت هذه الحدود حتى وسعت كل شيء ، فما من مذهب جاء يخطبه إلا خطبه ، وما من عقيدة جاءت تحتويه إلا احتواها . فهو كالسوق الهائلة القائمة الصاخبة ، فى غير نظام ، تجد فيها البضاعة الجيدة والرديئة ، وتشترى فيها الشيء الغث والشيء السمين .

ويرجع هذا إلى أنه محصول السنين ، وأن أصوله تضرب فيما قبل المعروف من القرون .

وجاء القرن بعد القرن فأودع كل قرن نصيبه فيه حتى زخرت خزانة هذا الدين بالكتب العديدة الضخمة ، التى تدخلها قارئا فتضل فيها ، للذى فيها من سعة ، ومن اعوجاج طرق واختلاط سبل ، ومن تناقض وتنافر ، لأن الذى كتب ، وقلما عرف من كتب ، لم يكن قلبا واحدا ، ولكن عدة من أقلام . والذى أملاها لم يكن رأسا مفكراً واحداً بل عدة من رؤوس ، لم يجمعها الزمان الواحد ، ولا المكان الواحد ، فتباينت ألواناً واختلفت طقوساً ومذاهب .

وللإسلام قرآنه ، وللمسيحية إنجيلها ، وللعبرانية توراتها ، حتى الكنفوشية لها كتاب يصف تقاليدها وتسأل فى الهندوكية عن كتاب واحد كهذا فلا تجد شيئا .

ويعتنق هذا الدين نحو من ٢٦٠ مليون نسمة من خلق الله .

المعلم بالنهوض بأعبائها ، وكذلك فإنه مما لا شك فيه أن رابليه رسم نظاما مثاليا للتعليم ، وإن كان يتفق فى بعض أجزائه مع ما كان يجرى عليه المتعلمون فى زمانه . أما البرنامج الذى اشتهر أن ابن سينا اتبعه فى تعليمه فإننا نرجح أنه لا يعدو أن يكون من البرامج المخترعة على غرار البرنامج اليونانى .

محمود محمد الخضيرى

مكتبتنا العربية

في الثقافة العامة

الهندوكية

دين في الناس عتيق

للدكتور احمد زكي بك

الهندوكية دين من أغرب الأديان ، ومن أقدم الأديان ، ومن أمتع الأديان دراسة ، لمن عنده الدراسة متعة ولذاذة ، ولاسيما إذا كان موضوعها الإنسان ، فى فكره ، وفى عاداته ، وفى تطوره .

ومن غرابة هذا الدين أنه دين ولا دين
أو هو دين تضمن أديانا

وتبحث عن هذا الدين أو هذه الأديان فلا تجد لها مساكا يمسكها ، أو حدوداً تحدها ، أو معالم بينة واضحة تدل عليها ، كما تدل سمات وجه الرجل عليه .

وعلى انبهام حدود هذا الدين ، فقد اتسعت هذه الحدود حتى وسعت كل شيء ، فما من مذهب جاء يخطبه إلا خطبه ، وما من عقيدة جاءت تحتويه إلا احتواها . فهو كالسوق الهائلة القائمة الصاخبة ، فى غير نظام ، تجد فيها البضاعة الجيدة والرديئة ، وتشترى فيها الشيء الغث والشيء السمين .

ويرجع هذا إلى أنه محصول السنين ، وأن أصوله تضرب فيما قبل المعروف من القرون .

وجاء القرن بعد القرن فأودع كل قرن نصيبه فيه حتى زخرت خزانة هذا الدين بالكتب العديدة الضخمة ، التى تدخلها قارئا فتضل فيها ، للذى فيها من سعة ، ومن اعوجاج طرق واختلاط سبل ، ومن تناقض وتنافر ، لأن الذى كتب ، وقلما عرف من كتب ، لم يكن قلبا واحدا ، ولكن عدة من أقلام . والذى أملاها لم يكن رأسا مفكراً واحداً بل عدة من رؤوس ، لم يجمعها الزمان الواحد ، ولا المكان الواحد ، فتباينت ألواناً واختلفت طقوساً ومذاهب .

وللإسلام قرآنه ، وللمسيحية إنجيلها ، وللعبرانية توراتها ، حتى الكنفوشية لها كتاب يصف تقاليدها وتسأل فى الهندوكية عن كتاب واحد كهذا فلا تجد شيئا .

ويعتنق هذا الدين نحو من ٢٦٠ مليون نسمة من خلق الله .

المعلم بالنهوض بأعبائها ، وكذلك فإنه مما لا شك فيه أن رابليه رسم نظاما مثاليا للتعليم ، وإن كان يتفق فى بعض أجزائه مع ما كان يجرى عليه المتعلمون فى زمانه . أما البرنامج الذى اشتهر أن ابن سينا اتبعه فى تعليمه فإننا نرجح أنه لا يعدو أن يكون من البرامج المخترعة على غرار البرنامج اليونانى .

محمود محمد الخضيرى

مكتبتنا العربية

الهندوكية والآرية

وتبدأ القصة المعروفة لهذا الدين من الألف الثالثة قبل ميلاد المسيح. فمن بقعة غير مؤكدة من بقع الأرض، فى آسيا أو فى أوربا، نزحت قبائل عن أرضها، وتفرقت، ومنها من اتجه إلى أوربا فسكنها، فكان منهم أكثر أهل أوربا، ومنها من اتجه إلى آسيا فتفرق فى أرمينية وإيران وهندستان أو الهند. فهؤلاء الأخيرون حملوا عقائدهم إلى شمال الهند فكانت منها الهندوكية بعد تطورها على السنين.

ويستدل الباحثون على هذا من بحوث مقارنة فى لغة هذه الأقوام، وفى أديانهم، وفيما كشف الحفارون فى حفائر الأرض.

وتعرف هذه الأمم التى جمعتها هذه الأصول بالآرية.

ولم يحمل الآريون إلى الهند، الهندوكية، فى صورها الأولى فحسب، فهم حملوا اليها كذلك لغتها، السنسكريتية.

ولقد حاول المؤرخون والباحثون تقسيم الهندوكية إلى اطوار، تصف ما طرأ عليها من اختلاف كبير، ومنهم من جعل هذه الأطوار ستة، ومنهم من جعلها سبعة، ومنهم من زاد. ونحسبنا أن نجعلها ثلاثة أطوار لا رابع لها، مقتصرين على الخطوط العريضة الكبرى التى فصلت ما بين طور كبير وآخر كبير.

طور الهندوكية الأول، الفيدوى

ونسبته إلى الفيدا، وهى كلمة معناها العلم أو العرفان، ويقصد بها هنا العرفان المقدس، وقد نزل به الإلهام على جماعة من بينهم اختارتهم الآلهة دون غيرهم لهذا، وقامت هذه الجماعة المختارة تنقله وتنشره فى الناس أناشيد يتغنى بها الكهنة للناس. كان هذا قبل ألف سنة قبل ميلاد المسيح، والآرية قائمة. فأصل هذا العلم أو العرفان، أصل الفيدا، آرىّ. واحتفظوا به بالتواتر شفاها، من أذن للسان، ومن لسان لأذن، خمسة قرون. ثم هم سجلوه فى كتب ثلاثة، أولها الرج فيدا، أو العلم الأناشيدى، وهو الأصل، وبه ١٠٢٨ أنشودة. ومن هذا الأصل اشتقوا الكتاب الثانى، وأسموه الساما فيدا، ثم الكتاب الثالث، وأسموه الياجور فيدا. ورابعاً أدخلوا فيها أدعية للحجابة والتعويذ، اشتقوه من الأصل القديم وما استحدث من بعده، وأسموه الأثارفا فيدا، نسبة للكهنة الذين جمعوه، واسمهم الأثارفانيون.

آلهة الطور الاول، الفيدوى

وتأخذ تبحث فى هذه الكتب الأربعة، هذه الفيدات الأربع، عما يعبدون، فيتعبك البحث، وأنت من بعده لا تكاد تخرج على شىء متناسق، يأتلف أوله وآخره. ولا عجب، فهذا تراث لم يعرف له على التحقيق أول، ولم يعرف من أوحاه وإلى من أوحى، ومتى أوحى به وكيف. وهى كتب لم يعرف من كتبها أو كتبوها، أو من جمعها أو جمعوها. والذى تقول به لم يصدر

مكتبتنا العربية

عن سلطة تستطيع أن نشير إليها فنقول هذه أصدرتها ، ولم تقرره جماعة نستطيع أن نشير إليها فنقول هذه الجماعة هي التي أقرتها أوجمعتها . إنه ميراث لاصاحب له انحدر من السنين كما ينحدر الشيء من السماء ، لاتعرف له مأتى ، أو كالماء ينحدر من الجبل لا تبلغ له مصبا ، لأنه بدأ في الأحراج والأدغال حيث لا تستطيع أن تصل قدم .

وتبحث فيه عن الآلهة فتحسب أحياناً أنها أسرة واحدة لإله واحد اسمه دايوس (قارن بين هذا وبين إله الآلهة زيوس عند الإغريق) . وتبحث عن الآلهة فتقع على الإله أورانوس ، وإذا بهم يدعونه إله الآلهة . وتبحث عن الآلهة فتجد أحياناً أنهم يثلثون ، كما ثلث قدماء المصريين في مثل زمانهم أو قبله ، أو كما ثلث النصارى . فالإله ، أجنى ، ويمثل النار (قارن بين هذه وبين الكلمة الأغريقية ، إجنس ، ومعناها النار) ، أو هو إلهها ، والإله إندرا وهو إله المطر ، والإله ، سوريا ، وهو إله الشمس . أو هي آلهة ثلاثة الأرض والهواء والسماء .

وإذ كانت الآلهة ، لزمت القرابين .

وكانوا يتقربون إلى الآلهة بالهدايا يهدونها على نعمة سلفت . ثم أخذوا يهدونها لنعم ترجى أو نقم تدفع .

ويقيمون الأفراح ويدعون الآلهة إليها ، ويجمعون لهم ولأنفسهم فيها كل مستطاب . فالآلهة تأكل مما يأكل الناس . وهي كالناس تحب اللبن والزبد والخبز واللحم ، لحم الأغنام والمعز والثيران والأبقار . وكانت الأبقار عند ذاك تؤكل .

وغالوا في الذبائح التي يذبحونها للآلهة ، فكانوا يذبحونها بالمئات ، وينزل الآلهة من السماء الثالثة ضيوفاً على أرباب هذه الولائم ، فيأكلون ويقصفون على الأناشيد والترانيم .

وجعلوا للآلهة أزواجاً ، زيادة في الترفيه ، وانسجاماً مع ما يرون من سنن الوجود .

والآلهة كانت من أصول ، كالناس ، فانية . ثم نالوا الخلود .

والآلهة لها وجوه ولها ، كالناس ، أعضاء . وأحياناً يلبسونهم ملابس الكهنة ، وأحياناً ملابس الجند ، والكل يركبون الهواء ، في عربات من نور ، تجرها فاخرات الجياد .

ومن الآلهة الإناث ، كإلاهة الأرض وإلاهة الليل ، ولكن ليس لهن خطر الرجال ، وليس لهن رأي في حكم الدنيا .

والصفة الغالبة للآلهة القوة ، وهم بها يديرون هذا الكون ، وهم بها يقهرون جنود الشر فيه . ولهم على الخلائق الحكم المطلق ، لا دفع لأمرهم ، ولا يستطيع مخلوق أن يعيش يوماً فوق اليوم الذي حددوه لموته . وهم على خلق حميد ، أمناء فلا يخونون ، وهم أصدقاء لكل ذي عدل وصدق وهم خصوم كل ذي خطيئة أو جرم .

ولاشتراك الآلهة في كل صفة محمودة ضاعت ما بينهم الفروق ، فليس في أحدهم من صفة اختص بها فصارت عليه علماً . ومن أجل هذا كانت الناس تدعو أكثر من إله في المأزق الواحد أو النازلة الواحدة ، فكل سواء في دفعها ، قمين

مكتبتنا العربية

بتفريجها ، وزاد هذا الإبهام بين الآلهة على الذهن وكان من هذا أنا نجد فى الأناشيد المتأخرة من «الفيدات» أن الآلهة صور عدّة لموجود مقدس واحد . وكان بين هذا وبين توحيد الله خطوة واحدة لم يخطها أحد عند ذلك قط ، ولكنها مهدت للفكر الذى قضى بتوحيد الكون وتأليهه فى الدور الهندوكى الثانى ، دور البراهمة .

تأليه الحيوان وتقديس الجماد

فى الطور الأول

وأول هذه الحيوانات وأكثرها ذكراً فى «الفيدا» البقر ، فالبقرة هى التى تجر عربة الفجر لتطلع على أهل الأرض بالنور ، وسحب السماء مثلوها فكانت أبقاراً ، وهى تدر الخير على الناس مدراراً ، وبلغوا بها من حيث الرفع إلى أن جعلوا منها آلهة ، ومنعوا ذبحها ، وهذا أقل ما يصنع لمن بلغ هذا المبلغ الرفيع .

ومن الحيوانات التى ذكرت فى الفيدا ، فكان لها من أجل ذلك فى التقديس مكان بالذى صنعت ، الجدى والحمار . وبورك الحمار بما خدم الإنسان وبما شقى فى هذه الدنيا ، والقرد والنسر والثعبان .

والأنهار والجبال ألهوها وقدسوها .

والظاهر أنهم لم يكونوا قد عرفوا الأوثان بعد ، فهى لم يذكر منها فى كتبهم شىء .

أبطالهم

وفى الفيدات أقاصيص ، وللأقاصيص أبطال وهم عادة أبطال حرب ، ولكن أبطال الفيدات حكماء ، وأولهم اسمه «مانو» وهو الإنسان الأول ومع هذا فله أب مذكور ، وهو كنوح جاءه الطوفان فأغرق ما أغرق ، أغرق كل الخلائق ونجا هو فى سفينته .

والأبطال تلعب فى الهندوكية ، من بعد هذا الطور الأول ، دوراً كبيراً .

الشياطين

ونذكرهم بعد أبطال الناس ، فى موضعهم الأوفق ، فهم أعوان الشر وطلابه . والشياطين فى الهندوكية الأولى صنفان : شياطين سماء وشياطين أرض . أما شياطين السماء فيخاصمون الآلهة ، ويجرى بين هؤلاء وهؤلاء شجار ، وتقوم حرب . وقد يغلب الشيطان فى أول الأمر ثم ينخذل ويلقى مغبة أمره . منهم شيطان يقوم بكشف الشمس . والآلهة تقتل الشياطين فتموت ، فهى ، كالناس ، غير خالدة .

أما شياطين الأرض فيخاصمون الناس . وهى تظهر للناس فى صورة طير أو حيوان . وتأخذ شكل الإنسان إمعانا فى الخديعة . وهى تدخل جسم الإنسان وتلبس جلده ، وتصيبه بمرض الجسم أو مرض العقل . ومقصدها فناؤه ، فهى تحب اللحم وتتحرق إلى شرب الدماء .

العبادات

وأولها الحمد ، يتوجه به المتعبد إلى الآلهة .

مكتبتنا العربية

وهو يحمدهم ويكبرهم ويسبح لهم ليحظى بحبهم ، ومن وراء الحب الخير الكثير .

وهو يتوجه إليهم أيضاً ليغفروا له الذنوب

ومن العبادة الأضاحي ، يضحى بها المتعبد للآلهة ، ليكسب ودهم . ويقذف بالأضحية فى فم النار ، فهى فم الآلهة ، وعن طريقها تذهب الأضحية إلى الإله المقصود إن كان الإله فى الماء قذفوا الأضحية فى الانهار والبحار . وإن كان فى الهواء رفعوها إليه . وللأضاحى مراسم طويلة

ومن العبادة ، غير التوجه إلى الآلهة ، التفرغ إلى الشياطين ، لدفع شرورهم ، بعون الآلهة ، قليلا ، وبالحجب والتعاويذ وبالسحر ، كثيراً .

وقامت بين الناس وآلهتهم فئة من الناس ، هم الكهان ، تخصصوا لهذه الوساطة الخطيرة بما كسبوا من علم ، وبما مهروا فى هذه الصناعة ومراسم العبادة استطالت وتعقدت ، فكان لابد لها من دارسين ، ومعلمين ، فكان هؤلاء دارسوها ومعلموها وبقيت هذه الكهانة فى أسر عرفت بها ورضيهم الناس عليها .

الموت وما بعده

ويموت الفرد منهم فتخرج روحه من جسمه ويحرق الجسم . أما الروح فتأخذ سبيلها إلى السماء حيث ذهب من قبل الآباء : وهناك يعود إليها جسمها . وهناك يلقى الفرد أمه وأباه ، والإخوة والأخوات والأقارب ، ويلقى الزوجة والأبناء . وهناك المتع التى لا حد لها فاللبن والعسل والخمر تجرى أنهاراً والموسيقى تخرج من أوتارها ، والأغانى . والمرض لا يعرف ، ولا تعرف الهموم والأحزان ، ولا يعرف الفقر ، وأبقار مختلفة الألوان تجيب المرء إلى ما يشاء .

ولم يكن مذهب تناسخ الأرواح قد نشأ بعد .

فهذه هى الجنة أو ما يشبهها عندهم . وعندهم كذلك جهنم . وكانت عندهم فى الأرض ، فى أسفل سافل منها . فيها الظلام وفيها العذاب .

وأخيرا

وأخيراً فهذا هو الطور الأول من أطوار الهندوكية ، فيه سعة بالذى تخلف منه من مكتوب ومسطور . إلا أنها سعة غير مجزية لأن فيها إبهاما وفيها تناقضاً . فان أشكل عليك شىء فهو من بعض إشكال هذا الطور . ويتلو هذا الطور طور البراهمة ؟

أحمد زكى

من الحكم المأثوره

حاسبوا انفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم .

* * *

الموت لا يكون إلا مره

والموت أحلى من حياة مرة

الدنيا كالنار ، قليلها متاع وكثيرها بوار .

مكتبتنا العربية

انتعاش الإسلام في الجمهورية التركية

للدكتور محمد عوض محمد بك

عندما تولى مصطفى كمال زعامة الأمة التركية، لتحريرها من نير الظلم والاستعباد الأجنبي بعد الحرب العالمية الأولى، أسلم اليه الشعب الزمام - وأصبح الآمر الناهي المطاع في كل شيء. وقد كللت جهوده بالنجاح - واستطاع أن يهزم الجيوش اليونانية شر هزيمة ويطردها من أرض الوطن - وأن يقضي على النظام الاستعماري في منطقة البوسفور والدردنيل - ويضطر الإنجليز إلى الانسحاب منها بقواتهم العسكرية وبعثاتهم المدنية - فأمكن لجيشه أن يسترد الآستانة والجزء الأوربي من تركيا كما سبق له بسياسته الجريئة أن استرد مقاطعات قارص وأردهان من روسيا - وقليقية من فرنسا - وأمكنه أن يملي شروطه في معاهدة لوزان على البريطانيين واليونان.

لا شك أن ظروفاً عديدة ساعدت مصطفى كمال على إحراز هذا النصر الباهر، ولا مراء أيضاً في أن كثيراً من الفضل يرجع إلى تأييد عدد كبير من زملائه الأكفاء، ولكن لا شك أيضا أن الفضل الأول يرجع إلى قيادته الحازمة وما رزق من صفات الجرأة والهمة والدأب إلى جانب نبوغه في القيادة العسكرية. وكانت الظروف تقضي على الأمة التركية بأن تلتف حول قائد مغوار جريء يقودها في أكبر محنة تعرضت لها. فكان مصطفى كمال هو ذلك القائد.

أكسبه نصره الباهر مكانا ممتازا قلما أحرزه قبله زعيم. وقد تعودت الأمة أن تطيعه طاعة عمياء، وهو يكافح لتحرير الوطن أربع سنين: فلما انجلت الغمة وانجابت المحنة - وجدت نفسها لا تزال تطيعه طاعة عمياء وتأتمر بأمره في كل صغيرة وكبيرة. قلدته الزعامة لكي يقودها في محاربة أعدائها - فلم يكن بد من أن يظل حاكمها المطلق وزعيمها الأوحد بعد أن هزم العدو هزيمة ساحقة. ورأى مصطفى كمال أن النصر على العدو ليس الغاية الوحيدة، بل هو أيضا وسيلة لتحقيق غايات أخرى يرمي بها إلى نهضة تركيا الحديثة والرقي بها إلى مستوى الأمم الغربية. وأن يتم هذا كله بسرعة هائلة وفي أقصر وقت ممكن. ولذلك لا بد له أن يظل الحاكم المستبد، وألا يسمح لفرد أو لمجموعة من الأفراد أو طائفة من الطوائف أن تعارض أمره وإرادته، أو تقيم أية عقبة في سبيل ما يرى هو إدخاله من التغييرات في نظام الدولة وفي حياة أبنائها وبناتها.

ومن الناس من يرى أن مصطفى كمال نفسه، كان يرمي في النهاية إلى أن يقوم في تركيا بعد حقبة من الزمن نظام برلماني ديمقراطي حر، حين يؤون الأوان لإقامة مثل هذا النظام، ولكنه كان على كل حال مصمما أن يدخل في بلاده أنظمة جديدة بسرعة. قبل أن ينشأ مثل هذا النظام.

ولعل هذا الأمر لم يشغل بال الزعيم كثيراً، لأنه على كل حال أمر لا يزال بعيداً، وأمامه برنامج لا بد من تنفيذه بسرعة. ويهمنا من هذا البرنامج المسائل التي لها صلة بالدين من قريب أو بعيد،

مكتبتنا العربية

ونخص بالذكر منها إلغاء الخلافة ، وجعل الدولة « علمانية » أى ليس لها دين رسمى . ولم يكن معنى هذا اضطهاد الدين الإسلامى ، بل معناه أن الدين مسألة شخصية بحتة ، لاشأن للدولة بها . ومما يتصل بذلك إلغاء القوانين المبنية على الشريعة ، وإنشاء قوانين جديدة مستمدة من شرائع الدول الغربية .

ثم اتبع ذلك بتحريم التعليم الدينى فى المدارس ، وجعل يوم الأحد هو العطلة الأسبوعية ، وتحويل مسجد آيا صوفيا فى الآستانة إلى متحف ، والاستيلاء على أموال الأوقاف ، وإلغاء الطرق الدينية المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، والاستيلاء على ممتلكاتها ، وحظر حفلاتها واجتماعاتها .

وهناك أعمال أخرى قد لا تكون ذات صلة مباشرة بالدين ، ولكنها منبعثة من نفس الروح التى أملت تلك الإجراءات ، مثل استبدال الكتابة اللاتينية بالعربية ، والتقويم الجريجورى بالتقويم الهجرى ، وإغلاق الأضرحة والمزارات . كما صدرت أوامر بأن يكون الأذان والصلاة باللغة التركية . وأغلقت المعاهد العليا التى أنشئت لتخريج رجال الدين ، وجرد هؤلاء من كل سلطة وتعرضوا لبعض الضيق والاضطهاد .

وليس من شأننا هنا أن نتعرض لهذه الأعمال بالنقد أو التجريح ، غير أننا لا نملك أن نلاحظ أنها فيما يبدو لم تؤثر تأثيراً عميقاً فى الأمة . وظل الشعب يمارس دينه ، ويحترم رجال الدين . وحتى الطرق الصوفية نفسها لم تزل آثارها تماماً . وقد حدث فى سنة ١٩٣٠ ، أى بعد صدور القانون بحلها بنحو خمس سنوات أن كان أحد رجال الدين فى بلدة بالقرب من أزمير يخطب فى أتباعه وينقد الحكومة وسياستها ، فتعرض له ضابط متحمس يدعى كوبيلاى ، فما كان من الجمهور إلا أن اعتدى على الضابط ، وانتهت المشاحنة بقتله (١) .

وأمر آخر لا بد من الإشارة إليه . وهو أن الدولة التى أسسها كمال أتاتورك ، كان من شأنها على الرغم من تلك الإجراءات ، أن تظهر الدين الإسلامى فى تركيا على غيره من الأديان ، فقد عمل مصطفى كمال على إخراج اليونان وهم مسيحيون من تركيا ، وأن يستبدل بهم الأتراك المقيمين فى مقدونيا وغيرها من البلاد الخاضعة لحكومة أثينا . والمقياس الوحيد الذى قامت عليه المبادلة هو نقل المسيحيين الأرثوذكس من تركيا ، ونقل المسلمين من اليونان . وفى هذا ما فيه من تقوية الصفة الدينية للدولة التركية الجديدة . بحيث أصبحت كلمة تركى ومسلم من المترادفات .

وقد بقيت بقية من المسيحيين واليهود فى الدولة الجديدة . وكان أفراد هذه الطوائف فيما مضى يحتلون كثيراً من الوظائف ويتمتعون بكثير من النفوذ . ولكنهم لم يلبثوا أن أقصوا عن مناصب الدولة ، وحرموا ما كان لهم من الخطر لأن الدولة الجديدة تركية ، تؤثر الأتراك . والصفة الرئيسية التى تميز التركى من غيره هى الإسلام . ولذلك أصبح كثير من الأكراد والعرب المقيمين فى استامبول وغيرها من البلاد التركية يوصفون رسمياً بأنهم ترك .

ومن المعروف أن كثيرا من قادة الرأى فى تركيا لم يكونوا راضين عن كثير من الأعمال التى قامت بها الدولة للإقلال من شأن الدين

(١) كرمت الحكومة ذكرى هذا الضابط بأن أقامت له نصبا تذكاريا - تقام حوله حفلة كل عام فى موعد وفاته ، غير أن هذا الأمر قد عطل حديثاً ، لأنه كان مثار اضطراب وشجار

مكتبتنا العربية

ورجاله . ولكنهم لم يستطيعوا مقاومة الإرادة الجبارة التى تهيمن على شئون الدولة كلها . والتى لم يكن لديهم أمامها حول أو قوة .

لو أن أتاتورك كان حياً اليوم لما أريت سنه على الواحدة والسبعين ، وهى ليست بالسن النادرة فى أعمار الرجال : غير أن إرادة الله شاءت أن تهدأ تلك النفس الثائرة ولم يتجاوز صاحبها منتصف الحلقة السادسة من العمر ، فطواه الردى . وتقلد عصمت أنونو شئون الدولة فتوقع غير قليل من الناس أن كثيراً من الأشياء التى لم يكن لها سند تركن إليه سوى تلك الإرادة القوية ، مقضى عليها بالزوال : بعد أن زالت القوة الدافعة التى كانت تدفعها فى غير رفق ولا هوادة :

ولكن هذا التغيير لم يحدث فجأة بل حدث بالتدريج . وظهرت آثاره بقوة فى الأعوام الأخيرة بوجه خاص فى كل ما له صلة بالدين . والذين يذكرون الجهود الجبارة التى بذلها الزعيم الراحل للإقلال من شأن الدين ، سيدهشهم فى زيارة عابرة لتركيا اليوم أن يلاحظوا التطورات التالية :

١ — إعادة الأذان باللغة العربية .

٢ — تلاوة القرآن من محطات الإذاعة الحكومية ثلاث مرات فى الأسبوع على الأقل

٣ — الاهتمام الرسمى بالأعياد الدينية بعد أن كانت مهملة .

٤ — زيادة تعمير المساجد بالمصلين زيادة واضحة .

٥ — إنشاء مساجد جديدة بواسطة الدولة والهيئات الحرة والأفراد .

٦ — ازدياد المؤلفات الدينية التى تخرجها المطابع زيادة هائلة . وإنشاء المجلات الدينية التى لا تتردد اليوم فى انتقاد السياسة القديمة للدولة . ومن أشهر هذه المجلات سبيل الرشاد ، وسلامت ، ودائرة المعارف الإسلامية التركية ، ثم مجلة منطرفة اللهجة والمذهب تدعى بيوك دوغو (الشرق الأكبر) .

٧ — عودة التعليم الدينى إلى المدارس الحكومية .

٨ — إنشاء كلية اللاهوت فى جامعة أنقرة حيث تدرس علوم الدين والتاريخ الإسلامى وبعض العلوم الاجتماعية والطبيعية وذلك لتخريج أفواج جديدة من رجال الدين .

لا شك أن هذه التطورات كلها تمثل حركة جديدة فى الجمهورية التركية ، وفى كل منها خروج واضح على ذلك النظام العلمانى الذى كان ركنا من أهم أركان الدولة .

وكان من نتائج هذه التطورات أن كثيرا من المثقفين الذين كانوا فيما مضى يخشون التظاهر بالدين ، أصبحوا يجهرون بإقامة شعائر الدين ، دون أن يخشوا أن ينالهم أذى فى أرزاقهم أو مناصبهم . وأقبل الخاصة والعامة على أداء فريضة الحج وبلغ عدد الناذحين لتأدية الفريضة قرابة العشرة آلاف فى العام الماضى ، وأرسلت ثلاث من الصحف اليومية مراسلين فى موسم الحج لمصاحبتهم وإرسال أنبائهم وأنباء الحج إلى الجرائد.

وهكذا أصبح من الواضح أن الانتعاش الدينى فى تركيا أصبح حقيقة ملموسة ، يدركها بوجه خاص ، بل ويندهش لها . من زار تركيا فى العام الماضى ، بعد أن رآها منذ بضعة عشر عاما ؛ غير أن المطلعين على حقيقة الحال فى أنحاء البلاد المختلفة كانوا واثقين تمام الثقة أن هذا الانتعاش آت لا ريب فيه ، لأن الوكود الدينى كان شيئا مصطنعا فرضه الاستبداد على كره من قادة الرأى

مكتبتنا العربية

ودون أن يكون له سند من إرادة الشعب .

ولم يكن بد بعد هذا الكبت الطويل العنيف أن يكون الانتعاش مصحوبا ببعض مظاهر التطرف . ففى شهر فبراير من العام الماضى ، ظهرت حملة تخريبية، قامت بتحطيم كثير من تماثيل كمال أتاتورك المنتشرة فى طول البلاد وعرضها . ولم يسلم من هذا التخريب حتى النصب الضخم المقام فى العاصمة ، واضطرت الحكومة إلى إصدار قانون يقضى باحترام ذكرى الزعيم .

قامت بهذه الأعمال العنيفة جماعة تنتسب إلى الطريقة « التيجانية » يتزعمها اليوم رجل من المثقفين ثقافة قانونية يسمى كمال بلاوأغلو ، وهو يزعم أن أتباعه يبلغون الأربعين ألفا ، والطريقة التيجانية من الطرق المعروفة المشهورة ، نشأت فى بلاد المغرب فى أواخر القرن الثامن عشر ثم انتشرت فى إفريقية ووادى النيل ، ولها فى السودان أنصار وأتباع ولم يؤثر عنها العنف والشدة ولذلك نرى السلطات فى كثير من الأقطار راضية عنها بوجه عام

ولم تكن الطريقة التيجانية معروفة فى تركيا وقت تأسيس الجمهورية التركية ، وإذا كان لها أتباع فى ذلك الوقت فانهم من القلة بحيث لم يحس أولو الأمر وجودهم ، ولذلك كان القرار بإلغاء الطرق الصوفية خاصا بالطرق الشهيرة مثل النقشبندية والمولوية والقادرية والخلوتية ، ويبدو أن الطريقة التيجانية نمت فى الخفاء واكتسبت الاتباع والأنصار فى عهد الكبت والاضطهاد ، إلى أن لفتت الأنظار بتطرفها وأعمالها العنيفة .

غير أن هذه النزعات العنيفة ظاهرة لم يكن عنها محيص ، وسواء أرخصت الحكومة بعودة نشاط الطرق الصوفية أم لم ترخص فإنه ليس من المنتظر أن تتكرر مظاهر العنف - لأن الحكومة تستطيع أن تعتمد على تأييد الرأى العام فى الحد من أعمال التطرف والعنف .

وقد يحق لنا أن نتساءل هل هذا الانتعاش الدينى فى الجمهورية التركية ظاهرة عابرة لا تلبث أن تزول . والخبراء فى شئون الدولة التركية يؤكدون أن هذا الانتعاش شىء ثابت فى حياة الأمة . وليس مظهراً زائلا . وذلك لسببين : أولهما أن الإسلام فى تركيا راسخ فى نفوس الشعب وله فيها مكانة قوية . وأن أعمال الكبت التى حدثت فى العهد الكمالى لم يكن لها أثر كبير فى حياة سكان الريف ، وهم السواد الأعظم من الأمة . وإنما كان له بعض الأثر فى المدن والبلدان الكبيرة والمتوسطة . وهذه المدن هى التى أخذت اليوم تحس الانتعاش وتتنفس بحرية ، وتقبل على ممارسة الشعائر الدينية دون حرج .

أما السبب الثانى ، فهو التطور السياسى الذى شهدته الجمهورية فى الأعوام الثلاثة الأخيرة . فتألفت فيها أحزاب سياسية أهمها الحزب الجمهورى والحزب الديمقراطى . ولابد لقادة كل حزب أن يخطبوا ود الجماهير ، ويلتمسوا مرضاتهم ، حتى يكسبوا أصواتهم فى الانتخابات . فكانت هذه الحركة الديمقراطية سبباً فى تنافس الحزبين الكبيرين فى تأييد الدين واستهجان كل حركة ترمى إلى الحد منه أو من سلطانه . وهكذا أصبح قادة كل حزب وقد آلوا على أنفسهم أن يعملوا لنصرة الدين وتدعيم أركانه .

مكتبتنا العربية

إلى شباب الأزهر

تحية ووصية

لصاحب الفضيلة الشيخ على الطنطاوى

أشكر للأستاذ الزيات هذا الشرف الذى أسبغه علىّ حين مكّن لى أن أكون من أسرة «مجلة الأزهر» وأدخلنى جنديا فى الجيش الضخم، الذى امتد من عصر النور إلى عصر النور، خائضا ظلمات التأخر والانحطاط، وتابعاً فى موكب العلماء الأعلام الذين (كانوا أجل من الملوك جلالة، وأعز سلطاناً) وكانوا حماة الإسلام، وحراس الحضارة - لولاهم ما اتصلت حضارة العرب الأولى بحضارة العرب الجديدة، ولم يصل إرث الآباء من عهود الازدهار إلى الأبناء فى عهد النهضة. هم حملوا أمانة العلم حين غلبت على أمة الإسلام الجهالة، وهم رفعوا مصباح الدين حين انتشر الظلام، وإليهم كانت تشد الرحال من كل بلد إسلامى: يفد عليهم الأمى الجاهل فيرجع وهو إمام الهداية، وعالم البلد، كما كان يفد الأعرابى على الرسول - فيعود وفى يمينه من نور النبوة قبس يهدى الضالين.

أولئكم علماء الأزهر، وهل فى الدنيا معهد علم له قدم الأزهر، وعظمة الأزهر، وأثر الأزهر فى الفكر البشرى وفى الحضارة الإنسانية؟ أى معهـــد يجرّ وراءه أمجاد الف سنة؟ ما الجامعات؟ إنهن بنات اليوم والأمس، والأزهر لدة الدهر. تكسرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدت عن بابه هجمات الجهالة والضلالة والشهوات والأوهام، غالب الفناء، وزاحم الزمان فى طريق الخلود، وكان الأفق الذى أطلع شموساً وأقماراً وأخرج للدنيا نجوما كانت هدى السالكين. الجامع الأزهر لا تظلموه فتسموه جامعة، فلقد كان والله الجامع، جمع شعوب الإسلام على الحق فى أزمان تفرقت فيها شعوب الإسلام، إنه الجامع، وفى الجامع العبادة والعلم، وفيه الروح والجسم، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، فأين منه الجامعات؟

فياشباب الأزهر افخروا بجامعكم فما له على ظهر الأرض قرين!

وليس من المنتظر أن تتبدل هذه الحال. فقد أوضحنا فى أول هـذا المقال الظروف العديدة الشاذة التى جرت على البلاد أعمال الكبت والقمع ومن الصعب أن نتصور أن تعود تلك الظروف مرة أخرى، ومن الخير لتركيا ألا تعود، لأن البلاد تواجه خطراً كبيراً لابد لها أن تلقاه مجتمعة الرأى، موحدة الكلمة، والإسلام خير درع بقى من أخطار المبادىء الهدامة. وهـذه المبادىء الهدامة هى العدو الأكبر الذى تواجهه الجمهورية التركية اليوم.

محمد عوض محمد

مكتبتنا العربية

إلى شباب الأزهر

تحية ووصية

لصاحب الفضيلة الشيخ على الطنطاوى

أشكر للأستاذ الزيات هذا الشرف الذى أسبغه علىّ حين مكّن لى أن أكون من أسرة «مجلة الأزهر» وأدخلنى جنديا فى الجيش الضخم، الذى امتد من عصر النور إلى عصر النور، خائضا ظلمات التأخر والانحطاط، وتابعاً فى موكب العلماء الأعلام الذين (كانوا أجل من الملوك جلالة، وأعز سلطاناً) وكانوا حماة الإسلام، وحراس الحضارة - لولاهم ما اتصلت حضارة العرب الأولى بحضارة العرب الجديدة، ولم يصل إرث الآباء من عهود الازدهار إلى الأبناء فى عهد النهضة. هم حملوا أمانة العلم حين غلبت على أمة الإسلام الجهالة، وهم رفعوا مصباح الدين حين انتشر الظلام، وإليهم كانت تشد الرحال من كل بلد إسلامى: يفد عليهم الأمى الجاهل فيرجع وهو إمام الهداية، وعالم البلد، كما كان يفد الأعرابى على الرسول - فيعود وفى يمينه من نور النبوة قبس يهدى الضالين.

أولئكم علماء الأزهر، وهل فى الدنيا معهد علم له قدم الأزهر، وعظمة الأزهر، وأثر الأزهر فى الفكر البشرى وفى الحضارة الإنسانية؟ أى معهـــد يجرّ وراءه أمجاد الف سنة؟ ما الجامعات؟ إنهن بنات اليوم والأمس، والأزهر لدة الدهر. تكسرت على جدرانه أمواج القرون وهو قائم، وارتدت عن بابه هجمات الجهالة والضلالة والشهوات والأوهام، غالب الفناء، وزاحم الزمان فى طريق الخلود، وكان الأفق الذى أطلع شموساً وأقماراً وأخرج للدنيا نجوما كانت هدى السالكين. الجامع الأزهر لا تظلموه فتسموه جامعة، فلقد كان والله الجامع، جمع شعوب الإسلام على الحق فى أزمان تفرقت فيها شعوب الإسلام، إنه الجامع، وفى الجامع العبادة والعلم، وفيه الروح والجسم، والعقل والقلب، والدنيا والآخرة، فأين منه الجامعات؟

فياشباب الأزهر افخروا بجامعكم فما له على ظهر الأرض قرين!

وليس من المنتظر أن تتبدل هذه الحال. فقد أوضحنا فى أول هـذا المقال الظروف العديدة الشاذة التى جرت على البلاد أعمال الكبت والقمع ومن الصعب أن نتصور أن تعود تلك الظروف مرة أخرى، ومن الخير لتركيا ألا تعود، لأن البلاد تواجه خطراً كبيراً لابد لها أن تلقاه مجتمعة الرأى، موحدة الكلمة، والإسلام خير درع بقى من أخطار المبادىء الهدامة. وهـذه المبادىء الهدامة هى العدو الأكبر الذى تواجهه الجمهورية التركية اليوم.

محمد عوض محمد

مكتبتنا العربية

يا شباب الأزهر أنتم ورثة هذا المجد كله ، أنتم خلفاء أولئكم الجدود فصلوا طريقكم بتليدكم ، وأتموا بفعالكم مجد أسلافكم : بالعلم لا تسمو الأمم إلا بالعلم ، بالبيان لا علم إلا ببيان ولا فكر إلا بلسان بالأخلاق أخلاق العلماء الذين أخلصوا الخضوع لله ، فخضع لهم جبابرة البشر ، وألقوا كلمة السماء فرفعتهم فوق أهل الأرض.

وزهدوا بزخارف الدنيا ، وأوهام الجاه ، فانقادت لهم الدنيا وسعى إليهم الجاه ، بالأخلاق فالاخلاق قبل العلم ، ونحن لا نريد نسخا من الكتاب ، ولكن نريد رجالا يكونون نماذج للمسلم الكامل ، نريد دعاة إلى الله بالأفعال لا بالأقوال .

ولقد دخل أهل البلاد المفتوحة أفواجا فى الإسلام ، وما سمعنا أن محاضرة فى الإسلام دعوا إليها ، ولا رسالة فيه وزعت عليهم ، ولكنها أخلاق المسلمين ، هى التى أدخلتهم فى الدين . على أننا نحتاج مع ذلك إلى دعاة يلخصون أصول الإسلام فى كلمات ، ويلقونها فى جلسات ، وتكون أسوتهم برسول الله ، يجيئه الاعرابى المشرك ، فيقيم معه اليوم واليومين ، ويسمع منه الحديث والحديثين ، لا يقرأ عنده كتابا فى الفقه ، ولا يلقى دروساً فى التجويد ، ولا يحفظ قواعد الأصول ، ولا يلقن أدلة العقائد ، ويصير بذلك مسلماً ، ويرجع عالماً . ويكون داعى قبيلته ومرشد قومه ، وانتشر بذلك الإسلام ، وعم ثلث المعمور ، فى أقل من ثلث قرن .

واجتنبوا الغلظة فى الدعوة . فإن لبعض المتدينين غلظة تنفر من الدين ، ودعو الرقة التى تذهب الرجولة ، وتجرى بالداعى مع هوى الخصم ، وأعرفوا أقدار نفوسكم ليعرف الناس أقداركم ، فمن أهان نفسه لم تكرم على أحد بعده . وابتغوا القوة فى كل شىء ، فلا شىء كالقوة يزين الرجال ، قوة الجسم وقوة العلم ، وقوة اللسان وقوة الجنان ، فلقد كان محمد صلى الله عليه وسلم رجلا كامل الرجولة ، وكان رياضيا صبورا (١) لما صرخ النذير بالغابة ، وابتدر المسلمون أفراسهم وكانت مرتبطة بأفنيتهم وأسرعوا رأوا رسول الله ، قد سبقهم إلى الحمى على فرس عار بلا سرج ولا لجام ، وعاد يقول لا تراعوا ! .

ولما تحداه ركانة بطل المصارعة فى الجزيرة العربية ، صارعه صلى الله عليه وسلم فصرعه ، ثم صارعه فصرعه فأسلم الرجل . وكان يسابق السيدة عائشة ، فإذا جد الجد ، وحمى الوطيس ، احتمى به أبطال الحروب ، وفرسان الملاحم ، وكان (إذا القادة تخفوا فى مثل هذا الموقف واستتروا) - ينادى ، أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب . فاجمعوا القوة من أطرافها ، واستكملوا أسباب الرجولة ، واستعدوا فإن الرجاء منوط بكم ، والأمل مقعود عليكم ، أنتم يا من أدركوا مقاصد الشرع ، وعرفوا حاجات العصر .

إن شعلة الإسلام اليوم وسط هبات من زوابع الباطل ، ولن تنطفىء إن شاء الله ، وستخمد هذه الرياح كما خمدت من قبل رياح أشد منها قوة ، وأعلى عزيفاً ، ولكن لا بدّ من رفعها عن الإسلام فدعوا الفلسفة والسفسطة وشرح المواقف

---

(١) لم لا نقول فى ترجمة (صبور) رجل صبور ؟ .

مكتبتنا العربية

والرد على أقوام بادوا ولم يبق لهم أثر ، ورواية شبههم ودراية ضلالاتهم ، واعمدوا إلى الرد على الشيوعية والقومية والفاديانية والملاحدة ، وما فى كل بلد إسلامى من جند إبليس ، وكل محب للظهور ، على فراغ فى رأسه ، وضعف فى علمه ، يعجز عن ولوج العظمة من الباب فيدخل من النافذة ، فيأتى بخرافة يحسبها فلسفة ، ويظنها مذهباً اجتماعياً ، ويقلده فيها من هو أجهل منه جهلا ، وأشد حمقا .

وشر من هذه المذاهب كلها هذا الفجور البادى فى المجلات والأفلام وعلى الشواطىء وفى النوادى وهذا الاختلاط فى الأسواق والسينمات وفى الجامعات ، هذا هو السهم المسموم الذى يقصد كل قلب ، وذلك لأن تلك النحل والمذاهب لا تجد لها إلا عند الأقل رضا وقبولا . أما ما يثير الغرائز ويحرك الشهوات ، فلا يكاد يخلص منه إلا من عصم الله ، وقليل ما هم .

ولا تشتغلوا جميعاً بمناظرة أهل تلك المذاهب الضالة ، لا خوفا منهم فالإسلام لا يخاف من مناظرة أحد ، ولكن خوفا على جهدكم ووقتكم ، وليتفرغ لهم قوم من كباركم ، ممن قوى فى العلم ، وتمرس بالجدل ، واعلموا أنهم أقل وأذل من أن تجعلوهم شغلكم .

ودعوا المناقشة بينكم فى الأمور الاجتهادية ، وما لا جدا منه ولا نفع فيه ، فلقد ضاع من وقت هذه الأمة ومن تفكير أبنائها فى الكلام فى التوسل ، حله وحرمته ، وفى الهجوم على الوهابية والدفاع عنها ، وفى محاربة الصوفية وتأييدها ، ما لو أنفق بعضه فى العلم النافع لسبقنا به فى طريق الحضارة سبقاً بعيدا ، وما دام أمامنا عدو واحد هو الكفر البارز والمستتر ، والفجور الظاهر والباطن ، فلنحارب هذا العدو أولا ، ولنصمد له جميعا ، ولندع الخلاف بيننا معشر أهل الدين إلى ما بعد ذلك . ولا يبلغ بنا ضيق الفكر وقصر النظر ، أن نجعل همنا كله توافه الأمور ، كإطلاق اللحية ، وإرسال العذبة ، وترك الدخان ، وأمثال ذلك مما وقفت عنده همة أقوام تعرفهم فلا يشتغلون إلا به ، ولا يقبلون إلا عليه وأمامنا ما هو أهم وأجدى ، وأعظم عند الله خطراً وأظهر فى الأمة أثراً .

واعلموا أن أولى من ذلك كله بكم ، وواجب عليكم ، أن تدفعوا عنا شر ما ابتلانا به الضعف والتخاذل وهو أنا أغنى أمة فى الدنيا فى التشريع[1] أصول نظرياته ، وفروع مسائله ، ولدينا منه كنز هائل ولكنا تركناه ورحنا (نشحذ) فضلات موائد التشريع عند الأمم ، نأخذ من كل مائدة لقمة حتى صار تشريعنا كطبق المسحر ، فيه من كل شىء . . . وليس فيه شىء ! وصار عجبا فى التخليط ، وعجبا فى ضعف اللغة ، وركاكة التعبير[2] وقصور اللفظ وغموض المعنى ، ولو لم يكن هذا التشريع لنا دينا لكان علينا أن نتمسك به لأنه ثوب فصل علينا . وقطع على مقدارنا ، وأخذ من أعرافنا وأوضاع ناسنا ، فكيف وهو مع ذلك دين ، إن تركناه تركنا ديننا ، وكفرنا بإسلامنا .

(١) الفصيح هو الشرع لا التشريع ولكنه حرف تمكن ابن الألسنة والأقلام .

(٢) أنظر مقدمتى لرسالة (لغة القانون) للدكتور عدنان الخطيب

مكتبتنا العربية

وليس الذنب كله على من جاء به من عند غير الله ؛ ولكن الذنب (كما قال ابن القيم) على العلماء ضيقوا الواسع من شرع الله ، وحصروا الدين فى كتب المتأخرين ، فلما لم يجد عندهم الحاكمون علاج الداء الذى يجدون ، اعرضوا عنهم ، وطلبوه من غيرهم ، ولا تكون العودة إلى التشريع الإسلامى بالخطب ولا بالصياح ، بل بأن يتفرغ قوم منكم إلى استخراج القانون المدنى الشامل من كتب الفقه من المذاهب الأربعة ، وأوسعها الحنفى لأنه صار مذهب دولة طول عهد العباسيين والعثمانيين ، والمالكى مذهب الدولة فى الأندلس والمغرب إلى اليوم ، ثم الشافعى ثم الحنبلى ، ومن مذاهب غيرهم إن صح نقلها وقام دليلها ، من المحلى لابن حزم ، والفتاوى والرسائل لابن تيمية ، والأعلام والطرق لابن القيم وأمثالها

وملاك الأمر كله أن يكون منكم فرق كفرق الجيش ، ففرقة للعلم والانقطاع إلى كتبه ، وفرقة لدعوة المسلمين إلى الرجوع إلى دينهم ، وفرقة لدعوة غير المسلمين ، وفرقة لمحاربة الدعارة والمذاهب الضالة ، وفرقة للعمل فى التشريع الإسلامى .

وعليكم بكتبكم ، لا يزهدكم بها ويصرفكم عنها عداوة أقوام لها وسخرهم منها ، وتبزهم إياها بالكتب الصفراء ، فما فى الصفرة عيب ، والذهب أصفر مذكان الذهب ، ولكن العيب أن نكون عونا للعدو على أنفسنا . ولقد رأى العدو عظمة المكتبة الإسلامية ، فحسدنا عليها ، فعمل على صرفنا عنها ، وما أظن أن البشر صنع شيئاً أعظم منها ، وإنكم لتعلمون ما أصابها من النكبات ، نكبة هولاكو لما ألقاها فى دجلة فسودت بياض الماء والأسبان لما أوقدوها ليالى الفتح فبيضت سواد الليل ، وما أصابها من نكبات الأفراد ، من التخريق والتمزيق والتحريق . حتى لم يبق منها إلا الأقل ، ولا تزال المطابع فى الشرق والغرب ، تطبع مخطوطات هذا الأقل ، ولم يطبع من مئة سنة إلى اليوم ربعه ولا خمسه ، فكيف لو وصلت إلينا كاملة ؟ وكيف لو كانت المطبعة معروفة على عهد الجدود ؟

ولكن لا تقفوا عندها ، ولا تكتفوا بكيمياء العرب عن كيمياء الأفرنج ورياضة ابن الهيثم عن رياضة انشتاين ، كلا : ولا بفقه ابن عابدين عن الاستنباط والبحث ومعرفة حكم الله فيما جدّ من أحداث وما تبدل من أعراف ، على أن يكون وقوفكم عند الكتاب والسنة وقواعد الإسلام ، لا تكونوا عبّاد نصوص المتأخرين . ولا تحكموا آراءكم وأهواءكم فى الدين .

* * *

وما بكم حاجة إلى نصح مثلى وفيكم المشايخ الأعلام . أئمة الدين . وعلى الأزهر شيخ الإسلام القوى الأمين ، ولكنها ذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

وثقوا بأن المستقبل لنا ، للإسلام ، إن العالم اليوم على فم البركان ، والناس صفّان يتباريان أيهما يسبق فيحمل إلى الدنيا الموت والخراب ، ولا أمل إلا بكم ، بشباب المسلمين ، فان لم تحققوا الأمل ، يستبدل الله بكم قوما غيركم . أمة حية ترفع راية الإسلام . ونبقى نحن لا دنيا ولا دين . ولن يكون ذلك إن شاء الله أبداً ، لن يكون وفينا الصالحون المصلحون ، والعلماء العاملون .

على الطنطاوى

قاضى دمشق

مكتبتنا العربية

العالم الإسلامي في شهر

النزاع المصري البريطاني - وفد المهدي باشا

لا يزال الموقف بين مصر وإنجلترة يكتنفه الغموض فيما يتصل بمصير المحادثات بين البلدين، ولا زالت إنجلترة تمعن في المماطلة فتكسب الوقت بين تلقي رد من مصر، وبين التروي قبل أن ترد على ما ترسله مصر وذلك على الرغم مما هيأه صاحب الدولة رئيس الوزارة المصرية الحالية في البلاد من هدوء صالح للتفاهم وما أشاعه حوله من ثقة أثنت عليهما الصحف الإنجليزية، ولكن مهما يكن من أمر السياسة الإنجليزية فقد أوضحت مصر للعالم كله بما لا يدع مجالا للشك أن مطلبها الأساسيين وهما الجلاء ووحدة الوادي لن يتغيرا بتغير الوزارات.

وكان أبرز ما في محيط السياسة المصرية في الأسبوعين الأخيرين قدوم وفد سوداني من قبل السيد عبد الرحمن المهدي باشا لمباحثة الحكومة المصرية في شأن الوحدة بين شطري الوادي، وتكاد تتفق الآراء على أن المباحثات قد دارت بين الطرفين حول تقرير الوحدة بين مصر والسودان ممثلة في التاج المشترك والنظر في المبادىء الرئيسية التي يجب أن ينص عليها في دستور السودان وفقاً للوحدة الطبيعية بين الشمال والجنوب من جهة، ووفقاً لرغبة السودانيين في أن يتولوا إدارة شؤونهم من جهة أخرى، وتنسيق السياسة الخارجية لشطري الوادي، وتقوية الروابط الاقتصادية، ورفع القيود الجمركية، وتوحيد الجنسية، والنقد، ونظام الضرائب، والجيش.

ومما يذاع في الأندية والصحف أن الرغبة في الوصول إلى تفاهم متبادلة بين الجانبين. على أن مهمة وفد السودان محدودة فلا بد له بالضرورة من الرجوع إلى المهدي باشا، فإما أن ينتهي الأمر إلى الاتفاق وإما أن تستأنف المباحثات الوصول إلى هذا الاتفاق الذي يبشر به ما بدا من حسن النية من الجانبين. وسترحب مصر بإيفاد وفد إلى السودان للتشاور مع المهدي باشا إذا اقتضى الحال ذلك.

ولم يتضح بعد هل يتغير موقف إنجلترة من المحادثات المصرية الإنجليزية، بعد هذا الذي دار من محادثات بين مصر ووفد الجنوب؟ هل يكون لهذه المحادثات علاقة بما تنتويه إنجلترة من رد على مصر؟ أم أن إنجلترة ترى أن قد أتيح لها في هذه المباحثات بين الشمال والجنوب وسيلة جديدة للمماطلة وكسب الوقت؟

بين العراق والمملكة الهاشمية الأردنية:

كان للقرار الذي اتخذته الحكومة الأردنية بتعيين هيئة نيابية تتولى شؤون البلاد نيابة عن جلالة الملك طلال بسبب مرضه، نتائج لم تكن في الحسبان، فإن سمو الوصي على عرش العراق قد اتهم حكومة عمان بأنها لم تصن كرامة الملك طلال؛ فلما رد دولة توفيق أبو الهدى باشا

مكتبتنا العربية

رئيس الوزارة الأردنيه على هذا الاتهام ، أحدث هذا الرد أزمة حادة بين البلدين اللذين تربطهما أسرة هاشمية واحدة ، إذ رأت العراق فيه تحديا لا يجوز السكوت عليه وخروجاً على المألوف من العرف ؛ وحملت الصحف العراقية حملات عنيفة على أبي الهدى باشا ، وذهبت إحداها إلى القول بأن أبا الهدى يتآمر مع الشيشكلى على الأسرة الملكية الهاشمية ، وقالت صحيفة أخرى إن عمل أبي الهدى يصلح لأن يستغله أعداء العرب للنيل من وحدتهم ، وقالت ثالثة إن هذا العمل يوحى باتفاق بين أبي الهدى والإنجليز على على تدبير مؤامرة لاستعباد الشعب الأردنى ، ولا سبيل لإحباط هذه المؤامرة إلا بتوثيق عرى الاتحاد بين العراق والأردن .

ولقد اهتمت سوريا بما يجرى بين العراق والأردن وأبدت قلقها من أن يكون وراء موقف العراق ما يؤدى إلى تحقيق المشروع القديم بضم الأردن إلى العراق ، ولهذا التقى الشيشكلى بأبي الهدى فى الخامس من شهر يونيو ليبلغه رأى سوريا ؛ فلقد كان من سياسة الملك طلال أن زالت الجفوة بين سوريا والأردن .

وإن كل حريص على تضامن العرب ، وما أحوجهم اليوم إلى التضامن ، ليتمنى أن تزول أسباب هذا النزاع الخطير بين العراق والأردن حفظاً لوحدة العرب .

ايران وانجلترة أمام محكمة العدل الدولية

لا تزال مشكلة البترول بين إيران وإنجلترة فى مقدمة المسائل التى تشغل بال الدكتور محمد مصدق وحكومته ، وذلك على الرغم من أن إنجلترة لم تصل كل الوصول إلى غرضها وهو أن تدفع بإيران إلى الإفلاس ، وذلك بفرض الحصار الاقتصادى على إيران وعلى بترولها ؛ فقد استطاعت إيران أن تجد بعض الأسواق لبترولها وبخاصة فى أمريكا وألمانيا الغربية ، وأن تعيد جزءاً من معامل تكرير « عبدان » إلى العمل تحت إشراف الإيرانيين أنفسهم .

وتنحصر هذه المشكلة فى أن الحكومة الإيرانية أقدمت على تأميم البترول فى شهر مارس من العام الماضى ؛ وهو عمل داخلى بحت بين الحكومة الإيرانية وشركة البترول الإنجليزية الإيرانية السابقة .

وقد أبت إنجلترة مدفوعة بدافع مصالحها الاستعمارية إلا أن تشكو إيران إلى محكمة العدل الدولية وهى بذلك تنكر على إيران ما فعلته هى فى بلادها فقد أممت صناعاتها الحيوية رعاية لمصالح شعبها وإبعاداً لشبح الشيوعية عنها . وقد دافع الدكتور مصدق عن بلاده بالفرنسية قائلا : إن الحكومة الايرانية بتأميم البترول قد وضعت حداً لعهد من العبودية والفساد دام ثلاثين عاماً ؛ وقال : إن الحكومة الإيرانية لن تعترف بحكم المحكمة لأنها فى رأيها غير مختصة بالنظر فى النزاع .

وقد يزداد موقف إنجلترة تعقداً حيال مشاكل الشرق الأوسط إذا قضت المحكمة فى صالح إيران ؛ والمفهوم أن لهذا الحكم كيفما كان ، أهميته الدولية لما له من صلة وثيقة بالحرب الباردة بين المعسكرين الشرقى والغربى ، حتى لقد أشيع فى وزارة الخارجية الإيرانية أن القاضى السوفييتى فى المحكمة

مكتبتنا العربية

سيؤيد وجهة نظر إيران ، على أن ذلك القاضى قد اعتذر من عدم حضور الجلسة لمرضه .

مطامع الانجليز فى سلطنة لحج :

ورد من الأنباء فى الخامس من شهر يونيو ما مؤداه أن سلطان لحج فضل بن عبد الكريم قد فر إلى اليمن فى نهاية شهر أبريل الماضى ، حينما طلب إليه حاكم عدن أن يحضر إلى هناك أثناء التحقيق فى حادث موت أميرين فى السجن هما ابنا عمه ، وقد ألقيت عليه مسؤولية موتهما .

وبعد ذلك ببضعة أيام قدم بعض أعيان لحج فى مصر إلى وزارة الخارجية المصرية مذكرة جاء فيها أن الإنجليز احتلوا السلطنة وأخرجوا منها عظمة السلطان مستعينين ببعض أفراد أسرته وعينوا مستشاراً إنجليزيا للاشراف على إدارتها ، وتكاد تكون الأحكام العرفية معلنة فى جميع أنحاء السلطنة ؛ وقد ذكر مقدمو المذكرة أن الإنجليز يطمعون فى أن تحل منطقة « بير أحمد » المتاخمة لسلطنة لحج محل منطقة « عبدان » فى معامل تكرير البترول ؛ ونحن نميل إلى تصديق ما جاء فى هذه المذكرة لأنه صورة صادقة لأساليب إنجلترة فى تحقيق أطماعها فى كل بلد شرقى .

فرنسا والمغرب الاسلامى

لا تزال فرنسا ماضية فى سياستها الاستعمارية فى شمال أفريقيا ، حتى لتكاد تحيط هذه البلاد بستار حديدى على نحو ما يفعل السوفييت فى البلاد الخاضعة لهم ، وإذا ذكرنا أن فرنسا لا تربطها بهذه البلاد الإسلامية - تونس والجزائر ومراكش - أية رابطة من لغة أو دين أو جنس أو تاريخ أو عرف ، أدركنا مبلغ ما فى سياستها من منافاة للعدالة . على أن اللوم لا ينصب على فرنسا وحدها ، وإنما يشمل أمريكا فإنها تدرك مبلغ ما فى سياسة كل من فرنسا وإنجلترة من عرقلة لمسناها فى كسب ود العرب ، ومع ذلك فقد امتنعت أمريكا عن التصويت حينما أريد عرض قضية تونس على مجلس الأمن فى منتصف شهر أبريل الماضى .

ويبدو أن أمريكا أرادت أن تخرج من حرج موقفها بعد ذلك ، فلمح وزير الخارجية الأمريكى المستر دين أتشيسون منذ أيام إلى أن أمريكا سوف تؤيد عرض قضية تونس على مجلس الأمن إذا لم تنفذ الحكومة الفرنسية برنامج إصلاح داخلى فى تونس ، وقد أدى هذا التلميح إلى أن يتقدم المقيم الفرنسى فى تونس للسيد صلاح الدين ابن باكوش بمشروع تمنح فرنسا تونس بمقتضاه فى خلال خمسة أعوام الحكم الذاتى فى نطاق الاتحاد الفرنسى ، ولكن الوطنيين التونسيين لا يوافقون بالضرورة على مثل هذا المشروع فغايتهم الاستقلال عن فرنسا استقلالا كاملا ، وسترى فرنسا أن التجاءها إلى البطش لم يعد يجدى فى هذا العصر ، والذى يرى فيه العالم الإسلامى أن كل عدوان على أى بلد من بلاده إنما هو عدوان على المسلمين جميعا .

مكتبتنا العربية

ما يقال عن الإسلام

أمثلة من جهل بعض الأجانب بالإسلام

لا نكاد نقلب صفحات أكثر الكتب التى يصدرها الأجانب عن الإسلام فى هذه الأيام ، حتى يزداد شعورنا بالحاجة إلى كتاب يشرح الإسلام كما يعرفه أهله ، ينشر فى أكثر من لغة أجنبية [١] ؛ ومن أمثلة تلك الكتب كتابان حديثان لم تكد تخلو منهما مكتبة تبيع الكتب الإفرنجية بالقاهرة ؛ أولهما يسمى « الإسلام » ألفه ا . س . ترتن ، أستاذ العربية فى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن ، وقد نشرته مؤسسة حديثة واسعة الانتشار هى مؤسسة هاتشنسون كخلفة فى أحد فروع ما تنشره من كتب للثقافة العامة هو فرع الديانات العالمية ؛ والثانى هو كتاب « النظم الإسلامية » ألفه بالفرنسية موريس جودفروى دى مومبين ، وقد أشرنا إليه فى العدد السالف من المجلة .

وأبرز عيوب كل من الكتابين أنهما لا يفرقان بين ما هو من الدين ، وبين ما هو من قبيل العادات الاجتماعية أو الخرافات والأباطيل التى يبرأ منها الدين الصحيح . وإنهما ليتفقان فى كثير من المواطن اتفاقاً يشعر معه المرء فى كثير من الأسف أن هؤلاء الأجانب يأخذون مثل هذه الأمور مأخذ الحقائق المقررة . وحسبنا أن نشير فى هـذا المجال إلى كلامهما عن عقيدة البعث مثلا عند المسلمين عن المسيح الدجال ، وكيف يظهر راكباً حماراً وعلى جبهته كلمة الكفر وحوله مليون يهودى ! وإلى منكر ونكير ، وانضمام القبر ، والساعة ، والصراط الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف ، والميزان فى الآخرة الذى يشبه ميزان البائع .

وأسخف من ذلك كلامهما عن الزواج والطلاق وموضع المرأة من الرجل ، فالصداق هو استمرار للزواج بطريق البيع كما كان متبعاً فى الجاهلية . وما أيسر أن يطرد الرجل امرأته بكلمة . وله أن يستمتع بأربع نسوة تحت سقف واحد ، وللرجل أن يجبر ابنته على الزواج بمن يريد . وابن أخى الرجل أحق من غيره بابنته فإن لم ينلها فإنه يقتل من يظفر بها دونه ! وللزوج السلطة المطلقة على زوجته وبنيه !

وأعجب من هـذا الكلام الذى يساق على أنه من الدين كلامهما عن حقوق المواطن فى الإسلام ؛ فالمواطن ذو الحقوق هو المسلم وحده ؛ ولغير المسلم المذلة ودفع الجزية . والإهانة تلحقه على أعين الناس ، فليس له أن يركب دابة ، وعليه أن يضع على كتفه علامة تميزه ، وعليه أن يفسح الطريق للمسلم ؛ ولا يسمح له أن يرفع بيته إلى مثل ارتفاع بيت المسلم ؛ وليس له شىء من الاطمئنان فى عبادته ، وقد يتعدى على معبده ، ويصعب عليه إقامة هـذا المعبد من جديد فيظل خربا . . إلى غير ذلك من هذه الادعاءات الباطلة [١] .

---

(١) إن وضع هـذا الكتاب من أهم ما يعنى به الأزهر اليوم من ضروب الاصلاح .

(١) راجع مقال موقف الاسلام من أهل الكتاب فى الجزء السابق من المجلة .

مكتبتنا العربية

وفى الكتابين غير هذا كثير من الأمور التى يجعلها الأجانب عادة من صميم الدين ، وهى لا تصلح حتى أن تكون من العادات الاجتماعية إذ هى أقرب إلى القصص منها إلى أى كلام يتسم بالجد .

دين جدير بالدراسة :

قدم أحد الناشرين للكتاب حديث عن الإسلام بقوله « صار العرب أمة فجأة ، وحطموا فارس وارثة إحدى الإمبراطوريات العريقة ، وسلبوا روما الجديدة أغنى ممتلكاتها ، وتناولوا علم يونان وفلسفتها وهذبوهما ؛ وفى المعمار وبعض الفنون ليس لهم أن يخشوا منافسا ؛ وكان دينهم أول الأمر هو الذى وحدهم . ولقد أخذوا وهم عرب فى الأصل من الشعوب المغلوبة ومزجوا ما أخذوه بما عندهم فكان من ذلك وحدة لم تخل من كثير من أوجه الاختلاف ؛ وخلقوا نظاما تشريعياً جديراً بأن يقارن بالفقه الرومانى ؛ كما أقاموا حضارة متقدمة على كل شىء معاصر لها فى أوربا ؛ ودينهم كقوة حية يسيطر اليوم على الملايين ؛ وإن دينا هذا شأنه لجدير بالدراسة .

بين الإسلام وحركة التسلح الخلقى :

مبتدع حركة التسلح الخلقى هو المصلح الاجتماعى الإنجليزى الدكتور فرانك بكمان وقد قصد بها إلى تغيير المجتمع بتغيير أفراده ووسيلته أن يتسلح كل فرد بمبادىء يأخذ نفسه بها فى غير تساهل ، ومن هذه المبادىء : الاتجاه إلى الله والإصغاء إلى أوامره وطاعته ؛ وأن يحاسب المرء نفسه كلما أذنب مصمما على أن يتجنب الرذائل ، وأن يتعاون الأفراد على تحقيق هذه المبادىء كى تسود فى المجتمع « فالانقسام من علامات عصرنا . . . والاتحاد مطلبنا العاجل ، والانقسام نتيجة التكبر والحقد والشهوة والخوف والطمع ، وهو من صنع المادية وهو العلامة التى تميز بضاعتها » .

وقد عقد أحد الكتاب فى « المجلة الإسلامية » التى تصدرها بالإنجليزية الجمعية الإسلامية فى ووكنج بإنجلترة ، مقارنة طريفة بين مبادىء الإسلام الخلقية وبين ما تدعو إليه حركة التسلح الخلقى ؛ ومما قاله هذا الكاتب وهو هولندى يدعى فرانزستال ، أن التوبة فى الإسلام هى وسيلة تغيير الأفراد أنفسهم وهى « سلاح خلقى عظيم ؛ ففيها الندم والتغير والتحول ، واستعرض معنى التوبة وأهميتها عند نفر من المسلمين مثل الحسن البصرى والمحاسبى والحلاج والغزالى ، وقارن بين ما يقول هؤلاء فى التوبة وبين ما يدعو إليه الدكتور فرانك بكمان مبينا أسبقية الإسلام وترجم قول الله تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، وأظهر إعجابه بما تنطوى عليه هذه الآية من معان جليلة ؛ ثم أشار إلى ما يدعو إليه الإسلام من الوحدة فهو « دين التوحيد والوحدة » ، وأورد تفسيراً للشاعر محمد إقبال لمعنى الوحدة فى الإسلام فهى « المساواة والتضامن والحرية » .

أمريكى يتحدث فى الكونجرس عن الإسلام :

تحدث فى الكونجرس النائب جون . ت . وود ، يندد بالنزعة الاستعمارية ، فتعرض لسياسة أمريكا فى الشرق فكان مما قاله عن الشعوب الإسلامية :

« إن الشرق إسلامى إلا فيما ندر ؛ وهذا ينطبق كذلك على شمالى أفريقيا . وإن الإنسانية التى تعمر هذه البقاع تبلغ نحو ٤٠٠ مليون نسمة ، ويوجد مسلمون حتى فى بقعة نائية كالفلبين .

مكتبتنا العربية

ويتصف هؤلاء الملايين بشعورهم الدينى العميق ؛ وتخضع الكثرة الكاثرة منهم لتعاليم دينهم أكثر مما يخضع لدينهم الكثرة من المسيحيين. والمسلمون من أشد الناس شعوراً بالوطنية والدين ؛ والإسلام اليوم من أقوى العوامل الروحية فى هذا العالم المادى ؛ ولم تجرؤ روسيا السوفيتية على غزو البلدان الإسلامية بالرغم من أن الفرصة قد أتيحت لها فى إيران مثلا ؛ والواقع أن الاتحاد السوفيتى لم يستطع بعد أن ينشىء له أحزاباً شيوعية ذات بال فى العالم الإسلامى ، فحيث ينتشر الإسلام لا يجد الإلحاد أرضاً خصبة . ولا مناص من أن تتراجع الشيوعية أمام المسلم الصادق وبينما استطاعت الشيوعية أن تجد فى البلدان المسيحية مرتعاً ، فقد عجزت عن أن تثبت قدماً قوية فى أرض الإسلام . وحرى بالعالم المسيحى أن يزجى الثناء للإسلام على صموده فى وجه الإلحاد فى عالمنا الحاضر . وسينهزم الإلحاد وتذهب ريحه حين يوجد فى العالم أربعمائة مليون مسيحى يشدون أزر أربعمائة مليون مسلم يكافحون الإلحاد . ولا يخشى المسلم الصادق الموت فى سبيل عقيدته ؛ فالموت فى سبيل الله يضمن له مكاناً فى الجنة ؛ وإنه لخير لنا ألا نمثل دور النعامة فندفن رؤوسنا فى الرمال . وإن الأمريكان ليخطئون إذا هم استمعوا إلى ما يقوله أعداء الإسلام من أن المسلمين مخادعون لا يوثق بولائهم ولا يعتمد على تحالفهم ، فالإسلام فى حقيقته يدعو إلى مثل ماتدعو إليه المسيحية الأولى من أن الناس إخوة .

لماذا اعتنقت الإسلام

هذا شاب أمريكى يدعى لويس أورفس إيفان شرح الله صدره للإسلام ، فكتب إلى « المجلة الإسلامية » يصف فيما يلى كيف دخل فى دين الله قال : « بعد أن تقلبت فى مراحل من الإلحاد الفارغ ، لا أومن حينذاك أن للعقل سبيلا فيما هو من شؤون الوحى ، وبعد أن عشت زمناً تحيال المسيحية بين الصدود والإقبال ، وبعد أن أغرتنى الكاثوليكية الرومانية ثم ردتنى بخيبة مرة . . . . بعد كل أولئك اكتشفت الإسلام !

وإن اليوم الذى بدأت فيه أدرس الإسلام لهو نهاية البداية . لقد وجدت الإسلام ديناً يتصف باليسر والجمال العظيم : ديناً يلائم العقل حين لا يلائمه دين آخر . وبعد أن درست الإسلام بمعونة البعثة الإسلامية فى وكنج ، انتهيت إلى أنى كنت قبل ذلك مسلما . ولما اندمجت فى الأخوة الإسلامية ، لم أشعر أنى تحولت ، إذ تبين اليوم أنهم تبين ماذا كنت أعتقد دائما من قبل . لقد صممت أن أكون مسلما ؛ ولكن ليس هذا هو كل الحق ، الواقع أنى أحسست ذات ليلة كما لو أن يد الله تمس روحى ، ومن ثم أصبحت مسلما . لقد كان الأمر أكبر من مجرد عزيمة ، ولقد تملكنى بادىء الأمر عندما أصبحت مسلما بالفعل شعور مزدوج ، فإنى من ناحية أحسست سكينة عليا لم أذق مثلها من قبل ، أحسست كأنى أسبح فى النعيم ؛ ومن ناحية أخرى شعرت بالغبطة أذ اكتسبت طوائف من الأصدقاء وأذ أصبحت أنتمى إلى شىء أعظم كثيراً من ذاتى ، أو على حد تعبير أحد أساتذتى السابقين لقد وصلت إلى « اليقين النفسى » .

وصف جميل للإسلام

جاء فى كتاب أمريكى عنوانه « الله إله الإسلام »

مكتبتنا العربية

وصفته مجلة نيويورك تيمز بأنه أوسع كتاب عرف عن الإسلام وحياة أهله ، وصف جميل للإسلام نورد منه هذه الفقرة :-

« إن الإسلام من أعظم الأديان ديمقراطية وحيوية ... وإن من أسباب سرعة انتشاره بساطته وخلوه من الوساطة ، فليست فيه رهبانية ، ولا أسرار غامضة ، ولا مذاهب ذات زخرف . وإن فرائضه محددة عملية ، وغاياته فى متناول الرجل العادى ، وآماله للناس جميعا. إن ديمقراطية الإسلام أشبه شيء بديمقراطية الجيش ، فليست هناك فوارق بين قوم يركعون جميعاً فى خشوع للمهيمن الأعلى ؛ ولكل نفس من نفوس أهله أهمية فى ذاتها ، ذلك أنها تقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم ؛ وما كان لامرىء أن يحتقر أحداً يسمع له الله » .

مبشر مسيحى ينقلب مسلماً !

ألف مستر جورج . م . لامسا ، الكاتب الأمريكى المعروف بمؤلفاته المختلفة عن المسيحية ، كتابا سماه « موجز القرآن » ، وقد ذكر فى حديثه عن غرضه من تأليف هذا الكتاب وعن مبعث اهتمامه بالإسلام ، بعض أنباء نورد منها قوله : « إن كثيرين من المبشرين فى الشرقين الأوسط والأقصى تأخذهم الدهشة وتتولاهم الحيرة أحيانا حين يجادلون المسلمين ؛ ذلك أنهم يجدون أن هؤلاء يعرفون عن المسيح وعن الرسل وعن العهد الجديد ، أكثر مما يعرف أولئك الذين أرسلوهم ليبشروا فى دنيا الإسلام . ومرد ذلك إلى أن الأمريكان والأوربيين لا يعلمون إلا قليلا عن الإسلام والقرآن كتابه المقدس ؛ وقد حدث منذ بضع سنوات أن مبشراً أمريكيا كان قد وصل لتوه إلى الهند ، زار مسلماً هندياً يريد أن يفتنه عن دينه ليدخله فى المسيحية ؛ ولكن ذلك المسلم الذى اختاره المبشر لأولى محاولاته التبشيرية كان مثقفا عالما بالكتب السماوية ؛ فما أن انتهى بينهما الجدل حتى انقلب المسيحى مسلماً ! ولقد قرأت نبأ دخوله فى الإسلام فى مجلة كان هو نفسه يحررها فى لاهور ؛ وفيها يعترف أن ما لقنه فى مدرسة اللاهوت عن المسيح وعن عقيدة الكنيسة كان يشوبه الغموض ، وأن المسلمين فى فهمهم أقرب إلى تعاليم المسيح من الكنيسة التى أعد فيها ليكون مبشراً » .

الإسلام لا يقنع بالنظريات فى المساواة

كتبت « المجلة الإسلامية » فى ووكنج ؛ عن موقف الإسلام فى صدد حديثها عن مشكلة الأجناس والألوان فقالت « كانت المساواة بين الشعوب ذلك المثل الأعلى الذى جاء به الإسلام إلى الدنيا وسياستها أعظم الأمور أهمية فى أديان العالم كلها . ولئن سألنا أى الأديان يدعو إلى المساواة بين البشر أجاب كل فرد إنه الدين الذى ينتمى إليه ؛ ولكن إذا غيرت صورة السؤال ، فتسائلنا ما الدين الذى استنبط الوسائل التى تجعل المساواة ذات أثر ، والذى أظهرها فى صورتها الفعلية ، لم يكن ثمة إلا جواب واحد وهو إن كل دين يبدىء الكلام ويعيده إذ يدعو إلى المساواة ، ولكن ما كل دين قد فسر تعاليمه بالعمل ، وما من دين غير الإسلام قد تغلب على مشكلة الأجناس بصورة عملية

وإن عبقرية الإسلام السياسية لهى عبقرية أصيلة فى هذا الصدد ؛ فليست تقتصر على أن تقرر فى الأذهان المساواة بين البشر ، وإنما تبين لأتباعها بالأساليب العملية السبل إلى جعل هذه الفكرة حقيقة واقعية مادية فى سلوكهم اليومى » .

مكتبتنا العربية

الكتب

آية البر
من آيات القرآن العظيم
للأستاذ عباس الجمل

القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
٥٢٧ صفحة من القطع الكبير

هذا كتاب جليل حقا ، ممتع حقا ، أثبت أنه جدير بما نهض له من مقصد عظيم ، وأنه كذلك جدير بأن يحمل اسم مؤلفه البليغ .

نهج الأستاذ المؤلف فى كتابة هذا السفر نهجا يجمع بين الإحكام والطرافة ؛ فقد كان يفكر فى كتاب جامع فى دين الإسلام وكيف يكون هذا الكتاب ، وكيف يهتدى إليه من يكتبه ، وذلك حين كان العلماء يتجادلون فى ترجمة القرآن بين مؤيد ومعارض ، وحين انتهى الرأى إلى أن خير مايصنع هو وضع كتاب جامع تكون ترجمته لغير اللسان العربى أيسر وأقرب من ترجمة القرآن العظيم . قال الأستاذ المؤلف : « فإذا أنا أتلو آية البر ، وإذا بى أجد فيما حوته من الإيمان والعلم والحكمة والهدى والضياء والنور ما ينير الطريق إلى رضع الكتاب الجامع فى دين الإسلام يستملى من آية البر كل ما يريد أن يجمعه عن دين الإسلام » .

وقسم الأستاذ بحثه إلى خمسة عشر منهجا ، كل منهج فقرة من هذه الآية الكريمة . المنهج الأول « ليس البر » ، والمنهج الثانى « أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » ، والمنهج الثالث « ولكن البر من آمن » ، وهكذا حتى نهاية الآية .

ووجه الطرافة فى هذا البحث المتين المحكم أن الأستاذ المؤلف قد اعتمد على القرآن فى تأويل آية البر ففصلها تفصيلا استغرق صفحات هذا السفر الضخم ؛ فما من معنى من المعانى التى ساقها فى حسن فهم وسلامة ذوق وبلاغة عبارة إلا زاده إشراقا وقوة بما يورد من الشواهد من كتاب الله . يقول فى ذلك « هذا ما أخذت نفسى به ، فجعلت القرآن العظيم هو مرجعى فى تأويل آية البر ، لم أرجع إلى غيره ، ولم أنحرف عنه مستعينا بآيات الله البينات ، مهتديا بها إلى الحكمة فى آية البر ، وإلى علمها وأحكامها وهداها » .

فإذا أضاف القارئ إلى هذا النهج القويم ما عرف عن المؤلف من بلاغة التعبير وجمال الأسلوب ، وما اتصف به من قوة المنطق وعمق التفكير ومتانة العلم ، أمكنه أن يدرك ما لهذا الكتاب الجليل من عظيم الخطر وبعيد الأثر .

النهضات الحديثة فى جزيرة العرب
الجزء الأول
فى المملكة العربية السعودية
للدكتور محمد عبد الله ماضى

عيسى البابى الحلبى وشركاؤه - ٤١٥ صفحة من القطع الأوسط

مكتبتنا العربية

إن حاجة المسلمين اليوم عظيمة إلى كل ما يعرفهم بشئون البلاد الإسلامية وما يدب فيها من روح النهوض ، وهذا فيما نعتقد هو الذى وجه المؤلف الفاضل إلى كتابة هذا البحث الذى اختار له عنوانا جانبياً هو « حاضر العالم الإسلامى » .

ولقد مهد الأستاذ المؤلف لبحثه باستعراض النهضات الحديثة فى الشرق الإسلامى وعوامل قيامها ، وأورد فى إيجاز محكم تاريخ المسلمين منذ صدر الإسلام ، وما تعاور نهضاتهم من عوامل الضعف والقوة ، ثم قصر بحثه فى هذا الجزء على المملكة العربية السعودية فكان كتابه من أوسع الكتب فى موضوعه هذا . ويتسم بحثه بالإحاطة والشمول فى يسر ووضوح وتمكن ، وللأستاذ من تخصصه وعمق ثقافته واتساع أفقه ما يجعل لكتابه نفاسة عند المؤرخ المختص وعند القارىء الذى يطلب مجرد الثقافة . والحق أن هذا ضرب من التأليف فى النهضات الإسلامية يعد جديداً فى بابه من حيث الطريقة ودقة النظرة ، تجد مثالا لذلك فى مثل قوله ، ونستطيع أن نقرر أيضاً أن القومية فى بلاد الشرق الإسلامى التى هى من عوامل قيام النهضات الحديثة شىء آخر غير القومية الغربية التى شرحناها ؛ فالقومية الإسلامية الشرقية تجمع بين القوتين اللتين ظهرتا فى أواخر القرن التاسع عشر ، تجمع بين القومية الوطنية المشابهة للأوربية من بعض الوجوه ، وبين المعنى الدينى الإسلامى الذى يقضى بتعاون المسلمين واتحادهم فى سبيل النهوض والاستقلال ودفع سيطرة الأجنبى والتحرر من « ولاية » غير المسلمين . ولقد أصبحت القومية بهذا المعنى الجامع مسيطرة على النفوس موجهة لحركات النهوض والاستقلال فى الشرق الإسلامى ، وحلت محل الجامعة الإسلامية .

وبالكتاب ملحق قيم بالوثائق والمعاهدات التى تتصل بموضوعات البحث مما يزيد قيمته الفنية والعلمية ، ويجعله بحق كسباً صحيحاً للمكتبة العربية .

الشفاء — المدخل (ايساغوجى)

للشيخ الرئيس ابن سينا

المطبعة الأميرية - ٧٧ + ١٥٩

٤٥ صفحة من القطع الكبير

عند ما اقترب العيد الألفى لمولد الشيخ الرئيس ، أصدر وزير المعارف منذ ثلاث سنوات قراراً بتشكيل لجنة من المشتغلين بالفلسفة على رأسهم الدكتور إبراهيم مدكور ، ويشرف على توجيه العمل الدكتور طه حسين باشا ، يكون الغرض منها نشر كتاب الشفاء ، وإعداد العدة لذلك بجمع المخطوطات المختلفة ، ورسم خطة النشر فبدأت لجنة مكونة من الأساتذة : الأب قنواتى ومحمود الخضيرى وأحمد فؤاد الأهوانى بنشر أول جزء من منطق الشفاء ، وهو المدخل ، المعروف باسم إيساغوجى . فراجعته على إحدى عشرة نسخة خطية ، بعضها موجود فى القاهرة ، والبعض الآخر مصور عن مخطوطات اسطنبول وقد تبين للجنة أن أصح النسخ وأوثقها هى نسخة الشيخ بخيت ، وهى المحفوظة بمكتبة الأزهر .

وجاء فى تصدير معالى الدكتور طه حسين لهذا الجزء قوله ، حين تحدث الناس عن الاحتفال بالعيد الألفى للشيخ الرئيس أبى على ابن سينا ، كبير فلاسفة الإسلام غير منازع ، رأيت أن خير مشاركة تقدمها مصر فى هذا السبيل يجب

مكتبتنا العربية

أن تكون كتلك المشاركة التى قدمتها مصر فى عيد أبى العلاء ، فتحيى آثار الشيخ الرئيس . كما أحيت آثار رهين المحبسين ... »

وقدم للكتاب الدكتور مذكور بمقدمتين فى ٧٧ صفحة . ترجمتا مع تصدير الدكتور طه حسين إلى الفرنسية فى ٤٥ صفحة ، فتحدث فى المقدمة الأولى عن كتاب الشفاء وموضوعه ومتى ألفه ابن سينا ، وفى أسلوبه ومنهجه . وفى صلته بكتب الشيخ الأخرى ، وفى مدى تعبيره عن فلسفته ، وفى شروحه ونقله إلى اللغة اللاتينية وأثره فى العالم العربى والغربى . ثم تكلم فى المقدمة الثانية عن المدخل ، أو إيساغوجى ، وصلة مدخل ابن سينا بمدخل فرفريوس ، وكيف عرض الشيخ الرئيس لموضوع المنطق ومنفعته ، وللفكر واللغة ، وغير ذلك من المباحث الرئيسية التى ضمنها مدخل المنطق . وأتبع ذلك بمنهج النشر ، مع وصف النسخ التى اعتمدت اللجنة عليها .

ولما كان هذا الجزء قد ترجم قديماً إلى اللاتينية وقد عهدت وزارة المعارف المصرية إلى الآنسة « دلفرنى » بنشر النص اللاتينى بعد تحقيقه ، فقد ألحقت اللجنة بالكتاب فهرساً للمصطلحات مع ما يقابلها باللاتينية .

وقد كان هذا الكتاب أنفس ما قدمته مصر فى مهرجان ابن سينا الذى انعقد فى بغداد فى شهر مارس ١٩٥٢ ، ووزعه الدكتور مذكور رئيس وفد مصر على أعضاء الوفود .

إيساغوجى

لفرفريوس الصورى نقل أبى عثمان الدمشقى
١١٦ صفحة ـ دار إحياء الكتب العربية

نشره الدكتور أحمد فؤاد الإهوانى ، مع مقدمة طويلة فى حياة فرفريوس الصورى ، تلميذ أفلوطين فيلسوف الاسكندرية ، وصاحب الأفلاطونية الحديثة . وجاء نشر هذا النص موافقا لنشر « مدخل الشفاء » لابن سينا ، لأنه اعتمد عليه ، وأيده فى بعض المسائل واختلف معه فى بعض المسائل الأخرى . وإيساغوجى كتاب يبحث فى الكليات الخمس ، وهى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام . ولا يمكن أن يفهم القارىء هذه الاشارات التى يذكرها الشيخ الرئيس ، وبخاصة لأنه لا يذكر اسم فرفريوس صراحة بل يقول عنه ، « صاحب إيساغوجى » أو « قال الرجل » وما إلى ذلك ، إلا بالرجوع إلى إيساغوجى فرفريوس .

أما ترجمة فرفريوس الصورى التى تقع فى ٦٦ صفحة ، فهى أول ترجمة فى اللغة العربية ، تلقى الضوء على حياة هذا الفيلسوف ، الذى تولى رئاسة مدرسة أفلوطين فى روما بعد موته ، والذى وضع أساس الفلسفة الكلامية بشروحه على أفلاطون وعلى أرسطو بوجه خاص .

كتب أجنبية جديدة

تعالج موضوعات إسلامية وشرقية

الاتجاهات الحديثة فى الإسلام

تأليف ه . ا . ر . جب

Modern Trends In Islam
H. A. R. GIBB

هذا كتاب للمستشرق المعروف مستر جب أهداه إلى « محمد حسنين عبد الرازق ذكرى صداقة خمس وعشرين عاما » ؛ والغرض من هذا

مكتبتنا العربية

الكتاب كما يتبين من عنوانه تتبع الاتجاهات الحديثة فى العالم الإسلامى وتبين بواعثها وأهدافها؛ وأثر زعماء الفكر فى نشأة هذه الاتجاهات ونشاطها ، كالسيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى مصر ، والسيد أحمد خان والشاعر محمد إقبال فى الهند وباكستان .

والأستاذ جب الذى ولد فى مصر ، والذى اشتهر بمؤلفاته عن الإسلام وحياة أهله خليق بأن يعرض هذه الاتجاهات الحديثة فى الإسلام عرض وثوق وخبرة ، وهذا ما يثبته مؤلفه الذى نتحدث عنه خير إثبات . ولقد اختتم هذا الكتاب القيم بفصل ممتع يعد من خير ما كتب فى بابه عنوانه « الإسلام فى العالم » شرح فيه مذاهب قادة الإسلام المحدثين شرحا موفقا .

موجز لطبيعة الشرك

AN OUTLINE OF THE NATURE OF SHIRK

من تأليف فاريشتا جابرييلا دى زاياس

من منشورات دار الشيخ محمد أشرف بلاهور (الباكستانى) الثمن روبيتان

يحاول هذا الكتيب (٧٩ صفحة) أن يحدد معنى الشرك كما نص عليه القرآن الكريم . ورغبة المؤلف من هذا التحديد هو الرد على عد المدعين بأن الإسلام فى الوقب الحاضر قد فشل فى مواجهة التحدى الذى جاءت به موجات العلم والفلسفة والمذاهب الفكرية المعاصرة .

وفى رأى المؤلف أن فشل بعض المسلمين أو بالأخرى أولئك الذين يتعلقون بقشور الإسلام ، فى مواجهة هذا التحدى يرجع فى الواقع إلى إشراكهم .

وفى هذا الكتيب فوق كذلك دعوة إلى مبادىء الدين الحنيف موجهة إلى المسلمين وغير المسلمين .

ايران وافغانستان

L'IRAN : PERSE et Afghanistan.

تأليف ريمون فورون

من منشورات : دار Payor بباريس

٣٣٦ صفحة وثمنه ٩٠٠ فرنك

هذه طبعة جديدة معدلة لكتابين أصدرهما المؤلف سابقاً وأدخل عليهما تنقيحات جديده : وكان أحد الكتابين يختص بإيران والآخر بأفغانستان ، فجمعهما المؤلف فى سفر واحد .

وللمؤلف رأى غريب فهو يطلق كلمة « إيران » لتشمل بلادفارس وأفغان ، مخالفاً بذلك المصطلح عليه فى جغرافية المنطقة والعرف الدولى وحقائق الأوضاع الراهنة .

ويحتوى الكتاب على إحصاءات عديدة عن مختلف النشاط فى هذين البلدين الإسلاميين ، ولكنه يغمط البلدين حقهما فى الحقائق التاريخية والاتجاهات الثقافية ونواحى العمران والتقدم السياسى الذى ألم بهما . ودراسة المسيو فورون نموذج من هذه المادة التى تصدرها المطامع الأجنبية عن البلدان الإسلامية فتحاول أن تبرز وجهات نظر متحيزة تسخر الإحصاءات والمراجع العلمية لهذه الغاية . لقد صدق مارك توين (الكاتب الفكاهى الأمريكى) إذ قال . إن هناك ثلاثة أنواع من الكذب : كذبة بيضاء ، وكذبة سوداء ، وكذبة الإحصاء !

مكتبتنا العربية

أنباء العالم الإسلامي

• فى غرة رمضان المبارك تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم أعزه الله فوجه رسالة ملكية كريمة إلى شعب وادى النيل العزيز جاء فى مستهلها قول الفاروق العظيم « يثير شهر رمضان فى نفوسنا نحن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أكرم المعانى ، يوحد بين قلوبنا ويؤلف بينها قرآن كريم نزل بالحق المبين على نبى كريم يهدى للتى هى أقوم ، وتمثل فيه تعاليم الإسلام السمحة التى تزكى فى المسلمين إيمانهم وتدفعهم إلى التعاطف والتراحم والتى يقوم الأزهر الشريف مؤيداً بكل ما نملك من قوة وتوجيه بنشر رسالتها بين المسلمين جميعاً لنقف درعاً واقياً ، وسداً حائلا فى وجه نوازع الشر ومبادىء الهدم والتدمير ، وهى رسالة ما أسماها وما أكرمها وما أشد جدواها وأعظم نفعها » .

وتوجه الملك العظيم بالدعاء إلى الله العلى القدير ، أن يعيد هذا الشهر المبارك على الأمم الإسلامية متمتعة بما تصبو إليه من نعمة الاستقلال وعزة الحرية » .

وتفضل جلالته فأشار إلى قضية الوادى بقوله « إن بلادنا وهى تناضل عن حقوقها قد صح منها العزم على إدراك مطالبها ، وإن سياستها هى سياسة الحرية والوحدة وقد توحدت بين العرش والأمة والحكومة وسنبقى أمناء على هذه السياسة » .

وقد شملت الأزهر ، شيخه وعلماءه وطلابه وموظفيه ، فرحة كبرى بهذه الرسالة الملكية الكريمة واشتد اعتزازهم بها . ورفع فضيلة الأستاذ الأكبر إلى مقام المليك كتاب شكر وولاء جاء فيه « إن هذه الرسالة السامية درس عظيم من دروس الإيمان والوطنية الصادقة ، جدير بنا معاشر أهل العروبة والإسلام أن نعيه وأن نتعمق فى إدراك معانيه ومراميه ، وأن نستمسك بما يدعو إليه من هدى وصلاح وعزة ، فى ظل من تعاليم الإسلام ومحبة الأوطان والحرص على أن نعيش فى بلادنا عيش الكرام » .

• وافقت بالإجماع لجنة حقوق الإنسان التى هى فرع من فروع هيئة الأمم المتحدة ، على مادة تتعلق بحرية الأديان لتكون جزءا من الميثاق المقترح التى تضع اللجنة صيغته ، وقد رددت الأنباء أنه كان للأستاذ محمود عزمى بك مندوب مصر ضلع كبير فى وضع صيغة هذه المادة ، فقد قال فى اللجنة « إن الشريعة الإسلامية لا تقبل الاضطهاد الدينى ، وإن المادة ١٢ من الدستور المصرى نصت على حرية الأديان ، وليس معنى ذلك حرية كل فرد فى اعتناق دين معين فحسب ، ولكن له أيضا حرية الانتقال من دين إلى آخر » .

وكلام الأستاذ عزمى بك يحتاج إلى تصحيح عاجل إذا صحت نسبته إليه ، فالإسلام وإن كان سمحا إلا أنه لا يبيح للمسلم أن يرتد عن دينه إلى دين آخر وإلا حق عليه القتل إن كان ذكراً ، والحبس حتى الموت إن كانت أنثى ، بعد أن يستتاب كل منهما ويمهل أياما ليتدبر فى الأمر . وأما المادة ١٢ من الدستور المصرى فمع أنها

مكتبتنا العربية

نصت على أن حرية الاعتقاد مطلقة ، إلا أن ذلك ليس معناه حرية الفرد فى الانتقال من دينه إلى دين آخر .

* فى السابع من شهر مايو الماضى أبلغت مشيخة الازهر أن حضرة صاحب الجلالة الملك تفضل فأصدر أمره الكريم بالموافقة على إنشاء مدينة فاروق الأول للبعوث التى تفد إلى الازهر من مختلف البلدان الإسلامية ، على أن تلحق هذه المدينة بالمبانى الحديثة المقامة إلى جوار الجامع الازهر وتسند رياستها الفخرية إلى حضرة صاحب السمو الامير محمد عبد المنعم .

وقد تفضل جلالة الملك فتبرع من ماله الخاص بعشرين ألف جنيه مساهمة من لدن جلالته فى إنشاء هذه المدينة .

* من مظاهر نشاط الباكستان فى كل ماله صلة بشؤون العالم الإسلامى توجيهها الدعوة لعقد مؤتمر لرؤساء وزارات الدول الإسلامية ، وبما تحدث به السيد محمد ظفر الله خان وزير خارجية الباكستان فى هذا الصدد قوله « إننا نحن رجال الدول الإسلامية لا نريد سوى وضع سياسة مجدية للتعاون بيننا ، فمعظم الدول الإسلامية تواجه كثيرا من الصعاب ينبغى العمل على تذليلها . ولن تتخذ قرارات ما فى المؤتمر الذى دعونا لعقده بل ستجرى مناقشات تسفر عن تفاهم وإدراك لمختلف وجهات النظر » ثم قال « إن المؤتمر لايهدف إلى إضعاف الجامعة العربية أو منح الباكستان دور الزعامة فى العالم الإسلامى ، أو فصم عرى التعاون والاتحاد بين أعضاء الكتلة الآسيوية الافريقية » .

* تعتزم البعثة الإسلامية فى ووكنج بانجلترة عقد مؤتمر من المسلمين المقيمين بالمملكة المتحدة عقب عيد الفطر مباشرة أى فى الخامس والعشرين من يونيو الحالى .

والغرض من هذا المؤتمر النظر فى الوسائل والسبل التى توثق الروابط بين المسلمين الذين يعيشون فى إنجلترة والتى تؤدى إلى عيشتهم معيشة جماعية .

وإذا نجح المؤتمر فإن البعثة سوف تفكر فى عقد مؤتمر فى العام القادم يجمع المسلمين فى انجلترة وأوربا .

وسترسل البعثة التفاصيل اللازمة لكل من يرغب شهود هذا المؤتمر ، كما أنها ترحب بأن تتلقى مقترحات من يهمهم هذا العمل .

* قررت السلطات السورية إصلاح زى رؤساء الدين والمعتقد أن الحكومة تبحث الآن فى تحريم لبس الطربوش .

وقد تم الاتفاق على زى موحد لرؤساء الدين لا يرتديه إلا من كان حائزاً لشهادة من دار الفتوى ، ولا يجوز للابسه دخول المقاهى .

ويتألف هذا الزى من طاقية بيضاء حولها عمامة أو قطعة قماش أو كوفية . أما رؤساء الاشراف فيرتدون عمامة خضراء على طاقية بيضاء وقد حظر الآن جعل العمامة فوق الطربوش .

وتلبس الجبة السوداء فى الحفلات الرسمية فقط . أما فى المناسبات الأخرى فتلبس الجبة من اللون الازرق القاتم على أن يكون تحت الجبة جاكته قصيرة وصدرية ، ويجب أن تقفل الجبة بأزرار إلى الرقبة ولا تستعمل « الكرفتات » .

ومن التشريعات الجديدة التى يضعها النظام الحالى فى سوريا مايتعلق بالجنازات ودفن الموتى

مكتبتنا العربية

والأنظمة التى يجب إتباعها فى هـــذا الصدد .

وستمنع الجنازات وأعمال الحانوطية بمقتضى قانون جديد . فإذا توفى شخص أبلغه ذووه قسما خاصاً بمصلحة الصحة السورية فترسل سيارة لنقل الجثمان .

* أفتتح أول مجلس تشريعى فى إريتريا بعد أن أجريت له انتخابات ويضم المجلس ٣٤ عضوا مسيحيا ومثلهم من المسلمين . وهـذه هى المرة الأولى التى تجرى فيها انتخابات عامـة فى تاريخ تلك البلاد . وقد انتخب ٣١ عضوا من الثمانية والستين بالتزكية ، وكانت نتيجة الانتخاب فى دائرتين إسلاميتين غير حاسمة وقـد أعيد الانتخاب فيهما مرة ثانية .

وستكون أول مهمة يضطلع بها المجلس دراسة مشروع دستور إريتريا الذى وضعه مندوب الأمم المتحدة .

والواقع أن الأكثرية الاسلامية فى إريتريا قد أصابها الإجحاف بهذا الإجراء الذى اعطى للأقلية المسيحية نسبة مساوية للأكثرية الاسلامية . فإن عدد السكان المسلمين فى إريتريا ثلاثة أضعاف السكان المسيحيين .

* يقـوم بعض المشاغبين فى ولاية البنغـال الشرقية بحملة لجعل اللغة البنغالية لغة رسمية فى ذلك الجزء الهام من الوطن الباكستانى ، وهدف هـذه الحركة تشجيع اللامركزية فى الدولة الباكستانية الاتحادية .

والمعروف أن لغة الباكستان الرسمية هى الاوردية ، وهناك مساع ومشروعات وضعها المسؤولون الباكستانيون لجعل اللغة العربية فى المستقبل هى اللغة الرسمية للباكستان لانها لغة الكتاب والسنة ولأنها تعزز أواصر الاخوة والوحدة الإسـلامية التى يتوق الباكستانيون إلى تحقيقها .

وقد أصـدر الأمين العـام لحزب العصبة الإسلامية فى شرقى الباكستان السيد يوسف على شودورى نداء إلى أعضاء العصبة ناشدهم فيه السكينة وعدم التعرض لهؤلاء المشاغبين بالأذى حرصا على الأمن وصيانة لوحدة الأمة .

* فى أواسط القارة الافريقية عـدد كبير من المسلمين من السكان الاصليين الزنوج ، ومن الجاليات الإسلامية التى هاجرت إليها من السودان والصومال وجنوبى جزيرة العـرب ومن الهند وللباكستان .

وقد بلغ الوعى فى منطقة النفوذ البريطانى فى أفريقيا الوسطى حدا كبيرا ، وأصبح من الصعب على السلطات البريطانيـة الحاكمة أن تظل على عهدها بأساليب الاستعمار القديمة .

وكانت آخر مظاهر حركة التحرر الوطنية فى هذه المناطق الرغبة فى الوحدة الإقليمية ، وصيانة حقوق السكان الوطنيين إزاء مطامع الرجل الأبيض (الاوربى) .

ولم تجد بريطانيا مناصا من التسليم على مضض ببعض مطالب هذه الحركة . فقد تم الآن إعداد دستور يوحـد المناطق الآنفة الذكر ، ويحقق للسكان الوطنين بعض الحقوق السياسية .

وستجرى قريبا انتخابات عامه يشترك فيها المسلمون وغير المسلمين من السكان الافريقيين لاختيار ستة نواب للمجلس التشريعى مقابل ستة وعشرين نائبا من الاوربيين المستوطنين هناك .

* * *

مكتبتنا العربية

لا ولاية بين الحق والباطل

لصاحب الفضيلة الشيخ محمد محمد المدني

تحية لوفد السودان فى مصر

هناك فرق بين « الولاية » التى هى النصرة والمعاونة على تحقيق غرض مشترك ، بحيث يشعر كل من الوليين أن لصاحبه عليه حقاً هو مطالب بأدائه عن باعث قلبي ، وبين البر والقسط ، اللذين يجب ان يسودا المجتمع ، وتقوم عليهما العلاقة بين المواطنين ، وإن لم تجمعهما فكرة ، أو تؤاخ بينهما عقيدة . ولذلك يبيح الإسلام للمسلم أن يعامل مخالفه فى الدين معاملة أساسها البر والرحمة والقسط ، ما دام لم يصدر منه إيذاء له أو تحريض عليه ، أو محاولة لفتنته عن دينه ، « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، بل لعله يذهب إلى أبعد من هذا فيبيح للمسلم أن يتخذ البر والقسط أساساً للتعامل بينه وبين مخالفه الذى آذاه ، وظاهر عليه بشرط ألا يصل هذا البر به إلى حد أن يكون له ولياً وناصراً . فإنه لا ولاء بين مؤمن وكافر ، وقد يستفاد هذا من قوله تعالى بعد الآية المتقدمة : « إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » . فلم يقل كما قال فى الآية الأولى « أن تبروهم وتقسطوا إليهم » ، ولكن قال « أن تولوهم » ، فدل ذلك على أن المنهى عنه هو اتخاذهم أولياء ، لا مجرد البر بهم والقسط إليهم .

وقبل هاتين الآيتين يقول جل شأنه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » ، وفى هذا إيحاء بأن العداوات ليست دائمة ، وأن القلوب تتغير وتتحول ، وأن الرفق والإحسان قد يكونان سبيلا إلى إصلاح النفوس ، وتقريب القلوب ، وفى الحديث الشريف : « أحبب حبيبك هوناً ما ، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » .

وقال الشاعر :

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

* * *

إذا توافق جماعة على أمر ، فكان نظرهم إليه واحداً ، وحظهم منه واحداً ، فالفطرة تقضى بأن يكونوا فيه نصراء ، بعضهم أولياء بعض ، لا فرق فى ذلك بين المحقين والمبطلين ، ولذلك أثبت الله الولاية للمؤمنين والكافرين . فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ، « والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » ، ولم يثبتها للمنافقين . ولكن قال : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » ، والتعبير بلفظ (من) يدل على معنى التشابه ، ولا يفيد معنى التناصر والولاية إذ لا رابطة بين منافق ومنافق ، فكل منهما يريد أن يصل من طريق النفاق إلى ما يبتغيه دون

مكتبتنا العربية

أن تساوره فكرة الانتصار لشيء ، لأنه غير مؤمن بشيء !

وقد نهى الله المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء في غير موضع من كتابه الكريم نهياً شديداً .

فمن ذلك ما جاء في أول سورة « الممتحنة » ، وهي سورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق »

وقد نزلت هذه الآيات في شأن حاطب بن أبي بلتعة وهو رجل من المهاجرين شهد بدراً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، فلما عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة أراد حاطب أن يتخذ في قريش يدا يحمون بها قرابته وماله ، فكتب إليهم كتابا يخبرهم فيه بما اعتزمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسله مع ظعينة كانت بالمدينة وقصدت إلى مكة ، فأطلع الله رسوله على ذلك فأرسل عليا والزبير والمقداد فأدركوها في الطريق وأخذوا منها الكتاب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياحاطب ما هذا ؟ » ، قال « لا تعجل عليّ . إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ، ولم أكن من أنفسهم - يعني أنه لا نسب له فيهم لأنه إنما كان حليفا لعثمان - وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يدا يحمون بها قرابتي . وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ولا رضا بالكفر بعد الإسلام » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه صدقكم » فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقد جاء التعبير في هذه الآية وغيرها بقوله : « لا تتخذوا » إشعارا بأن العلاقة بين المسلمين والكفار لا يمكن أن ترقى إلى درجة الولاية الحقيقية الطبيعية ، وإنما هي من باب « الاتخاذ » والاصطناع ، وذلك أن هناك فرقا بين أن تقول : فلان صديق فلان ، وأن تقول : اتخذه صديقا ، فالأول مفيد أن الصداقة بينهما حقيقة طبيعية ، والثاني دال على أنها تعتمد التكلف والتصنع ، وقد جاء لفظ « الاتخاذ » في القرآن الكريم غالبا فيما ليس الشأن فيه أن يكون ، مثل « ما اتخذ الله من ولد » « إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب » « إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا » « اتخذوا أيمانهم جنة » « اتخذوا دينهم لهوا » « اتخذوا الشياطين أولياء » ، ولا يخرج عن ذلك ما جاء في قوله تعالى : « واتخذ الله إبراهيم خليلا » فإن شأن الألوهية عدم الخلة على الحقيقة وإنما هو اتخاذ أي اصطفاء واختصاص بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله .

فالقرآن ينهى المؤمنين عن إيجاد هذه العلقة بينهم وبين الكافرين ، بأن يتخذوهم أولياء يلقون إليهم بالمودة ، أما الولاية الحقيقية فمنفية بالطبع ليست مما يُنهى عنه ، لأن المؤمن الذي استقر الإيمان في قلبه حقاً وصدقا لا يمكن أن يجتمع في قلبه مع الإيمان ولاء لكافر عدو لدينه .

* * *

مكتبتنا العربية

بين لنا القرآن الكريم الأسباب التى من أجلها نهينا عن اتخاذ أعداء الله أولياء فكان منها :

(١) أن العداوة بيننا وبينهم أساسية جوهرية ، فنحن قد آمنا بما جاءنا من الحق ، وهم قد كفروا به ، ولا يمكن لاثنين مختلفين فى أمر أساسى أن يتعاونا تعاونا صادقا . نعم قد تتلاقى مصالحهما فى شىء فيتفقان عليه ، ويتحالفان فى سبيله ، لكن هذه العلاقة بينهما ليست بسبيل من الولاية بمعنى نصرة أحدهما للآخر ؛ لأنه فى الحقيقة إنما ينصر نفسه ويتخذ ذلك سبيلا لتحقيق مصلحته . وشتان بين هذا وبين من ينصرك ناظرا إلى أنك مستحق لنصرته وإن لم يفد منها لنفسه خيرا ، أو يدفع بها عن نفسه ضيرا ، وقد استفيد هذا التعليل من قوله تعالى : « وقد كفروا بما جاءكم من الحق » .

(٢) أن هؤلاء الأعداء لا يزالون يعملون على فتنتنا عن الحق الذى آمنا به ، فهم أخرجوا الرسول وأخرجونا من ديارنا لا لشىء إلا لأننا آمنا بالله ربنا ، وهم لا يدعون فرصة يتمكنون فيها من إيذائنا إلا انتهزوها ، وهم يتمنون من صميم قلوبهم أن نخرج من ديننا فنعود إليهم كافرين « يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم » « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون »

وإذا كان الاختلاف فى العقيدة مانعاً من أن تقوم بين المختلفين ولاية أو شبه ولاية ، فما أجدر أصحاب الدعوات الإسلامية بأن يكونوا على حذر من الذين لا يؤمنون بدعواتهم ، ولهم تاريخ فى إيذائهم والتحريض عليهم ووداده فتنتهم وانقلابهم ، إنهم يطلبون محالا إذا ظنوا أن ملابسة هؤلاء على باطلهم تجتلب ولاءهم ، أو تكفكف من غلوائهم ، فقد فسدت منهم القلوب ، والتوت العقول .

* * *

وبين لنا القرآن الكريم البواعث التى تبعث على اتخاذ الكافرين أولياء ، وأنها ترجع إلى ضعف فى النفوس ونقص فى الإيمان :

١ — فمن ذلك أن يلاحظ المرء مصلحة لأهله ورحمه ، فيجامل مخالفيه فى العقيدة إلى حد أن يكون لهم وليا ونصيرا على إخوانه وموافقيه ، حفظا لمصالح أهله ورحمه ، وهذا هو ما أراده حاطب بن أبى بلتعة حين كاتب قريشاً ينبئها بخبر الرسول ، وهذا ضعف فيه كاد يودى به ، وقد سماه عمر رضى الله عنه نفاقا ، ولولا سابقة الرجل وأنه كان من أصحاب بدر وما وقر فى نفس الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صدقه لكان من الهالكين .

فعلى المؤمن أن يكون واثقاً بالله ، متوكلا عليه ، وأن يؤدى ما فرضه عليه ، وينتهى عما نهاه عنه ، غير ناظر إلى عواقب ما يفعل أو يترك ، فإنه إذا كان مبتغياً بفعله وتركه وجه الله كان الله حسبه ، وإذا دار فيما يفعل أو يترك حول أوهامه فى نفسه أو ولده أو رحمه اضطرب وأغضب ربه ولم ينفعه ما قدر « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » .

مكتبتنا العربية

وفى هذا إيحاء بخطأ الذين يخرجون عن حدودهم وما أمرهم الله به خوفا على أهليهم وأولادهم ، فتراهم يرتكبون الأوزار ، ويغضون عن مرتكبيها ، مصانعة لعيشهم ، واحتفاظاً بوظائفهم أو مراكزهم فى المجتمع ، وضنا بأولادهم أو أقربائهم أن يصيروا إلى فقر بعد الغنى ، أو ذل بعد العز ، أو تقشف بعد النعيم ، وهؤلاء فى الحقيقة يوازنون بين رضا الله ورضا أنفسهم وأهليهم وشهواتهم على الله وبئس ما يصنعون .

٢ — ومن ذلك أن ينظر المرء إلى عدوه نظرة الخوف من تغلبه عليه « فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة » .

وهذا شأن كثير من الذين تبتلى بهم دعوات الإصلاح والخير ، فى قلوبهم دائماً فزع ، ينظرون إلى غدهم متوجسين منه شراً ، ولا يستطيعون أن يواجهوا أهل الباطل أقوياء ثابتين ، وإنما يقفون أمامهم متزلزلين خائفين ، وإن ضرر هؤلاء على أصحاب الإصلاح لشديد ، بل هم أشد من الأعداء السافرين . وقد دلت التجربة الصادقة على أنه لا صلاح لأمر إلا إذا كان الدعاة إليه والقائمون عليه مؤمنين به ، حاسمين فى موالاة أوليائه ، ومجافاة أعدائه ، أما التوسط فى هذا فلا خير فيه ، بل هو الشر كل الشر .

٣ — ومن ذلك أن يبتغى المرء بموالاة عدوه شيئاً من العزة والسلطان والجاه ، فتراه يتشبث بأهدابه ، ويترخص فى مجاملته وموالاته ، وهو يعلم أنه عدو الله ، ولعله لا يبذل مثل هذه المجاملة والموالاة لبعض أصحابه ، ويعلل هذا وذاك بأنه كياسة ولباقة ومداراة واتقاء لقالة السوء وابتعاد عن مظنة النحيز ، وما هو فى الحقيقة إلا ضعف وكلال « الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعا » .

٤ — ومن ذلك أن يتقى المرء بموالاة عدوه شيئاً من ضرره وأذاه ، وهذا فى الحقيقة ليس موالاة وإنما هو نزول موقت على مقتضى القوة ، يجب أن يقدر بقدره . وقد جاء ذلك فى قوله تعالى « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » .

قال المفسرون : الاستثناء فى هذه الآية معناه أن ترك موالاة الكافرين على المؤمنين حتم فى كل حال إلا فى حال الخوف من شىء يتقونه فلهم حينئذ أن يوالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشىء لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وهذه الموالاة تكون صورية لأنها للمؤمنين لا عليهم .

والظاهر أن الاستثناء منقطع أى ليس لكم أن توالوهم على المؤمنين ، ولكن لكم أن تتقوا ضررهم بإجابتهم إلى ما يطلبون مما يشبه الولاية والنصرة مع أخذ الحذر من الله ، واتقاء أن يعلم فيكم سوءاً أو نية باطلة ، والله عليم بذات الصدور ؟

محمد محمد المدنى

مكتبتنا العربية

الأدب والعلوم في شهر

محنة الأدب :

نشرت جريدة الأهرام فى نهاية شهر مايو الماضى مقالا بهذا العنوان للدكتور طه حسين باشا ، استهله بقوله : « حياتنا الأدبية فيما يظهر من أمرها راكدة خامدة ، ما فى ذلك شك ، فقد أصبحت الكتب القيمة نادرة ، يمر العام دون أن يظهر منها كتاب واحد ، فضلا عن كتابين أو كتب ، والصحف اليومية والأسبوعية لاتكاد تحفل بالأدب ، وقد تمر الأسابيع وقد تمر الشهور دون أن نقرأ فى صحيفة يومية أو أسبوعية فصلا أدبيا ذا بال . والمجلات الشهرية تعنى بلون من الأدب يسير ، لا يكلف كاتبه عناء طويلا ولا يكلف قارئه جهداً ثقيلا » .

ومما قاله الدكتور : « إن مصر قد وجلت حتى كاد الوجل يقض مضاجع أبنائها حين جاءها النذير بغارة الجراد ، ولكن مصر لم تحس وجلا ولا فرقا حين أجدبت الحياة الأدبية . عفا الله عن مصر ، ما أشد تقصيرها فى ذات الأدب والفن والعلم » .

وقد عزا الدكتور محنة الأدب إلى أسباب كثيرة أهمها فى نظره ثلاثة : أولها يأتى من ظروف السياسة وما يتبعها من رقابة ، وثانيها من الناشرين وشيوخ الأدب ، وذلك أن كثيراً من الشباب يكتبون ثم لا يعرفون كيف يظهرون الناس على ما يكتبون ، ولا يجدون من شيوخ الأدب تشجيعاً ولا تأييداً ، وثالثها من ضعف التعليم الأدبى فى مصر ، ففى مصر مدارس ومعاهد وجامعات يدرس فيها الأدب ولكنه يدرس على نحو يحزن أكثر مما يسر » .

وقد بعث هذا المقال نشاط كثيرين من الكتاب فردوا على الدكتور بين مؤيد لرأيه ومخالف له ، وعقب الدكتور على هذه الآراء فى مقال آخر ، ثم اغتبط بهذا النشاط قائلا إن فيه « دليلا قاطعاً على أن فى أدبنا حياة كامنة تريد أن تظهر وخصبا مستترا يريد أن يملأ الجو العقلى سعة ورخاء » .

لم يعد السرطان غولا مخيفا :

ابتكر العالم الأمريكى الدكتور سدنى جلادستون طريقة جديدة لفحص حالات السرطان فى درجاته المبكرة التى كثيراً ما يصعب اكتشافها بالوسائل التى كانت متبعة حتى الآن . وبذلك هان الأمر كثيراً وغدا من الممكن تدارك المصاب وعلاجه قبل أن يستفحل الداء ويعز الدواء وينتهى إلى المصير المحتوم .

كانت الطريقة المستخدمة لاكتشاف السرطان حتى سنة ١٩٤٨ معقدة تستغرق وقتاً وجهداً طويلين ، ويحتاج الطبيب إلى دراية خاصة للتمرن على إجراء الاختبارات اللازمة لذلك الكشف . وفى النهاية يتمخض الاختبار عن النتيجة المؤلمة . وهى أن الداء قد بلغ مرحلته النهائية .

أما طريقة الدكتور جلادستون فتمتاز بالسهولة

مكتبتنا العربية

والبساطة واختصار الوقت ولا يحتاج الطبيب إلى دراية خاصة أو أدوات خاصة ؛ فقطعة صغيرة من الإسفنج هى كل ما يتطلبه الاختبار.

ولقد تم فحص ألفى حالة بالطريقة الجديدة فأمكن اكتشاف الإصابة فى وقت مبكر ، كما أمكن - وهذا هو المهم - التأكد من أن كثيراً من القرح المريبة لا صلة لها بالسرطان بالمرة ، فأنقذ المصابون من جراحات خطيرة لا مبرر لها.

والآن تعتبر طريقة جلادستون - التى بحثت فى المجلات العلمية العالمية ، والتى منح صاحبها شهادة الجدارة تقديرا لجهوده التى أدت إلى ابتكارها ، من الطرق العلمية الثابتة المعترف بها ، بعد أن نوقشت وجربت فى المؤتمرات العلمية ، وبعد أن شاع استخدامها فى انجلترة وإيطاليا والولايات المتحدة.

الاحتفال فى أمريكا بذكرى إقبال

دعا معهد الشرق الأوسط الأمريكى بواشنطن فى الشهر الماضى ، جمعاً كبيراً للاحتفال بذكرى شاعر الإسلام « محمد إقبال » ، وقد شهد الحفل عدد من الرجال الرسميين وعدد من رجال الأدب والفكر ، من أمريكا وباكستان ومصر وإيران. وكان من خطباء هذا الحفل الأستاذ محمد حسن الزيات الملحق الثقافى بالسفارة المصرية الذى نوه بما قدمه إقبال إلى الإنسانية ، ورأى فيه مرشداً يهدينا إلى القمة التى نريد أن نبلغها » ؛ وتكلم بعده سفير الباكستان ، فشكر للمعهد احتفاله باسم باكستان والعالم الإسلامى ؛ ونوّه بما صنعه إقبال من المزج بين ثقافة الشرق والغرب ؛ وأعقبه أمريكى من قسم الدراسات المتصلة بالشرق الأدنى ، وأشار إلى أثر إقبال فى نهضة المسلمين الإصلاحية ؛ وتكلم غلام على ، مستشار السفارة الايرانية ، فوضع إقبال فى مستوى أقطاب الفكر والأدب فى العالم ؛ وخطب غير هؤلاء ، الدكتور كانتول سمث مدير المعهد الإسلامى بجامعة ماكجل بكندا ، والأستاذ خليل أحمد ناصر محرر صحيفة « شروق الاسلام » التى تصدر فى وشنطن.

بطيخ خال من البذور :

نوه الدكتور « بولارد » أحد خبراء برنامج فولبرايت للبحوث العلمية ، وقد غادر مصر أخيراً لاستئناف عمله فى جامعة « ايداهو » بالولايات المتحدة أستاذا لعلم فلاحة البساتين ، بالأبحاث التى كان يقوم بها بالتعاون مع وزارة الزراعة فى مصر وكلية الزراعة بجامعة فؤاد الأول عن إنتاج بطيخ بدون بذور.

وقد أوضح بأن البطيخ الهجين الخالى من البذور لايزال فى مرحلته التجريبية تماما كما كانت الذرة الهجين منذ عشرين عاما.

وذكر الدكتور « بولارد » أن فى الإمكان استخدام الكولشسين - وهى مادة قلوية لمنع تكوين الألياف فى خلايا النبات - فى علاج بذور البطيخ عقب تفريخها مباشرة وذلك لإنتاج بطيخ خال من البذور ، وكان عمله فى مصر ينحصر فى معرفة درجة تركيز الكولشسين اللازمة ومدة استخدامها فى مختلف أنواع البطيخ المصرى.

ثم قال إن هذه الطريقة فى إنتاج بطيخ خال من البذور ليست صعبة على الرغم من حاجتها إلى عدد كبير من الأيدى العاملة ، وارتفاع أجور العمال فى الولايات المتحدة يحول دون إنتاج مثل هذا البطيخ هناك ، أما فى مصر فيمكن إنتاجه مع ضمان الربح.

واستطرد يقول إن البطيخ الخالى من البذور

مكتبتنا العربية

له مزايا أخرى إلى جانب سهولة أكله . فهو يقاوم الأمراض ويحتوى على كمية أكبر من السكر ويمكن حفظه مدة أطول .

هيلين كيلر تصف مشاهداتها فى مصر

وصفت الآنسة هيلين كيلر وهى الكاتبة الأمريكية العمياء الصماء التى زارت مصر أخيراً زيارتها لمصر بقولها :

ما أبدع منظر القاهرة من عل بقسميها الجديد والقديم . وما أروع النقوش الجميلة التى لامست أصابعى فسحرتها بنشوة الإعجاب والتقدير .

وماذا عسى أن أقول فى متحف القاهرة العجيب ، حيث لمست بالفعل مدنية جبارة دفنت حية . أو فى النيل البديع ، وحدائقه الغناء فى جانب والأهرام الشامخة الشماء فى جانب آخر ؟

لقد خالجتنى رهبة غريبة وأنا أفكر فى الآلاف المؤلفة من الرجال الذين رفعوا تلك الصخور الضخمة الصماء ليشيدوا بها أهرام مصر ، وفى الملوك الذين دفنوا هناك فتحولت أجسامهم إلى تراب ورماد ، بينما صمدت تلك المبانى الحجرية لعوادى الأجيال والقرون .

ثم ما أروع تلك الليلة التى قضيناها فى الصحراء تحت ظلال الأهرام الجبارة حيث شعرت كما لو كنت أرى بعينى وأسمع بأذنى ذلك السكون العميق ... وكأنه سكون عالم لم يولد بعد ، ذلك الغموض الرهيب ... غموض الرمال التى تمتد على مرمى النظر فى جميع الاتجاهات .

على أن ما هو أعظم من جميع هذه الأعاجيب التى لمستها فى مصر ، تلك الحفاوة البالغة والتكريم الخالص الذى يمتاز به الشعب المصرى ، وطهارة النفس ونقاء السريرة اللتان تنطوى عليهما قلوب العاملين لخير المشوهين وذوى العاهات ، وفخرى وابتهاجى بصداقة معالى طه حسين باشا ، والرضا الذى غمر نفسى لعلمى بأن العميان فى مصر سيعوضون من عصور عذابهم المظلمة عن طريق ذلك النور الداخلى الذى يبعثه فى قلوبهم التعليم والحياة المفيدة .

مرشح لاسلكى جديد :

تشكو الإذاعات عامة - وإذاعات الموجة القصيرة على وجه خاص - من مختلف ضروب التشويش الصناعى والمؤثرات الجوية الطبيعية .

ولقد استطاع المهندسون الأمريكيون الذين يعملون فى محطة صوت أمريكا اختراع جهاز صغير الحجم ، رخيص الثمن لترشيح الإذاعات الخارجية إلى حد كبير مع الاحتفاظ بالإذاعة فى مستوى صوتى مسموع .

ويستخدم الهترودين - وهو اسم المرشح الجديد - فى محطات التقوية التى تستقبل الإذاعات من المحطات الرئيسية ثم تذيعها فى الحال . وقد دلت التجارب على نجاح الهترودين فى تخفيف ٥٢ فى المائة من المؤثرات الجوية واللاسلكية .

ويتفوق المرشح الجديد على مرشحات البلور القديمة من حيث محافظته على درجة الصوت بينما تنخفض المرشحات البلورية بدرجة الصوت إلى مستوى غير مسموع .

ويقول الدكتور « ولسون كومبتون » مدير إدارة الاستعلامات الأمريكية : إنه وإن كان الهترودين لم يتغلب على التشويش الذى يوجهه السوفييت إلى الاذاعات الأمريكية الخارجية ، فإنه مع ذلك خطوة عظيمة فى سبيل اختراق الستار اللاسلكى الذى أقامه الكرملين .

مكتبتنا العربية

طرائف علمية وأدبية

الجسم يعمل أبدا

يعتمد أتباع الطريقة الغاندية فى الصوم على نظرية (الجسم يعمل أبداً) ويقولون إنه فى حال انقطاع الجسم عن تناول الطعام عن طريق الفم يبتكر طريقة جديدة للتغذية ، فيبدأ بإحراق المخزونات الدهنية المتلبدة فى مستودعاته الكثيرة وأهمها البطن ، وهو مستودع الشحم الذى ينتج عن كثرته ضعف فى القناة الهضمية ، أما القلب وجلدة الرأس فهما مستودعان للدهن ، فالدهن يسبب ضعف الأول ، ويميت بصيلات شعر الرأس فيؤدى إلى الصلع فى الثانية ، فالجسم يتغذى بهذا الدهن الضار أثناء الصوم . وهذا يعنى أن التغذية الداخلية تبتدىء بعد عشرين ساعة على انقطاع الطعام الخارجى ، إذ يبتدئ الجسم بأخذ الاحتياطات الكافية لدرء الخطر فيجهز العضلات الزائدة ويجعل منها وقودا لحفظ حرارة الحياة فيه.

ويعتقدون أن الصوم مدة أربعين يوما يشفى من جميع العلل الجرثومية ، لأنه يحرق الخلايا الهزيلة والفضلات التى لا يحتاج إليها ويتغذى بها ، وهذه الفضلات هى بمثابة أعشاش للجراثيم ، فيتعذر على أية جرثومة أن تعيش بعد فقدان عشها . ويؤكدون أن فى كل جسم فضلات زائدة ضارة تكفيه لأن يتغذى أربعين يوما فقط وهذا معناه أن كل إنسان يمكنه أن يقضى هذه المدة المحدودة دون طعام .

الحرب المقبلة :

صرح الفيلسوف البريطانى برتراند رسل أن روسيا سائرة بخطى واسعة إلى حرب جديدة ستدوم على الأقل عشر سنوات ، وأن العالم يشرف اليوم على الحرب العالمية الثالثة لأن روسيا ترى أن مجابهة الولايات المتحدة اليوم أفضل من مجابهتها فى مستقبل غير محدود ، تصبح فيه القنبلة الهيدروجينية أمراً واقعياً . ثم قال : « إن كثرة الإشاعات عن انفجار ذرى فى روسيا تحمل على الاعتقاد بأن لدى الاتحاد السوفييتى نوعا من القنبلة الذرية . وفى رأيى أن نار الحرب القادمة ستشب فى وقت واحد فى أوربا وآسيا . ولن ينجو أحد من سكان لندن إذا اتخذت الحرب الشكل الذى أتصوره » .

نشاط المخ :

يقول العلماء : إن أمخاخ السمك والزواحف هى أدنى الأدمغة وأقلها تطوراً ونمواً بين سائر الأحياء ، وإن مخ الإنسان على كبره وقابليته للتطور أكثر تعقداً بشكله وتركيبه ؛ فهو كتلة من الأنسجة والخلايا والأعصاب وغيرها .

مكتبتنا العربية

والمخ الإنسانى هو مركز النشاط العقلى . وإليه ينتهى قسم كبير من الطاقة التى تولدها الأغذية فى الجسم .

وقد صرح أخيرا الدكتور هرولد هرتلى الإنجليزى وأحد الاختصاصيين بدرس المخ فى الجمعية البريطانية لتقدم العلوم ، بأن المخ يستهلك أحياناً من نشاط الجسم ثلثه ، وأنه يستهلك ربع هذا النشاط متى كان الجسم مستريحاً لا يعمل فيه غير القلب والرئتين .

التعليم بالتلفزيون

ابتدعت جماعة وسترن ريزرف بولاية أوهايو طريقة تربوية مبتكرة أتاحت للكثيرين أن يستمتعوا بدراساتهم إلى جانب الموقد دون تكلف مشقة الذهاب إلى الجامعة . فلقد نظمت الجامعة منهاجا بالتلفزيون لمحاضرات علم النفس والأدب المقارن يستطيع المتتبع لها أن يحصل فى النهاية على نفس الشهادة التى ينالها الطلبة الحاضرون .

عجائب الطبيعة

ظهر فى نيويورك كتاب جديد للعالم والمكتشف الأمريكى الدكتور روى تشابمان أندروز ، أورد فيه كثيراً من عجائب الطبيعة نجتزىء منها بالأمثلة الفلانل الآتية :

« تشم العثة رائحة أختها على بعد ميلين » .

« يسمع الهزار الأحمر صوت الديدان فى حركتها تحت الأرض » .

« يولد الأنقليس (ثعبان الماء) شحنة كهربائية تكفى لقتل حصان » .

« لا يزيد حجم الفنفر الوليد على حجم قرص الاسبرين » .

إنسان الغد

فى رأى عالم طبيعى أميركى أن إنسان الغد سيكون مسيخا إذا استمر الناس على هذه الحياة الصناعية التى يعيشونها . فانصراف إنسان اليوم عن الأغذية الفاسية التى تقتضى مضغاً عنيفاً سيفقده أضراسه ، واعتماده على الآلة فى معظم شؤونه سيضعف حيويته ، ويصبح عرضة لمختلف الأمراض ثم يقول : إن أجدادنا الذين عاشوا منذ عشرة آلاف سنة كانوا يختلفون عنا اختلافا كبيراً بعضلاتهم القوية وأضراسهم الطبيعية التى كانوا يقضمون بها الحبوب ويدافعون بها عن كيانهم . وإن الابتعاد عن الحياة الطبيعية قد مسخ شكل الإنسان حتى أنك لا تشاهد فى أكثر الناس اليوم غير الأصلع والبطين والحسير والسقيم وأمثالهم .

الجراحة الحديثة

تخطو الجراحة خطوات جبارة فى سبيل التقدم وتكشف عوالم جديدة فى الفن الجراحى ، فقد جاء فى مجلة « العلم والحياة » الفرنسية أن بعض الاختصاصيين يعتمدون نوعاً جديداً من المعجونات التى يطلقون عليها اسم « بلاستيك » لتشغل مقام العظم الذى يحتاج الجراح أحيانا إلى قطعة من الجسم ولا سيما فى استبدال بعض الأعضاء كالآذان والأنوف والأشداق وأجزاء من الجمجمة .

وذهبوا إلى أن للبلاستيك مزايا ليست لغيره

مكتبتنا العربية

فهو ينحل ولا يلتوى، فضلا عن أنه سهل الالتصاق دون أن يضر بألياف الجسد مع المحافظة على مرونته الطبيعية .

الطاقة الذرية وكنوز البحار

تتجه أنظار العلماء إلى استخدام الطاقة الذرية لاستخراج ما فى البحار من الكنوز التى لا تحصى ، فالبحار على قولهم تحوى من الذهب ما لو وُزّع على سكان الكرة الأرضية لأغناهم ؛ إذ فى كل ميل مربع من المياه البحرية نحو ١٦٠ طنا من العناصر الكيماوية ، وفى هذه الكمية من الذهب ما تبلغ قيمته ٢٥ مليون دولار ، ومن اليود ٣٠ مليون دولار ، وفيها ٢٥٠ الف طن من البرومو ، وخمسة ملايين وخمسمائة الف طن من المغنزيا الذى هو أخف المعادن الصناعية .

انفجار كوكب

انفجر أحد الكواكب القديمة عام ٣٤٢ ميلادية . وفى العاشر من شهر نوفمبر عام ١٩٤٢ تمكن بضعة علماء من مشاهدة هذا الانفجار الذى استغرق وصول مشهده إلى أرضنا ألفاً وستمائة سنة . وقد كان نوره يسير مدى هذه الأعوام كلها على معدل ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية ...

الدم والشخصية

قديماً كانوا يعتبرون الدم أحد الأخلاط الأربعة التى يتركب منها الجسم ، وكانوا يعتقدون أن الجسم إذا دخل فيه دم غريب اكتسب خاصة جديدة . وقد ظل هذا الاعتقاد سائداً حتى القرون الوسطى مع أن محاولة نقل الدم من جسم إلى آخر لم تنفذ إلا فى القرن السابع عشر .

وفى سنة ١٤٩٢ أشير على البابا أينو سانسيو الثامن أن يشرب من دم ثلاثة فتيان ليستعيد قواه . ولا يزال الكثيرون فى يومنا يعتقدون أن الدم يمثل شخصية الإنسان ، غير أن هذا الاعتقاد ليس مبنياً على حقيقة علمية كما أثبت السير ليونل وينبى أستاذ الطب فى جامعة كمبردج بقوله : « إن الصفات لا تنقل من شخص إلى آخر بواسطة الدم ، وكل جسم يدخل فيه دم غريب لا يكتسب شيئاً من طباع صاحب هذا الدم أو من خاصية جنسه ، سواء أكان زنجياً أم صينياً أم أوربياً . وعلى هذا فخصائص الفرد وصفاته تنتقل إليه بالوراثة لا بالدم الغريب » .

رأى إديسون فى الكيمياء

يقال إن إديسون لما بلغ السنة الرابعة والثمانين من عمره ألقى عليه مراسل إحدى الصحف السؤال التالى : إذا فرضنا أنك عدت إلى الشباب ثانية فأية مهنة تمارس ؟ فأجابه إديسون بدون تردد : « الكيمياء ! »

إن الكيمياء تتعلق بجميع العلوم ، وستؤدى الاكتشافات الكيماوية للجنس البشرى فى المستقبل منافع هامة يستحيل علينا أن نتخيلها الآن » .

مكتبات للمكفوفين

فى الولايات المتحدة ٢٧ مكتبة إقليمية تشرف عليها الحكومة وتقوم بإعارة المكفوفين - دون مقابل - تسجيلات صوتية للكتب المختلفة فضلا عن الكتب المطبوعة بطريقة بيرل .

مكتبتنا العربية

النشاط الثقافي للأزهر

إيفاد مكفوفين إلى فرنسا وإنجلترة :

وأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ما أبداه عالمان مكفوفان أحدهما مدرس بمعهد القاهرة والآخر مدرس بالقسم العام ، من تفوق يستحق الرعاية الخاصة فرفع كتابا بشأنهما إلى الدوائر المسؤولة ، فوافقت على إيفاد هذين العالمين إلى أوربا ، أولهما إلى فرنسا وهو الشيخ محمد فتحى عبد المنعم وهو حائز على شهادة العالمية مع إجازة التدريس ، ومنتسب إلى كلية الحقوق الفرنسية ، وثانيهما إلى انجلترة وهو الشيخ زكى مشعل وهو حائز على شهادة الليسانس فى الفلسفة من جامعة فؤاد الأول فضلا عن شهادته الأزهرية كما أنه يجيد اللغة الانجليزية .

وقد عرض فضيلة الأستاذ الأكبر أمرهما على المجلس الأعلى للأزهر فى مذكرة خاصة فأصدر قرارا بالموافقة على إيفادهما على نحو ما بينا .

فى المراقبة العامة للبحوث والثقافة :

من القرارات التى وافقت عليها اللجنة الاستشارية لنشر الثقافة الاسلامية .

أولا — فيما يختص باختيار أصلح التراجم للقرآن الكريم تلبية للطلبات الخاصة بذلك حتى يتم الأزهر ترجمته . وقد رأت اللجنة أن هذه التراجم لا تصلح فى جملتها ، ولا بد من فحصها وتصحيح ما فيها أو فى مقدماتها من أخطاء وأن ينشر هذا التصحيح باسم الأزهر فى أوسع نطاق .

ورأت اللجنة أن من أهم ما يجب على الأزهر فى نشر معانى القرآن الكريم باللغات الأجنبية أن يوضع تفسير موجز للقرآن ثم يترجم ذلك التفسير إلى ما يراد من اللغات ، وترى اللجنة أن فى هذا تنفيذا للرغبة الملكية الكريمة السابقة التى صدر بها مرسوم فى سنة ١٩٣٦ .

ثانيا : فيما يختص بالبعوث العلمية إلى البلاد الأوربية : وقد رأت اللجنة الموافقة على إرسال بعثات سنوية إلى الجامعات الأوربية لسد حاجة كليات الأزهر إلى الأساتذة المتخصصين وأن يكون عدد أعضاء البعثات السنوية عشرة .

ثالثا : فيما يختص بنشر الثقافة الاسلامية فى البلاد الأوربية ، وقد رأت اللجنة تأليف ثلاث لجان لاختيار الكتب الصالحة فى اللغات الأوربية لنشر الاسلام وذلك تلبية للطلبات الواردة فى هذا الشأن ، على أن تختص لجنة باختيار الكتب الألمانية وأخرى باختيار الكتب الفرنسية وثالثة باختيار الكتب الانجليزية .

رابعا : فيما يختص بانشاء مكتبة خاصة بمراقبة البحوث والثقافة ، وقد وافقت اللجنة على إنشاء هذه المكتبة ، وتقدمت مراقبة البحوث بمذكرة إلى صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر ، بينت فيها الغرض منها وهو أن تزود دائما بالمستحدث من الكتب لتكون موضع الفحص والبحث والتقدير الدينى والعلمى وإذ ذاك يبدأ عمل المشيخة فى المشاركة فى توجيه الرأى العام فى الشرق ، وذلك بالرد والدفاع بعد الفحص .

وبما هو معروض على اللجنة الاستشارية موضوع على جانب عظيم من الأهمية وهو إنشاء معهد للدراسات الاسلامية أو معهد الدعوة الاسلامية ، وقد جاء فى المذكرة الخاصة بذلك أن معهد التخصص فى الدعوة الذى يتبع كلية أصول الدين والذى يحصل فيه الطالب على إجازة الدعوة والارشاد ، قد قصد به أن يكون المتخرج فيه ذا أهلية خاصة لنشر الدعوة الدينية والثقافة الاسلامية فى مصر وبقية العالم الاسلامى .

ولكن التجربة قد بينت أن هناك نقصا يحول بين رجال الأزهر وبين الدعوة على الوجه المطلوب ، وذلك هو عدم وقوف الطلاب على الأحوال النفسية والاجتماعية والثقافية للشعوب والجماعات الاسلامية ، فضلا عن العادات والمذاهب الدينية الشائعة بينها .

لذلك تقترح مراقبة البحوث والثقافة الاسلامية أن يحول قسم الوعظ والارشاد إلى معهد للدراسات الاسلامية أو معهد لدراسة أحوال الشعوب الاسلامية على نحو ما ينتهى إليه الرأى فى تسمية هذا المعهد ، على أن يوزع الطلاب فيه إلى شعب ، تعد كل شعبة لحمل الدعوة الاسلامية إلى بلد من بلدان العالم الاسلامى ، فتدرس فى كل شعبة لغة ذلك البلد وأحوال أهله دراسة جدية مؤدية إلى الغرض بجانب تعاليم الاسلام والثقافة الاسلامية فى شتى عصورها .

وينبغى أن يكون أسلوب المتخرجين فى هذا المعهد فى نشر الدعوة هو الأسلوب العلمى الحديث كى يتمشى مع عقليات الشعوب ونوازعها واتجاهاتها فى الحياة على أن يغلب فيه طابع المعرفة والثقافة على طابع الوعظ .